الرسائل

@ketab_n
31.5.2015

محمود درويش و سميح القاسم

@ketab_n

دار العودة - بيروت

محمود درويش / سميح القاسم

الرسائل

دار العودة - بيروت

Twitter: @ketab_n

محمود درويش / سميح القاسم

الرسائل

Twitter: @ketab_n

حقوق الطبع محفوظة
لدار العودة
١٩٩٠

يطلب من دار العودة - بيروت
كورنيش المزرعة - بناية ريفيرا سنتر
تلفون ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس MEREBI ٢٣٦٨٢ L E
ص.ب ١٤٦٢٨٤

Twitter: @ketab_n

«هيك مَشْق الزعرورة، يا يُمّه هيك» !

● لا ألوم الا نفسي على انني لم انتبه الى روعة هذه الرسائل، المتبادلة بين شطري (شقّي) البرتقالة الفلسطينية ـ محمود درويش و سميح القاسم ـ الا بعد ان تكاملت بشراً سوياً. الأعمار بيد الله، امامهما، مديدة. اما قصدي فهو الانتفاضة التي احسّا بمقدمها احساس الطير بالعاصفة قبل هبوبها:

ـ «فـرَجٌ مـا؟ هناك دائماً فرج ما.. لن نفقد الأمل ولو من اجل الاجيال القادمة. وحسبنا، يا صديقي العزيز، اننا نرسم بحبر الروح وبدم القصيدة سهماً واضحاً (أرجو ان يكون واضحاً) يؤشر الى الاتجاه السليم نحو خروبتنا وزيتوننتا وزهرة برقوقنا اللاذعة».

★ سميح القاسم ـ الرامة ٨٦/٦/٢٩

Twitter: @ketab_n

ـ «أما لآخر هذا الليل من آخر؟.. هل استطاع الجنين، المتكون في هذا الرحم المريض، ان ينجو من المرض؟ لا اقترح جواباً بل أطل على صحراء.. ما اسم الجزيرة اذا جف البحر؟ لا أقترح جواباً بل أطل على صحراء».

★ محمود درويش ـ باريس ٨٦/٧/٢٢

ـ «وماذا بعد؟ أما آن لتعب السؤال ان يجزى براحة الجواب؟... هنا يحين دورنا. نستعيد صرخة ذلك الشهيد القديم: اهطل صليبك واتبعني!!.. اما نحن فقد رأينا وثرنا. أدركنا وثرنا. آمنا وثرنا. هذا الجعل البشري المقلوب على ظهره ظلماً وغدراً وعدواناً سيستقيم من جديد وسيبعث انساناً سوياً رغم كل الوحوش المتحضرة المتألبة علينا.. نحن في حاجة لثارنا القديمة ـ على سذاجتها ـ لأنها الخاص الكامن في اعماقنا مثل حبة الرمل الكامنة في اعماق اللؤلؤة».

★ سميح القاسم ـ حيفا ٨٦/٧/٢٧

ـ «معك حق. معك حق: نحن في حاجة ماسة الى الايمان الاول والى النار الاولى. نحن في حاجة الى سذاجتنا. نحن في حاجة الى درس الوطن الاول: ان نقاوم بما نملك من عناد وسخرية، بما نملك من جنون. في الازمات تكثر النبوءات. وها أنذا أرى وجهاً للحرية محاطاً بغصني زيتون. أراه طالعاً من حجره».

★ محمود درويش ـ باريس ٨٦/٨/٥

ـ «عام جديد. أهو، حقاً، كذلك؟ وكيف نُحصي، نحن، اعواما؟ لنبدأ، إذن، لنبدأ تقويمنا بعام الفيل. وليكن هذا عام المخيم. اما العام القادم فسنجد له اسماً آخر جميلاً ورشيقاً بقدر يتناسب عكسياً مع ما نحن فيه، أسمه وشعباً، أرضاً وسماء، بشراً وشعراء».

★ سميح القاسم ـ الرامة ٨٧/١/٢١

ـ «إن ذلك البقاء الاول هو الذي حمى الوطن من التلاشي. وان الداخل هو القوة المادية للهوية الوطنية الثقافية. وان للداخل اسماً يفوق السحر، لان الداخل هو الذي وفّر للظاهرة الفلسطينية قوة المعجزة».

★ محمود درويش ـ باريس ٨٧/١٠/٥

Twitter: @ketab_n

وحين تحققت النبوءة وهبت العاصفة (٨٧/١٢/٩) اثبت شاعرانا انهما، بالحس المنبثق عن أغنى تجربة وعن أعمق مسؤولية وطنية انسانية، انهما ـ برؤيتهما الثاقبة وبعيدة المدى ـ صقران:

ـ «كم انا سعيد وممتلىء غبطة وتفاؤلاً بوردتنا الطالعة من حجر. وفي الوقت نفسه فإنني خائف على هذه الوردة... اما من حجارة في الوطن العربي»؟!

★ سميح القاسم ـ القدس ٨٨/٢/٨

ـ «ليت الحاكم العربي يترك الداخل وشأنه. ليته لا يشارك الاسرائيلي الخوف من استقلال الفلسطيني العربي.. لا تستهجن، ابداً، ان يرفعوا شعار الهروب الى امام، كأن يطالبوا الانتفاضة، وحدها، بمهمة تحرير كامل التراب الفلسطيني، من النهر الى البحر! سيتآمرون. نعم سيتآمرون. فهل لهم من مهنة أخرى؟!».

★ محمود درويش ـ ٨٨/٢/٢٩

ـ «واذا كان الفلسطيني القديم قد اطلق صرخته المدوية: على هذه الصخرة ابني كنيستي، فإن الفلسطيني الجديد يعلنها، متمترساً في كرمه: على هذا الحجر أبني دولتي»!

★ سميح القاسم ـ الرامة ٨٨/٣/١٧

أراني «واحداً منهم»، ومنهما. غير ان هموم ميلاد الجديد ـ انتفاضة لدى شعبي وانتفاضة في مفاهيمنا وأساليبنا الثورية ـ أشغلتني عن هذه الرسائل حين كانا يقطّرانها، في افواهنا العطشى، قطرة قطرة. وهل تشفي الغليل قطرات من الدمع المالح؟ الآن، وقد هطلت الحجارة على هذه الصحراء فاستصلحتها فأثمرت تيناً وزيتوناً، أرى الى هذه الرسائل انها لم تكن مجرد قطرات دمع من عيون بخيلة بالدمع بل مشي حجلان كبيرة تسير وراءها افراخها قاطعة، بأمان، عرض شارع معبد بالزفت والقطران. أراها ضجة العصافير، شعراً، في سيمفونية فجائية تبشر بمقدم الربيع الى بلادنا. والدتي، حتى في ايامها الاخيرة، كانت تصر على ان ترقص امامنا رقصة الربيع في بلادنا: «هيك مَشْق الزعرورة، يا يُمّه هيك!» وكانت تدمع وتبتسم. وكنا، نحن

Twitter: @ketab_n

افراخها، ندمع ونبتسم. أي، والله يا محمود ويا سميح، «هيك مشق الزعرورة، يا يُمَّه هيك»!

تستحق هذه الرسائل الاسم الذي اطلقه عليها الكاتب محمد علي طه «رسائل بين شطري البرتقالة» لان صاحبيها يشكلان حقاً شطري، او «شقّي البرتقالة الفلسطينية». «لقد كان كل واحد منا شاهداً على ميلاد الآخر» كما جاء في رسالة محمود «الاستفتاحية المباركة» الى اخيه التوأم، سميح (مجلة «اليوم السابع» ٨٦/٥/١٩). وليطمئن محمود درويش على اننا، منذ اليوم الاول، عرفنا هوية الجاني فإنه، كما قال في رسالته الاولى:

«من حق الولد ان يلعب خارج ساحة الدار، من حقه ان يقيس المدى بفتحة ناي. من حقه ان يقع في بئر او فوهة كبيرة في جذع شجرة خروب. من حقه ان يضل الطريق الى البحر او الى المدرسة. ولكن ليس من حق احد، حتى لو كان عدواً، ان يُبقي الولد خارج الدار».

وما دام سميح، واخوة سميح واخواته، قاعدين هنا ينتظرون، برمش العين ينتظرون ولا يكتفون بالانتظار لان ترف الانتظار محظور علينا حتى جعلوه «حركة سرية»، وما دام الاقرار بيننا متبادلاً بنصيب كل واحد منا في هذه البرتقالة ومحفظون ـ عن باطن قلب ـ مناداة توفيق زياد لكم:

«فمأساتي التي احيى
نصيبي من مآسيكم».

فلا بد ان يستجيب القدر لصرختك الصميمية، صرخة طفل يستجير بأمه: يامّه! «بدي اعود. بدي اعود»! قديماً كنا نقول ان مصيبتنا تنطق الصخر. لقد نطق الصخر يا محمود. ان العود احمد! ان العود محمود! ان العود سميح! ان العود بشر!

وأول العودة الى الوطن العودة الى الحب الاول والمنزل الاول ـ «لك يا منازل في القلوب منازل» ـ والقصيدة الاولى. ها انتما قد عدتما اليه:

«قصيدتنا المشتركة ـ كما كتب سميح ـ في الرامة ودير الاسد وحيفا، وحبنا المشترك وسجننا المشترك ونضالنا المشترك وجريدتنا المشتركة وذاكرتنا المشتركة، هذا العالم الزاخر، بالفرح الدامي،

Twitter: @ketab_n

الجياش بغبطة التحدي وكبرياء الالم، كان رأس النبع الذي اكتشفناه، وها نحن نعود اليه». (مجلة «اليوم السابع» ـ ٨٦/٦/٩)

ولكن لماذا الآن، والآن فقط، تبادرت الى ذهني «قراءة اخرى» لهذه الرسائل ـ «الرسائل المتبادلة بين شقي البرتقالة الفلسطينية»؟ أقرأ كلمة «شِقَّيْ» على انها «شَقيّ». فيصبح العنوان «رسائل متبادلة بين شَقيّ البرتقالة الفلسطينية، محمود، وبين اخيه التوأم شَقيّ البرتقالة الفلسطينية، سميح».

انني اعرف الجواب. ولكني احتفظ به، الآن، في نفسي.

ولا تحمل كلمة «شَقِيّ»، حينئذ، معنى الشقاء فحسب بل معنى الشقاوة حسب قولنا «شق عصا الطاعة» فهو شقي. وهذا، بالضبط، هو المعنى المثير الذي لم اكتشفه في «الرسائل» الا الآن. وعلى هذا المعنى يستحقان، مني على الاقل ومني خصوصاً الآن، ان يُعترف لهما بـ «عصا الطاعة».

لم يأتني، في زحمة «الرسائل» التي كنت ابعثها الى ذاتي محاولاً التمييز بين القواعد والقعود، بين الحدود والقيود، بين «فكر النفي» و «نفي الفكر»، انني لست وحيداً ـ بل متأخراً وعلى شفا الرسوب ـ في حمل لواء الانتفاضة الفكرية الشاملة التي تقض، منذ عدة سنوات، مضاجع الفكر التقدمي الثوري حتى لم تبق لنا من «امام» سوى «إمام المعري»:

«كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء»!

لقد وجدتُ هذين «الشقيين»، في «الرسائل» بل منذ ان شبا على الطوق ـ وكان طوقنا احياناً ـ رافضين، ابداً، لكل ما يحول بينهما وبين حرية التفكير، ولا تكون حرية التفكير الا بحرية النقد، لا يقبلان ـ في هذا المجال الذي بدونه تضمحل وتتلاشى ثم تزول انسانية الانسان ـ أية ذريعة، لا ذريعة «دستور» ولا ذريعة «مسؤولية سياسية».

الآن فقط، في خضم «الكارثة والبطولة» ـ في «الحرب الكونية الفكرية» الناشبة الآن في حركتنا ضد الجمود والقعود ومن اجل استبدال المواعين النحاسية الصدئة، حتى التسمم، بمواعين حضارية لا تصدأ ـ يسير الفكر

Twitter: @ketab_n

التقدمي الثوري، عبر أشرس مقاومة وصلت في بكين عاصمة الصين الى دوس الطلبة بجنازير الدبابات ووصلت في جمهورية اوزبكستان السوفييتية الى ذبح الاقليات، نحو الاعتراف بأنه لم يعد لدينا من «طابو» سوى رفاهية الانسان وسعادته المادية والروحية التي لا يمكن ان تتحقق الا بانطلاقة دمقراطية شاملة لا تكتفي بالاعتراف بحرية النقد بل تضمن ممارسته مثلما فعل الانبياء السالفون.

لقد شقي هذان الشقيان، بشن هذه الحرب، في بلادنا وفي مجتمعنا وفي حركتنا، منذ ان شبًا على الطوق وشقًا علينا، نحن ايضاً، عصا الطاعة.

واعلم انه ليس عرضاً اختيارهما اياي لكتابة هذه المقدمة لهذا الكتاب الذي يجمع الرسائل العلنية المتبادلة بينهما. فأنا «واحد منهم». اما هما فلم يترددا في ارتياد ممالك الشاعر بايرون الذهبية. واما انا فاكتفيت بما اكتفى به الروائي جول فيرن: اقعدتني المسؤولية فلم أشق عصا الطاعة عليها الا في رواية واحدة هي «لكع بن لكع». غير اني مضيت «اتكتك» في كتابتها ـ من شدة المسؤولية ـ حتى «اكلتها التكتكة» ولم يبق سواي من يفهمها. فلما طلع الصبح علينا، في عصر «الصراحة والعلنية والتفكير الجديد»، ادركتُ ان شجاعتي الادبية انما اقتصرت على نقد «لكع الآخر»! اما «لكعي» فلم اجرؤ على ان أنبس عنه ببنت شفة. فلما اردت النطق، الآن، باعني اتباعه بالعملة نفسها!

لن اتستر وراء هذه المقدمة لضرب ما احتاجه من مراجعة الذات «على بزرة دانها». لن يعود الشيخ الى صباه. ولكن شيخاً، في لؤلؤته بقية من جمر خير من شاب يرفض ان يفتح عينيه بعد ان تعود على العمى. يكفيني من هذه المقدمة بضعة من اقوال هذين الشقيين في «الرسائل المتبادلة»:

قول محمود: «لا فكاك من الحاضر مهما استقلت منه. فهو الطريق الوحيد، مهما ضاق واتسعتَ، الى نقطة المستقبل».

وقول سميح: «نحن في حاجة لنارنا القديمة، على سذاجتها، لانها الخاص

Twitter: @ketab_n

الكامن في اعماقنا مثل حبة الرمل الكامنة في اعماق اللؤلؤة».

ارجو ان تقبلا مني امتنان الوالد للولد حتى اولاد الولد. ومن خلّف مثل هذا الجيل ما مات.

ولقد كنت، في الامتحان الذي اقعد له الآن، في حاجة الى الاطمئنان الى العلاقات الانسانية العادية. وعلى رأسها الصداقة. لقد هزتني، من الاعماق، كلمة ميخائيل غورباتشوف عن ضرورة وضع حد للبون الشاسع القائم حالياً بين السياسة والاخلاق. فلما أردت ان افعل ذلك «بكى صاحبي» ولم يبق لي الا البكاء على «اصدقاء المتنبي». فوجدت سميحاً، في احدى «الرسائل» يطمئنني على ان علاقات الصداقة بخير اذا هبطنا بالصداقة من سماء المثالية الى ارض حياتنا. دهشت حين وجدته يقول:

«تلح عَلَيَّ فكرة الصداقة.. وقد تكون هذه هي المرة الاولى التي أتأمل فيها هذه المقولة البسيطة (صداقة). ويتضح لي على الفور انها ليست بسيطة على الاطلاق. وحين احاول تعريفها اكتشف ان الامر ليس من السهولة بمكان. تماماً كما يُطلب الينا تعريف الشعر. واتملص من نفسي الى نفسي قانعاً بالحكم ان الصداقة هي ما بيننا ـ خيراً وشراً، سلباً وايجاباً، اقامة وغربة.. واطمح الى الزعم بأن الصداقة كالصحة، مستنجداً بالقول المأثور: الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه سوى المرضى. هل حالفني الحظ؟ لا ليس تماماً. فنحن الاصحاء ونحن المرضى. نحن التاج ونحن العين التي ترنو اليه دامعة بدخان الروح، حمراء بغبار الغضب».

بل حالفك، حالفكما، الحظ وتماماً.

و «هيك مشق الزعرورة» وبس هيك.

وأتمنى ان اكون معكما في الاجزاء القادمة من كتاب «الرسائل». وأمد الله في عمركما حتى بعد مطلع الصبح فأنتما، لشعبكما وللانسانية، ما قيل عن «سراج الدنيا».

حيفا ـ ١٩٨٩/٦/١٦

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحزمة الأولى

★ في هذه الحزمة مجموعة من الرسائل والقصائد المتبادلة بين الشاعرين منذ فتوتهما الشعرية والزمنية. ننشر هنا آخر قصيدتين / رسالتين، أما ما تبقى فقد نعثر عليه ذات يوم بين أوراق الشاعرين ★

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تغريبة

[إلى محمود درويش]

لبيروت وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن صديقان
سجنا ومنفى
قطعنا بلادا وراء بلاد
وها نحنُ، في تعتماتِ الدوار
نعودُ
وزادُ المعاد
عناقٌ سريعٌ بباب مطار.
أكانَ اللقاءُ اعتذارا؟
أكانَ الوداعُ فرارا؟
بدون كلام نمدّ اليدينْ
ويا ليلُ يا عينُ
لا الليل ليلٌ
ولا العينُ عينْ
يفرّقُنا العالمُ اليعربيُّ
ويجمعُنا العالمُ الاجنبيُّ

Twitter: @ketab_n

ونبقى أجانبَ في العالمين!
ويبقى الرحيلْ
مع الريح، من منزلٍ في الجليلْ
الى الريح
في فندق غامض
يعانقُ فيه القتيل القتيلْ..
بدون سلام
بدون كلام
تُقبِّل في عُنُقي قلبَ أُمِّكْ
«ورُبَّ أخٍ لكَ...»
ألقي بهمي على صدرِ هَمِّكْ
ونبكي ونضحكُ
.. في غربتينْ!
أتسألني كيف حالي
وأنت جوابُ السؤالِ ؟
عذابيَ فُلَّهْ
وموتيَ قُبلَهْ
بلا شفتين
ذهبتُ بعيداً
وعدتُ وحيداً
يتمتمُ فيَّ عجوزٌ حقودْ:
متى؟ كيف؟ أينَ؟
متى؟

Twitter: @ketab_n

كيف؟

أين؟

■■■

للندنَ وجهانِ

وجـهٌ لحيفا

ونحنُ رفيقانِ

خصماً وإلفا..

يؤرّخنا الحبُّ والموتُ

في دفتر الارض

تغريبة للمهاجرْ

وتغريبة للوطنْ

ونغضي بأسرارنا للقباب

وننقش أحزاننا في القناطرْ

ونُطلقُ من جرحنا عندليبا

يزلزلُ صمتَ الزمنْ

ونعجنُ بالدمع

خبزَ المجازرْ!

أتذكرُ ضرعاً شهياً

رضعناهُ دون شهيّة؟

وزيتونةً غادرتنا

كسائحة أجنبيّة؟

وعاشقةً

ما رَحَمْنا هواها،

Twitter: @ketab_n

وظلّتْ وفيّة؟
أتذكرُ أيّامَ جُعنا
معاً
وشبعنا
معاً
ثمّ جعنا
معاً
وعشقنا
معاً
ثمّ ضعنا؟
سلامٌ عليكَ
سلامٌ عَلَيَّا
على الحبِّ
يولَدُ
ثمّ يموتُ
ـ سلامٌ عليه ـ
ويُبعثُ حيّا؟
لكلِّ المغنّين
أمٌّ حزينه
وكلُّ مغنّ
مدينه
تنامُ
وفي قلبها نجمةٌ

Twitter: @ketab_n

وتصحو
وفي جُرحها.. غنغرينه؟
ونحنُ،
شروق الاغاريد كنّا
فهل سنكونُ
غروبَ الضغينه؟!
من «الرامة» الخائفه
إلى «البروة» السالفه
إلى دمعةٍ بيننا واقفه
تقوم على الرمل دنيا
وتسقط في الوحل دنيا
وأعداؤنا
لعنةٌ
يُحجمُ الموتُ
وهْي على رِسْلها زاحفه
وأنصارنا
عملةٌ زائفه
فماذا عساني أفعلُ وحدي
وماذا ستفعلُ وَحدَكْ
وقد صارَ لحديَ مهدي
ومهدُكَ لَحْدك؟
أأنشد عنكَ
وتنشدُ عني

Twitter: @ketab_n

لصحراء قاحلة قاحله
يموت على ساعديها المغني
وتتركه خلفها القافله؟
أتخرجُ حوريّة البحرِ
من صَدَفِ القاعِ
أم أوصدَ البحر أسرارهُ
وانتهينا،
نُتمتمُ سخطاً:
متى؟
كيف؟
أين؟!

■■■

تساءلتُ في ساعةِ القصفِ؟
هل أدركتهُ القذائفْ
مُكباً على نبأ في جريده؟
وهل أخطأتهُ القذائفْ
ليشربَ كأساً جديدهْ
ويودعَ لوعته في قصيده!
تساءلتُ: كيفَ هو الآنَ
غضبان
جوعان
بردان
خائف؟

Twitter: @ketab_n

وهل فاجأتْهُ القذائف؟
وهل أمهلتْه القذائف؟
على شاشة التليفزيون
أبصرتُ وجهك
في ضوء قنبلةٍ مُشمسه
وكانت بقربك جثّةٌ طفله
وقُصفةُ فلّه
وأفواهٌ قتلى المحبة والشوقِ
مفغورةٌ..
آخ.. أبواق خزيي وخوفي
تجلجلُ بالدمْ
ما من سميع وما من مجيبْ
سوى قهقهات سكارى سدوم
وهزءِ عمورا وتلِّ أبيبْ
وأدنيتُ كفّي لوجهكَ
حاولتُ أن ألمسه
على شاشة التليفزيون
في ضوءِ قُنبلة مُشمسَه
وكانت بقربك جثّةُ طِفلهْ
على وَجهها وجهُ حُبّي «محمّد»
و «وضّاح» يزعقُ رعباً
على شاشة التليفزيون
يزعقُ رعباً

Twitter: @ketab_n

ويجذبُ زندَ «عُمرْ»
لعلَّ ملاذاً ببعض الحُفَرْ
ومـتُّ
ومـتُّ
ومـاتَ البَشَرْ
جميع البشرْ
ومـات القمرْ
وراحتْ تكفّنهُ الريحُ سرّاً
وتدفنهُ في هشيم الشجرْ
ولم يبقَ من عالم الله والناس
إلا خبرْ
شظايا خبرْ
وكانت بقربكَ جثّة
الى جنبِ جثه
وفي القلب جثه
وما كان بالقرب منّي
سوى دمع عيني
«وربَّ أخٍ ..»

■■■

لباريس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن شقيقان
حِلماً وسُخفا

Twitter: @ketab_n

وتعرفُ قلبي
وتعرفُ حزني
ووردةَ حُبي
وخيبة ظـنـي
وتبصر بيتك في وهـج صوتي
وأسمع صوتك
في صمتِ بيتي.
«ورُبَّ أخٍ لك...»
فكَّرتُ فيك
لانِي أُحـبُّ بلادي
وفكَّرت فيَّ
لانّ البلاد
ـ دع الشعر ـ
ليست تفكّر في النازحين
وليست تُفكر في الرازحين
ـ دع الشعر ـ
كيف يفكّر صخرٌ وطين؟
ـ دع الشعر ـ
نحنُ حطامُ الاغاني
ومجزرةُ القمح والياسمين
وأعداءُ أطفالنا يضربون
وأصحابُنا يكذبون
ولم يبقَ في الارض

Twitter: @ketab_n

غير الذين
يحبّوننا ميّتين
وإن قدّرَ اللهُ حُسْنَ النوايا
فقد يقبلون بنا لاجئين
ومُستضعَفين
ومستنزَفين..
وفكّرتُ فيك
وفكّرت فيّ
لأن الشهيدَ
صديقٌ وفيّ!

■■■

لبيروت وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ صديقان
سجناً ومنفى

للندن وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ رفيقان
حبا وخوفا

لباريس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ شقيقان
قمعاً وعسفا

Twitter: @ketab_n

لتونس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن غريبان
نحنُ غريبان
نحنُ غريبان
ما من زمانٍ
وما من مكانٍ
لماذا؟ لماذا؟
وأيـن؟
وكيفا؟
ووجهٌ... لحيفا

سميح القاسم
الرامة ـ ١٩٨٢/١٠/٢٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أسمّيك نرجسة حول قلبي

[إلى سميح القاسم]

دوائرٌ حولَ الدوائر، لو كان قلبي مَعَكْ
قطعتُ مزيداً من البحر. ماذا أصابَ الفَرَاشَ،
وما صَنَعَ النبعُ بالفتياتِ الصغيرات؟ ماذا دهانا؟
لندخل هذا العناقَ السرابَ.. العناقَ السرابَ السرابْ
ونحن على مشهدٍ لا يُكَرِّرُ الاّ حضورَ الغيابْ
تماثيلَ تُحصى، حصى، مشمشاً، شارعاً، شارعين. وبابْ
يطلُّ على خُطْوةٍ لم تصلْ بعدُ. ماذا أصاب الوهجْ
وما فعل الليلُ بالعتباتِ الأليفة؟ ماذا دهانا؟
لتنفصلَ العينُ عن نظرةٍ صَوَّبَتها؟ أحين تمدُّ الجذورْ
رسائلَها في الفضاءِ لتمتدَّ فينا يغيبُ الحضورْ؟
غيابٌ حُلولِيَ في كُلِّ دارٍ. غيابٌ بلادٌ أُشيّدها في اللغهْ
غيابٌ دخولِيَ في الروحِ . لا شيءَ فيَّ. غيابٌ غيابْ.
إذا غَفَرَ اللهُ للأنبياءْ
وعادوا الى الأرضِ من ملكوت العقيدهْ؛
إذا غفر الله للسجناءْ
وعادوا إلى البيتِ من رحلةٍ في مساء القصيدهْ؛
إذا غفر الله للشهداءْ

Twitter: @ketab_n

وعادوا إلى الأهل من جنّة الكلماتِ البعيدهْ
فهل تغفرُ الأمُّ لي
رحيلي إلى امرأةٍ ثانيهْ؟

■■■

دوائرُ حول الدوائر، دعني أُفسِّرْ لكَ الحادثهْ
حلمتُ، كما كُنْتَ تحلم، أن حزيران أقسى الشهورْ
وأنَّ الكلام الذي يتكرَّرُ فينا لكي نتبعهْ
هو الكارثهْ.
حلمتُ، كما كنتَ تحلمُ، أن البحيرات زرقاءُ خلف يديَّ، وخلف يديكْ.
وأن الطريق المعاكسَ أقربُ منّي إليَّ، وأقربُ منكَ إليكْ،
وأن لحريقي رمزَ تموزَ والزوبعهْ.
حلمتُ فطِرْتُ لأدخل، ثانيةً، في الجذورْ
وغبتُ لأُحضِرَ كلَّ هدايا اللغهْ
إليكْ..
وكدتُ أعود قُبَيْل انبثاق الفراقْ
ولكنَّ حادثةَ الوهم تَمَّتْ، وتمَّ احتراقُ البُراقْ.
على شارع عجَّ بالحالمين،
وبالرحلة الثالثهْ.

■■■

إذا ضَلَّت الروحُ خارجَها
ضَلَّلتْ روحَ داخلها

■■■

أسمِّيك نرجسةً حول قلبي

Twitter: @ketab_n

لو كان قلبي معكْ،
وأودعتهُ خَشَبَ السنديانِ،
لكنتُ قطعتُ الطريقَ بموتٍ أقلَّ...
أما من وراءٍ؟ أما من أمامٍ ؟ أما من صعود؟
أما من هبوط؟
أما آن للفارس المُرِّ أن يتوسَّدَ ظلاّ
وأن يشتري قبرَهُ قبل أن ينفدَ القفرُ. ماذا دهانا
أما كان من حقّنا أن نُصَدِّق امرأةً واحدهْ
وأسطورة واحدهْ؟
حرامٌ علينا مكاشفةُ الذات. هل ترقص الباسادوبلي
وتعبر في شارع المومساتْ؟
أما كان من حَقّنا أن نواصل ذاك الضحكْ
وكَسْرَ الزجاجاتِ في شارع الليل حين يموتُ الملكْ؟
لنا الذكرياتُ، وللغزوِ ترجمةُ الذكرياتِ إلى أسلحهْ
ومستوطناتْ.
أما زلت تؤمن أن القصائد أقوى من الطائرات؟
إذن، كيف لم يستطع إمرؤُ القيسِ فينا مواجهة المذبحهْ؟
سؤالي غلطْ
لأنّ جروحي صحيحهْ
ونطقي صحيحٌ، وحبري صحيحٌ، وروحي فضيحهْ.
أما كان من حَقنا أن نكرّس للخيل بعضَ القصائد قبلَ انتحار القريحهْ؟
سؤالي غلطْ
لأني نمطْ

Twitter: @ketab_n

وبعد دقائق أشربُ نخبي ونخبكَ من أجل عامٍ سعيدٍ جديدٍ جديدٍ سعيدٍ
جديدٍ سعيدْ

■■■

إذا ضلّت الروحُ خارجَها
ضلّتْ روحَ داخِلها.

■■■

سنكتبُ، لا شيء يثبت أني أُحبك غير الكتابةْ
أُعانق فيك الذين أحبوا ولم يفصحوا بعد عن حُبِّهم.
أُعانق فيك تفاصيل عمرٍ توقّفَ في لحظةٍ لا تشيخُ.
هنا قلبُ أُمّي. هنا وجهُ أُمّك.
هنا أوّل الشعر والسخريةْ.
هنا أول السُّلّم الحجريِّ المؤدي الى الله والسجن والكلمةْ.
هنا نستطيع انتظارَ البرابرة المؤمنين بجحشٍ توقف في أرضنا قبل ميلاد عيسى عليه السلام،
وأسّس دولته بعد ألفي سنةْ.
أتحسب أن الزمانَ يُضَيِّعُ حَقَّ الحمير بقتلِ العربْ؟

■■■

سنكتب، لا شيء يثبتُ أنّ الزمانَ طويلُ اللسانِ سوى الكلمات التي لا تَصُدُّ سوى موتِ صاحبها
فقُلْها
وقُلْها
وخفِّفْ عن القلبِ بعضَ التلوّثِ والأسئلةْ
وقُلْها

Twitter: @ketab_n

وخفِّفْ عن الناس سادِيَّة العصرِ والاخوةِ ـ القَتَلَهْ
سنكتب من غير قافيةٍ أو وطنْ
لأن الكتابة تثبت أني أُحبكْ،
وأنَّ لأُمي حقاً بقلبكْ
وأنَّ يديك يدايَ، وقلبي قلبُكْ!

محمود درويش
باريس ـ ١٩٨٦

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحـزمـة
الثانيـة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رسالة اولى

● عزيزي سميح،

... وما قيمة ان يتبادل شاعران الرسائل؟

لقد اتفقنا على هذه الفكرة المغرية منذ عامين في مدينة استوكهولم الباردة. وها انذا اعترف بتقصيري، لانني محروم من متعة التخطيط لسبعة ايام قادمة، فأنا مخطوف دائماً الى لا مكان آخر. ولكن تسلُّل الفكرة المشتركة الى الكثيرين من الاصدقاء تحوّل الى الحاح لا يُقاوم. كم تبهجني قراءة الرسائل! وكم أمقت كتابتها، لأني اخشى ان تشي ببوح حميم قد يخلق جواً فضائحياً لا ينقصني، حتى تحولت هذه الخشية الى مصدر اتهامات لا تحصى، ليس افدحها «التعالي»، كما هو رائج!

الآن، اشمر عن عواطفي، وابدأ. لا اعرف من أين ابدأ عملية النظر الى مرآتنا المشتركة. ولكني سأبدأ لانضبط ولأورطك في انضباط صارم. سيكون التردد او التراجع قاسياً بعدما اشهدنا القراء علينا؛ وبعدما هنأتك بعيد ميلادك الذي يواصل صناعة الفارق بين العمر والصورة. كل عام وانت في خير وشعر حتى نهايات النشيد.

لن نخدع احداً، وسنقلب التقاليد، فمن عادة الناشرين، او الكتاب، او الورثة ان يجمعوا الرسائل المكتوبة في كتاب. ولكننا هنا نُصمم الكتاب ونضع له الرسائل. لعبتنا مكشوفة. سنعلق سيرتنا على السطوح، او نواري الخجل من كتاب المذكرات بكتابتها في رسائل.

انتبه جيداً، لن تستطيع قول ما لا يُقال. فنحن مطالبان بالعبوس، مطالبان بالصدق والاخفاء ومراقبتهما في آن. مطالبان بألا نشوه صورة نمطية اعدتها لنا المخيلة العامة. ومطالبان باجراء تعديل ما على طبيعة أدب الرسائل؛ أبرزه استبعاد وجوه الشهود وجمالية الضعف الانساني. فكيف نحل هذه المعضلة التي يُجمد بقاؤها الفارق الطليُّ بين الرسالة والمقالة؟

سنحاول افلات النص من ضفافه، اذ لعل أبرز خصائص الكتابة هي فن تحديد

Twitter: @ketab_n

الضفاف الذي يسميه النقد بناء؛ فلنكسر البناء لتعثر لعبتنا الجديدة على ساحتها المفتوحة.

وأصل الحكاية ـ كما تذكر ـ هو رغبتنا الوارفة في ان نترك حولنا، وبعدنا، وفينا، اثراً مشتركاً وشهادة على تجربة جيل تألب على نور الامل وعلى نار الحسرة، وان نقدم اعتذاراً مدوّياً عن انقطاع اصاب ساعة في عمرنا الواحد، وان نعيد ارتباطنا السابق الينا والى وعي الناس ووجدانهم، لنواصل هذه الثنائية المتناغمة ـ ثنائيتنا ـ الى آخر دقيقة في الزمن، بعدما تمرّدنا عليها في مطلع التكوُّن الجنيني تمرداً كان ضرورياً لبلورة خصوصية لا بديل عنها في الشعر، ثم تجاوزت نزعتها الاستقلالية لتتحول الى تناحر سفيه قد كان احد مصادره احساس الواحد منا، بشكل مفاجىء، بقطيعة حوار توصلُ الى يُتم. لقد كان كل واحد منا شاهداً على ولادة الآخر. فلنتابع هذه الشهادة.

ولكن، ما قيمةُ ان يتبادل شاعران الرسائل؟

لسنا بشاعرين هنا، ولن نكون شاعرين الا عندما يقتضي الامر ذلك. هل هذا ممكن؟ لا اعرف ان كنت سترضى بهذا التغييب الملازم لاستحضار انسانيتنا المقهورة «بعدوان» الحب والقصيدة، منذ حول العربيُّ الجديد شاعرهُ الجديد الى موضوع. فماذا تريد ان نقول؟ لقد فعل الشعر فينا ما تفعل الموسيقى بموضوعها، تتجاوزه للافتتان بذاتها واداتها. ولكن اين مكاننا؟ اين لحمنا ودمنا؟ اين طفولتنا؟

لقد تعبتُ من المهارة. ولكن أعجبتني حاسة المهارة المنتبهة الى ذاتها في مجموعتك الشعرية الجديدة. ومع ذلك، فان اكثر ما يعنيني هو انسانيتك. وهنا تحديداً: ابوك. لقد اعادتني مرثيتك اليه، الى كرم الزيتون المعلق على خاصرة السمو الراسخ، والى قدرتنا على الدهشة وسط تبدل الروائح الصلبة في الطبيعة، والى الحدود الناتئة الفاصلة بين الفصول. مَنْ لا مكان له لا فصول له. ولكنني ما زلت مفتوناً ومجنوناً بخريفنا. وخريفنا ليس هو الشجر المدافع عن بذاءة الذهب، ولكنه الرائحة. فكيف ستنقل الي هذه الرائحة بالرسائل؟

خذني الى هناك اذا كان لي متسع في السراب المتحجّر، خذني الى مضائق رائحة اشمها على الشاشة وعلى الورق وعلى الهاتف. واذا تعذر ذلك فليسمع منك كل الحصى والعشب والنوافذ المفتوحة اعتذاري الجارح.

من حق الولد ان يلعب خارج ساحة الدار. من حقه ان يقيس المدى بفتحة ناي. من حقه ان يقع في بئر او فوهة كبيرة في جذع شجرة خروب. من حقه ان يضلَّ الطريق الى البحر او المدرسة. ولكن ليس من حق احد، حتى لو كان عدواً، ان يُبقي الولد

Twitter: @ketab_n

خارج الدار.

لم نذهب الى العمر في هذه الطريقة، بل ذهبنا على هذا الطريق. هل تذكر هتافك الساطع «ابداً على هذا الطريق»؟ ابداً... ابداً وان تعرَّج، او عرج بنا على مناف لم تخطر على بال آلهة الشر الاغريقية. ولا أفعى جلجامش فعلت ما فعلت بنا بنت الجبران. هل تذكر الشارع الخارج من عكا الى الشمال العربي، وسكة الحديد الموصلة الى الجنوب العربي؟. ولكن، ابداً... ابداً على هذا الطريق مهما اشتد مزاح الزمن، ومهما توسع حمار الخواجا بلعام...

لستُ نادماً على شيء، فما زلتُ قادراً على الجنون، وعلى الكتابة وعلى الحنين. ودون ان اتساءل: هل سبقت الفكرة اداتها ليتكاثر عليها هذا الحصار؟ اصرخ في وجوه الذين يدفعون الفكرة الى الضجر: ان روحي هناك. واقول لك: ان اولئك المحتلين، الواقفين بيني وبينك، لا يستحقون اية مقارنة مع اي شر عربي.. عبيد الخرافات، طفيليات العجز المحيط، سلالة الانتقام، لا حق لهم في التصفيق لحماقة الآخرين التي تواصل انتاجهم المؤقت. وماذا لو انتصروا في غياب؟ هل يضمن فولاذهم القوي النجاح الدائم لفكرة ميتة؟ وهل تصوغ الاداة الحق من الزائل؟

لهذا السبب أحارب الالتباس الخبيث، ولا أمد حنيني على جسر فردي. فكن انت جسري الصلب، وقدم لجدل «الداخل والخارج» عافية التواصل. عوضني عن غياب لأفرح: ما دمت هناك انا هناك. وافتح النافذة المطلة على العكس. ما كان يطل على الخارج، فينا، يستدير ليطل على الداخل، هي الدائرة... هي الدائرة.

ويلحون عليَّ ليقتلوني: هل انت نادم على سفر؟ لم يذهب شيء عبثاً، لم يذهب. وقد حاولنا ان نضخ الوعد بما أوتينا من لغة وحجارة ودم؛ وما زلنا نحاول البقاء والسير. لن ينكسر الصوت ما دام شعبي حياً... حياً... حياً، وما دام للارض يوم هو هوية العمر. فلماذا يُساق فرد واحد الى سؤال: هل انت نادم على سفر؟ سُدى احاول ان أرد السؤال الى سياقه، فأهمس في آلة تسجيل صغيرة: اذا كان هذا يريحكم، فأنا نادم على سفر!

المكان، المكان، اريد اي مكان في مكان المكان لاعود الى ذاتي، لاضع الورق على خشب اصلب، لاكتب رسالة اطول، لاعلق لوحة على جدار لي، لارتب ملابسي، لاعطيك عنواني، لأربي نبتة منزلية، لأزرع حوضاً من النعناع، لانتظر المطر الأول. كل شيء، خارج المكان، عابر وسريع الزوال حتى لو كان جمهورية. ذلك... ذلك هو ما يجعلني عاجزاً عن الرحيل الحر...

ولكنك ستكتب اليّ، لاعادة تركيب ما تفكك في النفس والزمن، لرفع رافعة

Twitter: @ketab_n

التوازن لثنائية «الداخل والخارج» الخاصة والعامة، لاستعادة اولى الطرقات الصاعدة الى أفق بفيض عن الطرق. ستكتب اليّ. سأكتب اليك... لأعود. فما زال في وسع الكلمات ان تحمل صاحبها وان تعيد حاملها المحمول عليها الى داره. وما زال في وسع الذاكرة ان تشير الى تاريخ. ويجتاحني نداء راعف الى عودة، عودة ما الى اول الاشياء والى اول الاسماء، فكن انت عودتي!

اذن، اخرج من خزانة الثياب لنلعب لعبة اخرى مع فتيات أخريات، ولا تتلكأ طويلاً في الشوارع الخلفية، فأنت على موعد مع الشاطىء. حيفا حارة في الصيف ورطبة. ولا تنس ان تزور محطة الشرطة وانت في طريقك الى البحر. لا تنسَ أن تسأل الضابط عن موعد الاعتقال القادم. قدم له سيجارة واطلب منه سجناً انظف من سجن الشهر الفائت. ولا تنس المقال في «مقهى روما» كالمعتاد... وان جاءت «السيدة»، سلّم عليها وقل لها: سافر... وسيعود قريباً. ولا تسألها عن الجنين!...

قريباً؟ ست عشرة سنة! ست عشرة سنة كافية لتقبل بنيلوب وُدَّ خطابها وتلعن بحر ايجه. ست عشرة سنة كافية لان تتحول الحشرات الصغيرة على جراح ايوب الى طائرات نفاثة. ست عشرة سنة تكفي لأصرخ: بدي أعود. بدي أعود. كافية لأتلاشى في الأغنية حتى النصر او القبر...

ولكن، أين قبري يا صديقي؟ اين قبري يا اخي؟ اين قبري؟...

أخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٥/١٩)

Twitter: @ketab_n

الوطن ينتظر عودتك...

● أخـي محمود،

اذن، هكذا نكفُ قليلاً عن عبث الغربة ونخترع لأنفسنا لقاء ما. وها انت منذ رسالتك الجديدة (لماذا تسميها رسالة اولى؟) تقترح بذكائك الذي أعرفه قاعدة للعبة وكأنك لا تعرف اخاك في عناده (برج الثور) وشهوته الفادحة للعب بلا قواعد!

«نحن مطالبان بألا نشوه صورة نمطية أعدتها لنا المخيلة العامة..».

هكذا تقول في رسالتك، هديّتك الرائعة لي في يوم ميلادي المروع. لا بأس عليك يا اخي الحبيب فهناك من هم اقدر منا على تشويه «صورتنا النمطية هذه». اما نحن فما علينا الا ان نرمم «المخيلة العامة»، المخيلة الطيبة المدقعة الهالكة شوقاً الى موت أليف في زمن الضجيج والوحشة والنعيب. وماذا بشأن مخيّلتنا نحن. مخيلة جيل برمته، حاصروها منذ طفولتها الاولى بكأس امرىء القيس الذهبية وأبهة بني أمية، وسيجوها بمطالع المتنبي المدهشة وصهيل الخيل وصليل السيوف منذ داحس والغبراء مروراً بالقادسية حتى «حرب تشرين المجيدة»؟ ماذا عن ذاكرتنا المحرومة من غضب الصعاليك ونقاء الغفاري ولوعة ابن زريق البغدادي؟ لقد جرُّوا الى قلوبنا انابيب نفطهم ومائهم هم، وتركونا نتخبط بحثاً عن رأس النبع حيث ماؤنا نحن... فما الذي كان وما هو الكائن وما الذي سيكون بعد إذ صعقوا مخيّلة طفولتنا عام ١٩٤٨ وصعقوا مخيلة فتوتنا عام ١٩٥٦ وصعقوا مخيلة شبابنا عام ١٩٦٧ وقايضونا عين جالوت بكامب ديفيد، والحبل على الاعناق.

خانوا ذاكرتنا، بملوكهم ورؤسائهم وحكوماتهم ومؤسساتهم. خانوا ذاكرتنا شعباً وجيلاً وشعراء. وأباحوا لانفسهم انقصافنا مثل قصبة هشّة امام عاصفة الوكالة اليهودية والكومنولث وجامعة انتوني ايدن العربية (؟!).

لا بأس عليك، لا بأس عليَّ. علينا ان نرمم الذاكرة.

مُدَّ اليَّ يدك النحيلة عبر المتوسط. لا تكترث بحاملات الطائرات والطرّادات الصاروخية فهي منهمكة بلحم طفلة عربية من ليبيا آمنت بأن رأس الدوتشي

Twitter: @ketab_n

موسوليني لا تصلح قمراً للصحراء.

مُدَّ اليَّ يدك في غفلة من انبياء الكذب وشهود الزور. وتعال نأخذ نصيبنا من دهشة العيد الاول للقصيدة البكر يوم كانت زيارتك الاولى للرامة. كان ذلك بالامس القريب، منذ ربع قرن فحسب. هل تذكر كيف استولينا على مضافة ابي العليا وحوّلناها بلا استئذان الى منتدى ثقافي لثلةٍ من الشبان المدججين بدواوين علي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل وابي القاسم الشابي وكتابات جبران النبوية؟ هل تذكر ذلك الشاب الذي حاصرنا وأمطرنا بوابل من قصائده حتى ضقنا ذرعاً فتهامسنا: «اللهم اجعل هذه الليلة خيراً.. فهذا الفتى قد تأبط شعراً (!) ما كان النوم مُتاحاً الا في ساعة متأخرة من الليل او في أختها المبكرة من النهار... وآنذاك شددت اللحاف الى ما تحت أنفك مودعاً: (بخاطرك)!

«بخاطرك»! لماذا أتوقف عند هذه الكلمة؟ آه. صحيح، لانك لم تقلها لي حين أرهقتك ليلة ما في موسكو فشددت مصر الى ما تحت أنفك. لقد أحزنني رحيلك اكثر مما اغضبني. كان في رحيلك قسط من الانانية بقدر ما كان قسط مماثل من الانانية في سخطي عليك. والغريب في الامر ان كتيبة بأكملها من الكتاب والصحفيين والشعراء والقراء رأت في (حادث الطرق) هذا منطلقاً تاريخياً لتجديد امجاد القيسية واليمنية حتى انهم اقسموا بلا رفة هدب ان قصيدة (اليك هناك حيث تموت) موجهة اليك رغم انها نشرت قبل رحيلك بعامين. هكذا كان. بيد ان قصيدتنا المشتركة في الرامة ودير الاسد وحيفا وحبنا المشترك وسجننا المشترك ونضالنا المشترك وجريدتنا المشتركة وذاكرتنا المشتركة، هذا العالم الزاخر بالفرح الدامي، الجيّاش بغيطة التحدي وكبرياء الالم، كان رأس النبع الذي اكتشفناه وها نحن نعود اليه.

قلتُ (الرامة) وقلتُ (دير الاسد). وتحضر على الفور تلك البداية السحيقة اللصيقة (لعملنا المشترك). في اعقاب زيارتك لي في الرامة اهديتني قصيدة. كان عنوانها (عروس جبل حيدر). وكان مطلعها:

في حضن حيدر ترقُد ... حيثُ الجمال مفردُ

وبالطبع كان علي ان أرد على النار بالمثل. وهكذا أهديتك قصيدة معارضة. كان عنوانها (بلبل دير الاسد). وكان مطلعها:

قلبي يثور ويزبدُ ... وعلى الحنين يعربدُ

مهلاً. انتظر. راجع المطلعين معي. ألا تلاحظ شيئاً، بل تلاحظ بالتأكيد من خلال هذين البيتين اننا منذ بداياتنا كنا مكرسين للتماثل والتناقض في آن. التماثل في الوجدان والتناقض في شكل التعبير عن هذا الوجدان.

Twitter: @ketab_n

تأمل مفرداتك: حضن، ترقد. مغرد.
وتأمل مفرداتي: يثور، يزبد، يعربد.

ياه. أتعلم يا محمود؟ قد يعثر النقاد في هذين المطلعين على المفتاح الحقيقي لمداخل تجربتينا ـ تجربتنا. من جهتي، يبدو لي الآن ان مناخك الشعري كان صافياً منذ البداية، وان مناخي الشعري كان غائماً منذ البداية.

قد يكون الامر كذلك وقد لا يكون. الا انني مُقدم على البوح لك هنا بسر رافق خطواتنا الاولى. قبل ثلاثين عاماً كنت طالباً في مدرسة الناصرة الثانوية. والى جانب ممارسات سرية شتى كنت أمارس كتابة القصائد البذيئة الصاخبة هجاء لمعلم او تجريحاً لزميل او غزلاً في طالبة. وكان الطلاب يتناولون هاتيك القصائد مع ساندوتشات العطلة الصباحية، متلمظين بعدها بها طاب لهم مدحاً او قدحاً. في تلك المرحلة اكتشفت بايرون وشيللي عبر المنهاج الدراسي. وخيل اليّ آنذاك ان بايرون اقرب الى قلبي من صديقه وزميله. وذات درس من دروس الادب الانجليزي علمنا المعلم ان والد بايرون كان ضابطاً متقاعداً من الجيش برتبة كابتن. فجأة انفجر طالب يدعى سعيد الصح ضاحكاً. دهشنا لجرأة زميلنا علماً بأن استاذ الانجليزية كان رجلاً صارماً عصبياً حاد المزاج، وتفادياً لعاصفة الغضب سارع اخونا سعيد لتبرير موقفه: (يا استاذ، والد سميح القاسم هو الآخر ضابط متقاعد من الجيش برتبة كابتن). ضحك الطلاب وغفر المعلم. اما انا فلم اضحك ولم اكتشف ضرورة للغفران بل تعاملت مع هذه المسألة ليس باعتبارها لفت انتباه الى مصادفة طريفة او لسعة من زميل يشكك في مستقبلي الشعري، بل باعتبارها نوعاً من التقمص التاريخي الناجز وفق ارادة إلهية...

وحين تعارفنا فيما بعد يا عزيزي محمود، همست لذاتي وفي ذاتي: (آها.. لا بد ان هذا الشاعر هو زميلي وصديقي بيرسي بيش شيللي!!) والآن، في هذا الوقت بالذات، وبعد ظاهرة الثنائية التي أشرت اليها في رسالتك، سأكون محوماً اذا انا زعمت الفكاك من (ثنائية) شيللي وبايرون.

يا عزيزي بيرسي بيش درويش.

من حقك ان (تلعب خارج ساحة الدار) ومن حقك ان تعود، ومن حقي ان العب في ساحة الدار ومن حقي انا الآخر ان اعود. ومن حقنا جميعاً ان نختار قبورنا. لكن تعال نراقب كلمة «الحق» هذه. ماذا عنت في الماضي؟ ما هو معناها اليوم؟ وهل تختزن هذه اللفظة الرشيقة والمهيبة في آن، مضموناً مجرداً فرداً شاملاً وخالداً؟ لا ارى ذلك، والا لكان عليّ ان اعلق نفسي على اقرب شجرة. ولنتأمل معاً الفاظاً

Twitter: @ketab_n

ومصطلحات رائجة اخرى: السلام... العدالة الاجتماعية... الأمن... الوحدة الوطنية... حق تقرير المصير وهلمجرا. وعليه قِس! ستجد من يفسر حق تقرير المصير على انه الحق في اختيار هذا النظام او ذاك وتكريسه لابادتنا السياسية والتاريخية، حتى الجسدية. وحين تسأل امرأة ما لماذا تزني فقد تجيبك على الفور: انا حرة! واذا سألت سمساراً لماذا تخون وطنك فسيرد على الفور: انا حرّ! واكثر من ذلك. فستجد من يجابهك بصفاقة مرعبة: هـه، تتحدث عن الحرية وتدعو للحق وها انت تنتقص من حريتي وتصادر عليَّ حقي!

كلمات يا عزيزي. كلمات. كلمات. كلمات وألف رحمة على هملت وعلى شكسبير وعلى آله وصحبه أجمعين!

اخيراً لا تسألني اين قبرك. ما دام المهد قضية معلقة فسيظل القبر سؤالاً محرجاً يتيم الاجابة.

الامر المؤكد الوحيد هو ان حواجز الشرطة المحيطة بمطار اللد لن تقوى على احتجاز قلب الوطن الذي ينتظر عودتك ساعة بساعة ودهراً بدهر...

أخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٦/٥/٢٢)

Twitter: @ketab_n

هناك... شجرة خروب

● عزيزي سميح،

... وعلى ذكر «الحق» الذي يمدُّ لسان السخرية في رسالتك، والحق بالحق يُذْكر او يُنْكر، فضحتني دمعتي منذ ايام، عندما كنت اسجل حديثاً تلفزيونياً في مدينة هلسنكي...

إنقض عليّ احد المحاورين، وهو كاتب فنلندي شهير، بهذا السؤال المدهش: هل تعرف كيبوتس «يسعور»؟

أجبت: نعم، اعرف مكانه لاني اعرف انقاضي. ولكن، لماذا تحرك فيّ هذا العطش؟

قال: انا من هناك. أعني: عشت هناك عشر سنين. ومن حقي أن اعود الى هناك في أي وقت أشاء...

قلت: في أي وقت تشاء، لماذا؟

قال: لأنني يهودي...

قلت له، وقد تحول الى مرآة: يا سيد دانيال كاتس، يبدو لي انك تعرف انني وُلدت هناك، تحت غرفة نومك، وتعرف ان لا «حق» لي في العودة الى مكان ولادتي، بينما انت الفنلندي، صاحب العشرين الف بحيرة، تملك «الحق» في العودة الى بلادي في أي وقت تشاء...

قال: اعرف هذا الظلم. ولذلك، أعددتُ لك هذه الهدية، هذه الاغنية القصيرة: «انظر الى البلاد التي تسميها وطنك ـ قال لي توفيق او محمود / عيناك تحدقان في التراب ولا تصلان الى ما تخبىء الارض / القرية التي وُلدت فيها عارية وباكية / متحررة من خاصرة أمي / وانت... ها انت ترفع باعتزاز / كوخاً من الصنوبر»...

وروى لي دانيال، يا عزيزي سميح، مسيرته في طريق العودة ـ فهم دائماً عائدون ـ كما يرويها من يملكون الحق، اينما كان، والضمير عندما يشاؤون. اذ ليس على التاريخ الا ان يتمرن على حساب مصالحهم وعواطفهم وينضبط! كان مثل جميع المهاجرين لا يعلم. لا احد منهم يعلم ـ على ما يبدو ـ ان في بلادنا شعباً. وحين

Twitter: @ketab_n

يواجهون عقبات الاندماج في الارض او في المؤسسة فانهم سرعان ما يعلمون، ويستخرجون احتياطيّ الضمير ليختاروا «عودة» اخرى الى «حق» آخر.

من علمك يا دانيال ان تحت كيبوتسك قريتي؟

قال: شجرة الخروب الضخمة... سألت احد زملائي في الكيبوتس عمن غرس هذه الشجرة، فقال: نحن المهاجرين. ولكنني ادركت من عمر الشجرة انه يكذب، ادركت ان احد اجدادك هو الذي غرسها، فحملت ضميري المعذب وعدت الى وطني فنلندا.

لم أقل له، يا عزيزي سميح، انه محظوظ بامتلاكه حقين، ووطنين، وعودتين. قلت له انه عادل، لانه يمتلك ميزة انسانية اكبر هي: الضمير، يحركه، يستعمله ويشهره متى يشاء في وجه أية مشكلة. في وسعه ان يتوج قاضياً ما دام يتمتع بهذه القوى الانسانية. له حق الكلام والمصداقية. أليس هو الشاهد الذي لا يُدحض؟ ونحن الذين نحتاج اليه لنتكلم عبره عما يصيبنا. فهل يحق للعربي ان يتحدث في الغرب بلا شاهد يهودي؟ لاحظ، على سبيل المثال، كيف يناقش الاسرائيليون قضايا الاحتلال ونتائجها السكانية. انهم يبكون كما لو كانوا هم الضحية، ونحن الضحايا نصفق لمتانة الدليل!

ولكنني اعلق بطريقة أخرى تشبه معاني الكلمات التالية: وهكذا تدلنا شهادة دانيال على ان السلام في الشرق الاوسط ما زال قابلاً للتحقيق، ما دام دانيال يصافحني، ويرضى ان يكون صديقي، ويكتب لي هذه الاغنية!

وبالاغنية ذاتها التي تخدع ذاتها لتكون ذاتها، يقف الواقع على رأسه، ويعتذر عن وعي شقي ووعي زائف معاً. ماذا يريد الشعر من المستوطنين اكثر من الاشارة الى طفولتنا التي تنسب جمالياتها الى المكان ذاته؟ ليكونوا هم المعبرين نيابة عنا. هل يعبر عني حاييم نحمان بياليك حين يغني للطائر العائد من بلاد الشمس الى نافذته المطلة على الجليد الروسي؟ وهل يعبر عنك حاييم غوري في وصف الجليل العائد الى اهله الغائبين؟ وهل تعبر عن هشاشة قلوبنا تلك الاغنية الرائجة: يا بحيرة طبريا، يا بحيرة طبريا، لقد هبت الريح؟ وهل نستعيد جمال القدس، كما استعادوه، في أغنيتهم التي حطمتنا: يا اورشليم من ذهب، ومن نحاس وضياء؟

ليس هذا سؤالاً، يا سميح، بمقدار ما هو نزيف. وهل انتبهنا الى شراسة استيطان الارض ومحاولة استيطان الذاكرة، وظل استيطان لغة الحنين والعودة والتيه مجالاً لعواطف مشتركة ممكنة؟ طالما ان سكان «يسعور» يستمتعون بذهب الذرة الصفراء ذاته، وبالتفاح ذاته، وبالدوالي ذاتها، ويرفعون اكواخاً من الصنوبر كما كنا نرفع ويغنون ـ كما كنا نغني ـ هبَّ النسيم على الحقول؟

Twitter: @ketab_n

لا تصدقني، فأنا لا أسأل، بقدر ما أشير الى «حياد» الطبيعة الجارح.

ولكن شجرة الخروب اياها التي دلت المستوطن الاجنبي «البريء» عليَّ وعلى اجدادي، هي هي غلاف هويتي، وهي ايضاً جلد روحي اذا كان للروح جلد. هناك ولدت.. هناك ولدت. وهناك أريد ان أدفن. ولتكن تلك وصيتي الوحيدة!.

شجرة الخروب ـ أغبطك لانك تراها كل يوم في طريقك من الرامة الى حيفا، ومن حيفا الى الرامة. سلم عليها اذا كانوا لم يجدعوها بعد. شجرة الخروب ـ اختبأت في جذعها العملاق المجوف من المطر ومن الاهل عندما كنت العب مع السحالي والزيز والزواحف، وعندما كنت أتبع خط الاسفلت الساطع الى عكا، لأشرب الماء بالطاسات.

ويا سميح، يا سفير قلبي الى الشجر كله، لماذا اشعر بكل هذا العطش، والعطش الذي لا يرويه غير امتصاص قطرة من الماء على جناح قبرة عندكم؟. ولماذا يتجمد الزمن عند السنين الاولى... لينفتح السهل امامي في امتداد لا ينهيه حتى البحر، وأرى جنود نابليون في حقولي عاجزين عن اقتحام القلعة على السور، الذي حولته شركات السياحة الاسرائيلية الى سوق تجاريه وملاهٍ لليل طويل؟

... وينفتح الشرق امامي لغابات الزيتون التي تصعد، وتصعد بلا تعب وبلا ملل الى تعرجات جبال كثيرة، متناثرة، لتصل قريتي بفريتك العالية، عبر عشرات من القرى المتناثرة، كالمجاز السهل، في نشيد شديد الصعوبة؛ يدخلنا في متنه شهداء او شهداء، وهكذا تتحول شجرة الخروب الى مرتكز جهات، والى علامة الفارق بين الارض والسماء. ومن على غصونها أقطف، حتى الآن، حبات الهواء الطازجة.

لم يكن للشهور اسماء لا تذكر متى انقصف حبق الطفولة. ولكن الليل لم يكن بارداً كما هو الآن. ولم نكن للقمر أغان عبرية معاصرة. ولكنني اتذكر ساحة الدار التي تتوسطها شجرة التوت التي تشدُّ البيوت لتحوطها الى دار هي دار جدي. تركنا كل شيء على حاله: الحصان، والخروف، والثور، والابواب المفتوحة، والعشاء الساخن، وآذان العشاء، وجهاز الراديو الوحيد لعله ظل مفتوحاً ليذيع اخبار انتصاراتنا الى الآن. هبطنا الوادي الحاد المؤدي الى الجنوب الشرقي المفتوح على بئر يشرق من سهل يقودنا الى قرية «شعب» حيث يقيم اقارب امي واهلها القادمون من قرية «الدامون» التي سقطت تحت الاحتلال... وهناك ـ بعد ايام قليلة ـ تنادى فلاحو القرى المجاورة، الذين باعوا ذهب زوجاتهم، ليشتروا بنادق فرنسية الصنع لتحرير «البروة»...

Twitter: @ketab_n

حرروها في اول الليل. شربوا شاي المحتلين الساخن. وباتوا ليلة النصر الاولى، وفي اليوم التالي تسلمها «جيش الانقاذ» بلا ايصال، ليعيد اليهود احتلالها وتدميرها حتى آخر حجر... ونحن ننتظر العودة على مشارف الوطن.

تعرف السيرة كلها، يا سميح، لقد طالت «نزهة» المهاجرين واختُصرت الحرب. وتعرف كيف «تسلّلنا» من لبنان حين أدرك جدي ان الرحلة ستطول، وان عليه ان يلحق بالارض قبل ان تطير. وحين وصلنا لم نجد غير الخراب. فقدنا حق الاقامة وفقدنا حق الارض. وحين مارستُ طقس الحج الاول الى قريتي الاولى «البروة» لم اجد منها غير شجرة الخروب والكنيسة المهجورة، وراعي ابقار لا يتكلم العربية الواضحة ولا العبرية الجارحة: من انت يا سيد؟. فأجاب: انا من كيبوتس «يسعور». قلت: اين كيبوتس «يسعور»؟ قال: هنا. قلت: هنا البروة. قال: اين هي؟ قلت: هنا. تحتنا. حولنا. فوقنا. هنا في كل مكان. قال: ولكنني لا أرى شيئاً، ولا حتى حجارة. قلت: وهذه الكنيسة... ألا تراها؟. قال: هذه ليست كنيسة. هذا اصطبل للابقار. هذه بعض آثار رومانية؟. قلت: ومن اين أتيت يا سيد؟ قال: من اليمن. قلت: وماذا تفعل هنا؟. قال: عائد الى بلادي. ثم سألني: ومن أين انت؟ قلت: من هنا.. عائد الى بلادي..

هكذا، يا عزيزي سميح، يجري الحوار منذ اربعين عاماً تقريباً. لاحظ المعاني العكسية، الانقلابية، الاستبدادية، للكلمات! ونحن في احسن الاحوال حُرّاس آثار رومانية. لذلك، كان علينا ان نعيش في «دير الاسد» قريباً منكم، لاجئين في وطن محفوظ، بقرار الهي، منذ ألفي سنة لعودة راعي ابقار من اليمن!

فكيف نعيد تركيب هذا التفكيك، في البداية، بغير الشعر؟ كنا ـ انت وانا ـ نتسلح بالمعلقات، وبخلاصات المتنبي، ورهافة الاندلسيين، ورخاوة المهجرين. وكنا نخدع انفسنا، في شبق البحث عن اختلاف، بتقمُّص صعاليك وخوارج وبكل ما يبدو لنا انه خروج عن المؤسسة. لم يكن اختلافنا كله مع تاريخنا. لان هذا الاستيطان الصليبي يعارض كل تاريخنا. لذلك، لم نجد النموذج الجاهز في مرحلة وعي اكثر تطوراً وتشكلاً. كان علينا ان نبحث عن اصفارنا، وكان علينا ان نخطىء. اذ ليس لمصيرنا، ومفارقتنا الانسانية، ومأساتنا من اطار مرجعي. وليس لنا من مُعبّر. وليس لنا ان نستعير دموع عاشق اندلسي يبكي الخروج. ليس وطننا اندلسياً الا في الجمال والاندلس ليس لنا.

واذا كان لا بد من اندلس، بتداعياتها الجمالية، فان فلسطين هي الاندلس القابلة للاستعادة.

Twitter: @ketab_n

سلام عليك، يا عزيزي، يا حارس الخروبة من أغاني الآخرين. ارجوك... ارجوك ان مررت بها غداً، ان تعانقها وان تحفر على جذعها اسمك واسمي... ولا تتأخر!

أخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٦/٣)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سأحفر اسمينا على الريح

● اخي محمود،

في الايام الاخيرة ارتفعت درجة الحرارة هنا بفظاظة، وانخفض منسوب المياه في بحيرة طبرية بشكل لم يسبق له مثيل، الامر الذي يثير لدى الدوائر الرسمية قلقاً شديداً ويستدعي اعلان حالة الطوارىء المائية. وزارة زراعتهم تتخذ اجراءات مشدّدة لتقليص مخصصات الري ويسود التحسب اوساطهم الاقتصادية والصحية وربما العسكرية ايضاً.

في البدء لم أقلق، وليس هذا فحسب، بل فرحتُ قليلاً ورحت اتخيّل مدى سعادتي لو ان بحيرة طبرية جفّت الى قعرها... ولا تسقط الثلوج على جبل الشيخ في العام القادم وتغور منابع نهر الاردن فتظهر طحالب مائية خضراء مخملية ثم يتأكلها الصدأ ورويداً رويداً تتحجر وتجف ادغال القصب وتذبل الاشجار وترحل الحيوانات والعصافير وترتفع الحرارة ويميل الاخضر الى الاصفر والاصفر الى البني والبني الى الرمادي وتعلن بلادنا منطقة تصحُّر محتّم. وترتفع الحرارة لأجدني من جديد بدوياً سعيداً في صحرائه السعيدة.

لم اقلق في البدء، بيد ان القلق أخذ يقضم اعصابي مثل فأر نهم. فقد خيّل اليّ في ما بعد ان حل أزمة المياه قد يتم على الطريقة الاسرائيلية التقليدية: يذهبون الى الامم المتحدة مطالبين بأرض اسرائيل الكبرى وفق نصوص التوراة ليضمنوا مياه النيل والفرات، ولا ريب في انهم سيجدون هناك آذاناً صاغية وقلوباً ليّنة، لا سيما ان الشعب النمساوي جرؤ على انتخاب كورت فالدهايم رئيساً لجمهوريته! ولن يحرموا هذه المرة دولاً عربية تصوّت من أجلهم!

لا يا محمود، لا يا صديقي، ينبغي الا تجف بحيرة طبرية ولا يحق لنهر الاردن ان ينكمش ولا يجوز لجبل الشيخ الا ان يعتمر ثلوجه عمامة للحزن ومصدراً مؤكداً لمياه صهيون!

ها انت تعود في رسالتك الى الانكسارات الاولى، الى الطفولة التي لم تنهض من

Twitter: @ketab_n

ركلة حذاء العسكري الانجليزي جورج حتى فاجأتها ركلة حذاء العسكري الصهيوني شلومو. ها انت تعود الى الانقطاع القسري عن لعبة السحالي في البروة. وماذا اقول لك؟ ماذا اقول عن الايام الثلاثة بلياليها التي قضيناها مُرتدين ثيابنا منتعلين احذيتنا في انتظار المصفحات اليهودية القادمة من انقاض البروة عبر طلعة الليّات على طريق صفد. ماذا اقول لك عن الخوف غير المفهوم (الاطفال يخافون فحسب!) والاستعداد الكامل للهرب مرة اخرى، لا الى كروم الزيتون وكهوف جبل حيدر القريبة بل الى المنافي العربية. انني خجل من مكوثي، خجل من رحيلك. وكم تلوعني ذكرى الايام التي نسميها النكبة. كم تلوعني خيبتي يوم هرعت الى الشارع خلف ابي الذي اخذ بندقيته وذهب للدفاع عن الليات بعد ورود النبأ عن سقوط البروة واقتراب الفاتحين الجدد. كان ابي معتمراً كوفية بيضاء وعقالاً مقصباً من مخلفات خدمته العسكرية في قوة حدود شرق الاردن. ركضت وراءه بالخوذة الحديدية التي احتفظ بها بعد تسريحه من الجيش لايام الشدة القادمة. وما زلت اذكر كدرة وجهه وهو ينتهرني: «عُد يا ولدي الى البيت وابق الى جانب امك واخوتك». ألححت عليه: ولكن الخوذة.. خذها يا ابي (لم اكن خائفاً عليه بقدر ما كنت معتزاً به... وفي هاتيك اللحظات كان يطفو على سطح مخيّلتي الصغيرة نشيدنا الذي طالما رددناه في الساحات وعلى جذوع الاشجار: يا يهودي يا ابن الكلب... شو جابك عبلاد الحرب!).

لم يأخذ ابي الخوذة ولم تستطع بندقيته ذات الطلقات القليلة حماية شبر واحد من الارض... والذين جاءوا لحماية الارض كلها (ولانقاذها) هربوا شمالاً وشرقاً كالنعاج وهم يتخففون من رتبهم العسكرية وأسلحتهم وشرفهم... اولاد الكلب!!!

بعد وفاة ابي بسنة كاملة جرؤت على الاقتراب من أوراقه. وبين تلك الاوراق عثرت على رسالة من المقدم عامر قائد جيش الانقاذ في الرامة والمنطقة يوصي فيها بتجنيد ابي وباعطائه رتبته الرسمية، رتبة الرئيس، من اجل رفع معنويات المقاتلين... والذي حدث يا اخي في اليتم والكارثة ان المقدم عامر رحل على الفور برتبه وجنوده ولم يبق في الوادي سوى حجارته والمدنيين المصعوقين وبنادقهم التعيسة ذات الطلقات المُقننة.

وتجد اليوم من يتهمون شعبنا بأنه تخلى عن وطنه وهرب طوعاً. أية فرية يطلقها هؤلاء الخنازير! لقد صمد شعبنا وقاتل بكل شجاعة وصدق وحمية الا ان ما نسميه اليوم بتوازن القوى لم يكن لصالحنا على الاطلاق. فقد كان شعبنا ضحية جاهزة بين مطرقة الغزو الهمجي وسندان الوصاية الخائنة.

اخي محمود، ايها الشاعر التعس، ما الذي اقحمك مرة اخرى في لعبة الضمير

Twitter: @ketab_n

السادية هذه؟ من الذي أهال على جسدك المرهق خروبة البروة واشجار فلسطين كلهـا؟ اهو المستوطن الفنلندي المصاب بالملل؟ ام انها الاغنية الجارحة عن بقايا الوطن الجارح؟

انا يا اخي الحبيب ما عدت قادراً على حمل زهرة البرقوق البرية، فلماذا تحملني خروبة البروة؟ زهرة البرقوق التي قطفناها قبل ان يقطفوا طفولتنا اصبحت اليوم الرمز الرسمي لمدينة كرمئيل، هل تذكرها؟ نحن اصبحنا متطفلين على زهرة البرقوق يا محمود!

وتضغط في رسالتك، تضغط عليّ بشجرة الخروب وبدموعك المنهمرة مع اغنية شقية في فنلندا البعيدة الباردة. حسناً، سأقدم لك الحقيقة غانية، لا حليّ ولا اصباغ: لصداقتنا الجميلة همومها الخاصة، وآلامها العائدة دائماً وبلا انقطاع، جراء ارتكابنا الخطيئة المميتة، خطيئة الاندغام الكامل والابدي بين الانسان ـ الفرد ـ الشخص وبين الوطن ـ الشعب ـ القضية. وانني لاتساءل احياناً: نحن نقول شعرنا ام انه الوطن؟ نحن نكتب القصيدة ام انها هي التي ترنمنا؟ اين ينتهي الخاص واين يبدأ العام؟ هل لدينا ما يجوز اعتباره امراً شخصيًا؟ ويخيل اليّ احياناً اننا ما احببنا امرأة لذاتها ولا احبتنا امرأة لذاتنا... او اننا نأكل ونمشي ونحب ونسافر ونغضب ونفرح في غيبوبة تامة اسمها الوطن.

لماذا اقول لك ذلك كله؟ لانك توصيني بشجرة الخروب. حسناً. دعني اصارحك بأنني منذ فراقنا، وربما منذ تعارفنا، وانا اتهرب من انقاض البروة، زيتونها، خروبها، صبّارها... وحين أمرُّ بها احاول اشغال نفسي بأمر ما حتى اتجنب النظر اليها. ولو ضبطت نفسي متلبساً بالنظر صوبها فان عقرباً صفراء هائلة تلسعني في القلب مباشرة وبلا رحمة وتنغص عليّ رحلتي.. لا تغبطني على اقامتي... جحيم هنا، وجحيم هناك... جحيم الى يوم الجنة، يوم يلوح اطفال فلسطين بأعلام فلسطين في مراسم استقبال ضيف رسمي او في طقوس العيد المقدس الكبير، عيد العودة والحرية والاستقلال.

أخـــي العزيز،

ارجو ان تعذرني. لن أزور شجرة طفولتك في البروة ولن أحفر عليها اسمينا... ببساطة وبصراحة تامة: لا استطيع.. شيء آخر استطيعه من اجلي ومن اجلك، هو أن أحفر اسمينا على الريح... وأن انقش الريح على الوطن وأن اكتب الوطن على لحمي وأن انثر لحمي في القصيدة.

اخيراً، نوال والاولاد يسلمـون عليك... اصبحـوا يعرفونك جيداً عبر الصور والقصائد والتلفون. قبل حين سألني «وطن محمد»: لماذا لا يأتي عمي محمود لزيارتنا

Twitter: @ketab_n

كما تزوره انت؟ قلت: انه مشغول كثيراً، الا انه سيأتي ذات يوم، حين يفرغ من اشغاله.

هل اخبرتك انني اقلعت نهائياً عن الكحول! حسناً لقد ضمنت لنفسي مكاناً في تصفيات دوري الجنة. وضمنت لمعدتي عطلة من الآلام المبرحة. وانت؟ حاول ان تهدأ قليلاً. مثلنا الشعبي يقول «الكبير حكيم نفسه». ولن تُجدينا المناورات يا صديقي. لقد كبرنا.

اخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٦/٦/١٠)

Twitter: @ketab_n

لا توبخ حنيني

● عزيزي سميح،

لماذا توبخ حنيني؟ الأنك تخشى ان اطيعه، فأرتكب حماقة تودعني السجن هناك، او تعلقني على حبال الفضيحة هنا؟ ام لانك تخاف على قلبي اياد الذي ساهمت انت، في فيينا، في انتشاله من قاع الغم الذي امتصنا كلنا جراء الحصار المتتابع، خطوة خطوة، منذ قرأنا مأساة طروادة حتى الآن، دون ان يحتاج المحاصرون الجدد الى اي حصان او حمار!

هكذا أريد ان افهمك. واريد ان اغبطك. جحيم هنا... جحيم هناك. ولكني اغبطك، اذ ليس في وسعي ان اجد جداراً أسند عليه ندائي، او ناي عظامي، غير ذلك المكان المنحوت من هواء صلب، المرفوع على الاذان الاول، بعدما عجزت الفكرة والمرآة فينا عن صد الحاح الخريف.

ليس للخارج ان يخرج اكثر،

وليس للداخل ان يدخل اكثر،

أمن هنا نُطلُّ على الحضور والغياب؟...

لقد كبرنا دون ان ننتبه. لم يُسمح لنا بأن نكبر على مهل. غافلنا العمر فوجدنا انفسنا وقد كبرنا. وانتفخ بطن الاحتلال وتمدد مرتاحاً على العمق الحيوي. ونحن نربي كلمات تتمخض عن كلمات نرفعها قلاعاً في مواجهة حصون الاسمنت المرتفعة في شراييننا. فماذا كان في وسعنا ان نفعل، يا عزيزي، لو بدأنا من جديد، غير ما فعلنا؟

كنت اواسي النفس، احياناً، بقراءة علم الفلك الذي يؤكد ان حجم الكرة الارضية كلها لا يزيد عن حجم حبة رمل على ساحل لا نهاية له. فأين داري واين دارك من هذه الحبة الشاردة؟ هكذا يستطيع المرء المثقل بالفقدان والغياب ان ينام قليلاً، وان يسخر من مأساوية العبث ومن عبث المأساة. وهكذا يستطيع ان يردع القلب المهان المتحفز للانقضاض على الواقع ليعضه من الغيظ... نعم ليعضه!

ولكننا لسنا شهوداً على ما مضى، ولا نستطيع مشاهدة المسرحية دون ان

Twitter: @ketab_n

نتقمص ابطالها المتعبين، فنحن الضحايا والخشبة. ولم نحظ، حتى الآن، بنعمة ان نكون الجمهور، ولا حتى في مباريات كرة القدم التي نفتقد فيها حاسة الانحياز الى احد، لاننا نفتقد فيها دورنا. فلمن نصفق في هذه الحرب المؤولة؟ ولأي نشيد وطني في ملاعب المكسيك ننكس القلوب المتلهفة الى ملكية حماسة؟ او الى سخرية حرة؟

لقد وجد اميل حبيبي حله الامثل بانحيازه الى الفرق الاشتراكية. تحمس وخاف الخيبة وخاب فتوقف عن المراهنة. وحين ذكره احد الاصدقاء بان فلسطين كانت تلعب كرة القدم في عهد الانتداب البريطاني، مال عليَّ ووشوشني سخريته التي توردُه التهلكة دائماً: لا اعرف، تماماً، ان كان ذلك الفريق عربياً! لقد مات مؤرخنا اميل توما الذي كان الوحيد القادر على التأكد...

هل مات اميل توما حقاً؟ ذلك الفارس الشاهق صاحب «العصا الماريشالية» التي كسرتها «حرب التقسيم» وأحنت قامته قليلاً؟ هل مات؟ أتذكره منكباً على عمل لا مبرر لافراطه فيه غير الرغبة في تحقير الحاضر الطارىء بالوقوف على الضفاف الواسعة لنهر التاريخ الذي عرف وجرف مثل هذه النكات الفجة. ولذلك انتقل من اليومي الى التاريخي، ومن التفاصيل الى النظرية. وعجز عن اتقان اللغة العبرية التي اضطر الى استخدامها في المطبخ وفي غرفة النوم فقط!... اميل توما ايضاً يموت. اذن، من لا يموت! عملت معه عشر سنين في جريدة «الاتحاد». ومنذ البداية قال لي: هل انت متأكد من انك ستمضي على هذه الطريق؟ قلت ـ وانا في العشرين: معك، ومع اميل حبيبي وتوفيق طوبي سأمضي في هذا الطريق الى النهاية...

اردعني الآن، يا عزيزي سميح، لانني اجهش بهذه الذكرى. لقد ظننت انني لن ابكي عليه، فلماذا أرى موته الآن؟ أإلى هذا الحد صرنا لا نرى الحقيقة الا اذا قرأناها او كتبناها؟ أإلى هذا الحد لم نعد هواة؟ سألت اميل حبيبي الذي زارني منذ ايام، ان يحدثني عن ايام اميل توما الاخيرة، فأبى ان يُريني كيف ذاب جسده، وواصلت روحه سموها المعتاد. وقال: لقد فقدت مرجعي.. لقد فقدت مرجعي.. قلت: عندي سر. قال: لا تقله. قلت: سأقول لك ان اميل توما قال لي ونحن نصعد من وادي النسناس الى شارع عباس: ماذا تفعل هنا ايها الشاب؟ فسألته ماذا يعني، فرد بصوت خفيض: ابحث لنفسك عن أفق...

وفي موسكو، حيث كان اميل توما يراجع اطروحته عن الوحدة العربية ويبحث عن أفق، وحيث كنت أدرس «رأس المال» صفحة صفحة بافتتان، كنت اول من ابلغ اميل توما بوفاة جمال عبدالناصر، فقال: ليس هذا معقولاً.. سيأتي السادات. وقضينا اكثر من مساء طويل في المعهد نستمع الى «التريو» لتشايكوفسكي يلعبه الثلاثة

Twitter: @ketab_n

الكبار: راستروبوفتش على التشيلو، اويستراخ على الكمان وريختر على البيانو.

ما العلاقة، يا عزيزي سميح، بين هؤلاء الثلاثة وبين الثلاثة «الترويكا» الذين قادوا وعينا ونشاطنا السياسي الاول: اميل توما، توفيق طوبي، واميل حبيبي؟ رأيت الساحر الابويّ توفيق طوبي، قبل شهرين، في مطار اثينا. سحبني من احضانه النداء الاخير للطائرة المتجهة الى استانبول، وكان هو متوجهاً الى بلاده، فخجلت ان اقول له: سلم على قلبي هناك! كم احب هذا الرجل الذي حمل لي الشوكولاه مع اولغا، وانا مريض في بيت اميل توما المسافر. وحين ذهبت في اليوم التالي الى مكتب الجريدة لأراه واشكره، وبخني بقسوة: عد الى السرير!

من يملأ فراغ الذين يغيبون؟ اولئك آبائي فجئني بمثلهم / اذا جمعتنا، يا سميح، المجامع! لا تغضب فلست جريراً، ولست الفرزدق، ولكنني اشاركك الزهو بهذه الأبوة.

من يملأ هذا الفراغ؟ سألت اميل حبيبي المكابر الذي يخشى الاعتراف بان مجال عمل الادب هو التعامل مع الضعف البشري، فتأفف من سؤالي كي يتعفّف، واختار كعادته مجاله الحيوي: هناك خطأ جرى في زمان ما وفي مكان ما. قلت: ماذا دهاك؟ قال: الانسان مسكين وانا حزين... رأيت اليوم رجلاً ـ او امرأة لا اعرف ـ يحمل جيتاراً ويحث الخطى بحثاً عن الرزق، بينما الناس كلها تذهب الى «الويك اند». قلت: هل تعني ان ما يحزنك هو ان ترى انساناً يمشي عكس الاجازة؟ قال: نعم... هناك خطأ ما.

هناك أخطاء كثيرة، يا اميل حبيبي، اشدُّها هولاً هو ما لا نقوله. وهناك اخطاء كثيرة منها: انك لا تهتم بصحتك فتلتهم الطعام الدسم والحلوى باعتبارهما الفرح الوحيد الممكن في هذه الحياة المرة. وهناك اخطاء كثيرة ابسطها انك تدعوني الى زيارة بلادي، وعائلتي الصغيرة وعائلتي الكبيرة، بثقة تدفعني الى الظن الخائف بأنك تودع شيئاً ما، فتعين نفسك رئيساً لجمهورية الصنوبر المستقلة على سفوح جبل الكرمل!

وهناك اخطاء كثيرة كثيرة، نخشى ان نحن سميناها ان نقع في اخطاء اكبر واكثر.

جحيم هنا...

جحيم هناك...

ولكن ليس للخارج ان يخرج اكثر وليس للداخل ان يدخل اكثر. فالى متى تلتفُّ علينا الدائرة؟

قمر هنا... قمر هناك.

وسأعود، مهما اجتاح جنون الواقع حنيني، ففي النفس جنون مضاد، سأعود مهما

Twitter: @ketab_n

ضيق علم الفلك مساحتي. على هذه الذرّة، يا عزيزي سميح، على هذه الذرّة من ساحل الرمل اللامتناهي، جنة كبيرة، جنة واسعة شاسعة تتسع لخطوة الحضور ولخطوة الغياب، وتتسع لملعب يرتكب فيه الاولاد ـ مهما كبروا ـ خطأ التصويب...

هل اخطأنا التصويب؟ لا... لا... لا...

خذ قلبي كرة قدم، نلعب بها كما نشاء، كما نشاء: تمريرة من هنا... تمريرة من هناك، ثم نسجل هدفاً في الشبكة ـ شبكتنا. ويهتف الجمهور ـ جمهورنا: جووووووووووول...

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٦/٢٢)

Twitter: @ketab_n

نرسم بحبر الروح سهماً واضحاً...

● اخي محمود هنا وهناك...

لا مفر. اننا نعترف ونبوح ونستجدي الذكريات عزاء ما عن غربة الحضور وحضور الغربة. ولا مفر، نشهر احزاننا صواري ناصعة.. ونندفع بزوارق الحنين بين المدمرات وحاملات الطائرات، ولا مفر، لا مكان على هذه اليابسة المزدحمة.

يخيل لي ان الواحد منا يكتب لنفسه حين يكتب لصديقه. ويكتب عن اخيه حين يكتب عن نفسه حتى ليختلط الامر: من المرسل؟ من المرسل اليه؟! طوبى للجحيم طوبى للمطهر وهنيئاً لاولئك الذين بلغوا الفردوس المنشود. ويخيّل لي ايها الصديق الغالي ان كلامنا يحمل في اعماقه «تايبس» وراهب توبتها معاً... تهلك فينجيها، فتنجو وبهلك. كان الله في عوننا.

تلحّ عليّ الآن فكرة الصداقة.. وقد تكون هذه هي المرة الاولى التي أتأمل فيها هذه المقولة البسيطة (صداقة)، ويتضح لي على الفور انها ليست بسيطة على الاطلاق. وحين احاول تعريفها اكتشف ان الامر ليس من السهولة بمكان. تماماً كما يطلب الينا تعريف الشعر. واتملص من نفسي الى نفسي قانعاً بالحكم ان الصداقة هي ما بيننا ـ خيراً وشراً، سلباً وايجاباً، اقامة وغربة. واطمح الى الزعم بأن الصداقة كالصحة، مستنجداً بالقول المأثور (الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه سوى المرضى). هل حالفني الحظ؟ لا ليس تماماً، فنحن الاصحاء ونحن المرضى، نحن التاج ونحن العين التي ترنو اليه دامعة بدخان الروح حمراء بغبار الغضب.

أخي العزيز،

تذهب الى علم الفلك راصداً شيئاً من المؤاساة. أإلى هذا الحد ضاقت بنا الارض؟ اجل الى هذا الحد. وتمتد عبر ركام العمر يد صغيرة لذكرى صغيرة تهمس: «خذني. اريد ان اغتسل. اريد ان اولد من جديد». ونعود معاً الى منزل ما في شارع المتنبي على سفح الكرمل. المتنبي يصير شارعاً في حيفا، وتصير حيفا نمطاً جديداً من شعب بوان.. آه مغاني الشعب.. آه ابا الطيب... «ولكن الفتى العربي فيها»... ولان جمهور

Twitter: @ketab_n

حاييم نحمان بياليك لا يعرف وجه المتنبي ولا يده ولا لسانه، فان شارع المتنبي يصبح تلقائياً وبسخرية قاتلة: شارع مونت نبي، على غرار مونت كارلو او مونت بلانش ولا بأس بمونت كريستو! ورغم كل شيء نعود معاً الى شارع المتنبي، وفي صباح احد ايام العطلة القليلة تشعل انت سيجارة اخرى على الشرفة العالية المطلة على البحر واخرج انا من خزانة الثياب التي اعتصمت فيها احتجاجاً على الحياة نفسها وعلى الموت شخصياً ثم اتربع على الكنبة الرثة في الصالون الصغير فارداً جريدة ما بين يدي. اقذف بالجريدة وتقذف بالسيجارة. نواجه عزلتنا المخيفة داخل الحشد الملتف حولنا ونتساءل كأنما بصوت واحد: «ما العمل؟ ما الحل؟». واعثر انا على العمل في احدى قاعات السينما النهارية وتجد انت حلك المناسب على شاطىء البحر.. هل تذكر المايوه الاول الذي اشتريته وخجلت من ارتدائه امامنا؟ هل تذكر عودتك من البحر بأنف احمر وغبطة بيضاء. هل تذكر متعتي بأفلام الرعب والهول والعنف؟ هل تذكر الصديقات العابرات مساء والاصدقاء الذين احبونا على علاتنا وزلاتنا؟

وتذهب الى علم الفلك. تغادر هذه الارض وفي قرارة عقلك الباطن وقلبك الباطن شهوة ارخميدس (أو فيثاغوراس) الهائلة: «اعطوني رافعة وموقعاً خارج الارض لازحزحها من مكانها». اجل، نحن نرغب في زحزحة الارض لان دورتها المملة تحكم حبلاً من مسد على جيدنا المتلع نحو الوطن، نحو استراحة متواضعة في ظل شجرة الخروب القانتة، (هناك) (هنا) على تل صغير بين ساحل البحر وجبال الجليل.

كان لنا فلكنا الخاص ومدارنا الليلي المحظور على سكان الارض. والى جانب قصائدنا وسجوننا ونسائنا كان لدينا جوعنا الخاص، جوعنا المتكبر والحقيقي في آن. فأهلنا الذين يحبوننا يريدون لنا ان نصبح في عداد الاطباء والمحامين والمهندسين وسواهم من اصحاب الدخل المؤكد، ونحن الذين نحب أهلنا نريد لانفسنا وعياً وعمداً وعن سبق اصرار، مهنة اخرى، قد يخسر المرء فيها كل شيء الا انه يكسب نفسه حتماً. اراد لنا اهلنا سعادة تردع الشقاء واخترنا لانفسنا شقاء يبدع السعادة. واية بهجة آدمية تعدل فرحنا حين تفاجئنا صورة ما، وحين نفاجيء في صدوع الليل وظلال النهار بيتاً من الشعر، نأوي اليه ونجول في ارجائه المدهشة عراة الا من احلامنا قانعين بكلماتنا كفاف يومنا؟

هكذا كان... سخط من التاريخ سخط من الاهل سخط من الجغرافيا سخط من السلطة وسخط من المومياءات... ومرة اخرى نلقي انفسنا في مواجهة حادة مع عزلتنا الباهظة.

Twitter: @ketab_n

هنا في هذا الموقف بالضبط تمتد الينا ايديهم الطيبة، اولئك الرجال الكبار الذين اصبحوا آباء تاريخيين ليس لك ولي فحسب، بل لبضعة عزيزة من شعبنا العزيز. احبونا وتوسموا فينا خيراً ففتحوا لنا ابوابهم الضيقة في المكان، الرحبة في الزمان. توفيق طوبي، اميل توما، اميل حبيبي، حنا نقارة، صليبا خميس ورفاقهم من الرعيل الاول بعد نكبة وتسعمئة وثمان واربعين، هذه الثلة النبيلة من حراس الشرف لشعبنا ولغتنا وشعرنا وتاريخنا. من حقهم علينا ومن واجبنا ازاءهم ان نصارحهم بحبنا لهم وبامتناننا لحنكتهم ورحابة صدورهم في زمن انتهاك الحرمة وامتهان الحنكة وسقوط الخيل قبل سقوط الفرسان.

واذكر، كما قد تذكر، ان صليبا خميس، بعد طردي من سلك التعليم، كتب في «الجديد» واحدة من اجمل افتتاحياتها على الاطلاق ودعاني للعمل في صحافة الحزب، وعملت هناك الى اليوم الذي اعلن فيه رفيقنا المرحوم يوسف صباغ مدير «الاتحاد» (كنا نسميه وزير المالية!) انه لم يبق في صندوق الصحافة كلها سوى ما يمكننا من شراء علبة شاي. ولانني لم احب الشاي ولم ارغب في ان اكون عبئاً اضافياً فقد لممت اوراقي بصمت وعدت الى شقتي في منزل السيدة سافيدس ارملة القنصل اليوناني في حيفا. كنت مغموماً ومضطرباً. قرعت باب السيدة اليونانية. العجوز الارستقراطية المتزمتة، لاطلب تأجيل اجرة الشقة الى وقت لاحق. وحين فتحت الباب بابتسامتها المتحفظة روّح عني قليلاً. فقد بدت في زينتها المفرطة والوان مكياجها المتطرفة (ربما لضعف في نظرها) بدت شديدة الشبه بجدة ليلى المصورة على غلاف قصة الاطفال (ليلى والذئب). وقبل ان افاتحها في الامر سألتني ان كنت احب ان تواصل العزف على الجيتار بحضوري ولم يكن لي ان ارفض. وقبل انطلاق اظافرها المطلية بالاحمر الفاقع على اوتار الجيتار ناولتني قصاصة صغيرة: «احد اصدقائك جلبها قبل قليل». وكانت القصاصة رسالة مقتضبة من صبري جريس يقترح عليّ فيها العمل رئيساً للتحرير في مجلة اسبوعية ينوون اصدارها بالاشتراك مع اوري افنيري. ولم يمض سوى شهور قليلة على عملي رئيساً لتحرير مجلة «هذا العالم» حتى دبّ الخلاف بيني وبين اوري افنيري الذي يظن نفسه لورنس اليهودي في بلاد العرب السذج.

مرة اخرى، انا بلا عمل، ولا بد من البحث عن وسيلة اقناع لتأجيل أجرة البيت. صاحبة البيت هذه المرة كانت سيدة جميلة من تل ابيب. ولم توافق السيدة الجميلة على تأجيل أجرة البيت فحسب بل دفعت لي مبلغاً جيداً لقاء جهودي الجيدة في خدمة القضايا الانسانية الملحة.

Twitter: @ketab_n

لم ابتلع تل ابيب ولم تبتلعني. بيننا نفور مزمن. وحين تعذرت أية امكانية للتعايش بيننا حملت اوراقي وعدت الى حيفا. وكأنما بميعاد سابق او كأنما بارادة الهية، كدت اصطدم في زحمة محطة القطار في حيفا بتوفيق طوبي الذي يخاطب الناس جميعاً بنداء (يا رفيق) صادر عفواً ومباشرة من القلب الابوي الكبير: ـ «اين انت يا رفيق سميح؟» ـ انا هنا وفي لا مكان! ـ اما زلت تعمل في مجلة «هذا العالم؟» ـ حتى مساء أمس ـ وماذا الآن؟ ـ لا اعرف. ـ كيف لا تعرف؟ ما معنى لا اعرف؟ (بلهجة معنفة) عد فوراً الى مكتبك... في «الاتحاد» في «الجديد» في «الغد». حيث تشاء ولكن ليس متى تشاء بل غداً ـ».

نحن الآن، يا محمود معاً، تحت سقف «الاتحاد» واميل توما. ولأننا نسهر الليل اكثره والنهار أقله، فلم يكن بد من قدومنا الى العمل. متأخرين لنجد استاذنا وصديقنا اميل توما وقد فرغ من كتابة الافتتاحية على الاقل. ونعاود المسرحية اياها: ندخل مقطبين جادين فيحدجنا ابو ميخائيل من بين حاجبيه الكثين ونظارته الصارمة دون ان يفلت القلم، ويرد على تحية الصباح باقتضاب عاتب ويواصل الكتابة. وبعد ان ننجز عملاً ملحوظاً، فقط، نسمح لانفسنا باسترضائه: «حبيبنا ابا ميخائيل، معذرة فقد كان الليل قصيراً جداً. آنذاك يطرح القلم على مكتبه وينظر الينا مباشرة بابتسامته العذبة الاليفة: «يا عكاريت متى تعقلان؟ متى تكفان عن لعبة التدمير الذاتي هذه؟»...

وبحين وقت الغداء، يذهب الناس الى وجباتهم الساخنة، ونكتشف اننا أنفقنا مرتب الشهر القادم في منتصف الشهر الجاري. ونشعر بالجوع، ونكابر. ويشعر الجوع بنا ونكابر. نحاول اضفاء شيء من الرومانسية على جوعنا الواقعي. نقدم التماساً الى «وزير المالية». وحين يراجع حساباتنا يصدنا بحزم: «رجاء، انكما تبالغان»! ويعلق علي عاشور ساخراً: (ان سوق الخضار قريبة، اذهبا بصندوق من القصائد فقد تعثران هناك على زبون اهبل!).

ولا ينقذنا من ورطتنا سوى صليبا خميس الذي يذكّرنا للمرة الاولى بعد الالف: (وجدتها.. وجدتها.. ليس لنا سوى ابي طوني ـ حنا نقارة). وحنا نقارة الملقب بصديق الشعراء يلبي دائماً دعوتنا له لكي يدعونا بدوره الى الغداء، حيث يترع كؤوس قلوبنا بحزمة ذكرياته مع عبد الكريم الكرمي (ابي سلمى) وابراهيم طوقان وجلال زريق وسائر افراد الكوكبة... ويوم تمرد ابو طوني، (وجدها) صليبا مرة اخرى فاستكتبنا قصيدة لا تخلو من تهديد ووعيد:

Twitter: @ketab_n

يا ابا طوني الا تذكرها ... دعسوة وجهتها من قبل عام؟
يوم اقسمت بأن تتخمنا ... بألذ الخمر مع اشهى الطعام
فلماذا صرت ان ابصرتنا ... في جوار البيت اسرعت تنام
انشغال ام قضايا طرأت ... ام فلاس ام ترى تخشى «المدام»!!

الخ... الخ.

ويستجيب ابو طوني شريطة ان نسلمه القصيدة... وفي اليوم التالي نكرر دعوتنا اليه فيزجرنا: «لا اخافكما فالقصيدة في جيبي»... الا انه سرعان ما ينسحب ويكرر الدعوة صاغراً لاننا نعيد له على التلفون، بيتاً بيتاً، تلك القصيدة الابتزازية التي حفظناها عن ظهر قلب...

ولعلك تذكر تلك القصة الطريفة عن الجوع وزميلنا محمد خاص... أتيناه ظهراً لنستدين منه نقوداً لغدائنا:

يا محمد!
يا اميراً وابن من كانت وتبقى
أبد الدهر اميرة
اعطنا خمسين ليرة!

فرد بلا اكتراث:

اغربا عن وجهي فانا فقير مثلكما.

واعدنا الكرة مخفضين من طموحنا:

يا محمد!
يا فقيراً وابن من كانت وتبقى
أبد الدهر فقيرة.
اعطنا عشرين ليرة!

وعاود الكرة بلا اكتراث:

قلت لكما اغربا عن وجهي فلا مال لدي.

وحين تنحنحنا لنؤكد من جديد اصرارنا على حقوقنا المشروعة، صرخ محمد خاص مقاطعاً:

ـ كفى. كفى. هذه عشر ليرات ليس لدي سواها... وسألنا عن سر استسلامه المفاجيء فقال بهدوء: انها القافية الشريرة... امير واميرة.. ثم فقير وفقيرة... وحان

Twitter: @ketab_n

الآن دور الحقير والحقيرة... كفاني الله شركما وشر القافية!

ضحكنا وقبضنا وتغدينا وكابرنا.. كابرنا باتجاه الخارج، اما خدوش النفس والتواءات الروح فنعرفها وحدنا انا وانت والله.

هل اذكرك بقصة اخرى من قصص الجوع اللذيذة؟ حسناً. ها انت ذات مساء تأتي الى منزلي في شارع يافا، تلوب قليلاً ولا تستقر على مقعد، تمسك كتاباً وتفتح راديو. تغلق النافذة وتفتح الثلاجة ثم تصرخ: «اريد ان آكل. انا جائع!» واهدىء من روعك: «لا بأس عليك انني متضامن معك، ضع جوعك الى جانب جوعي وسنحظى بوجبة فاخرة».

لم نجد في المنزل ذاك المساء سوى حبة بطاطا واحدة كان التلف قد اصاب احد اطرافها... بترنا جناحها التالف وسلقناها.. ثم شطرناها في صحنين من الصيني الفاخر محاطين بشوكتين وسكينين كما يليق بالناس المتحضرين... وكانت هناك مملحة بلا ملح وزجاجة كنياك في منتصف العمر، وبعد هذه الوليمة اشتد علينا الجوع، واشتد علينا كبرياؤنا... ولا شدة الا ويعقبها فرج ما...

فرج ما... هناك دائماً فرج ما. ونحن في شدتنا الراهنة، لم نفقد الامل. قد لا يتاح لنا ان ننعم «بالملعب الذي نمارس عليه حقنا في اجادة التصويب او خطأ التصويب» الا اننا لن نفقد الامل ولو من اجل الاجيال القادمة، وحسبنا يا صديقي العزيز اننا نرسم بحبر الروح ودم القصيدة سهماً واضحاً (ارجو ان يكون واضحاً) يؤشر الى الاتجاه السليم نحو خروبتنا وزيتونتنا وزهرة برقوقنا اللاذعة...

اخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٦/٦/٢٩)

Twitter: @ketab_n

خذ القصيدة عني!

[رسالة تلفونية]

● عزيزي سميح،

ما اضيق هذا النهار. نهار آخر من جدار الايام التي تتساقط علينا بلا انقطاع. رب يوم بكيت منه ولما.. الى آخر الجملة المعروفة. ترى هل سنرى ما هو اسوأ مما نحن فيه؟ لقد صحوت على رائحة حزيران هذا الصباح. ولكن بلا ضجيج. كل شيء هادىء على المشرق والمغرب هادىء وعادي باستثناء اجراءات روتينية كان لا بد من اتخاذها للمحافظة على سلامة الخطاب القومي.

لقد تعلمت الامة نعمة الصمت الحكيم وتعلم الاسرائيليون بعض التقاليد العربية وفي مقدمتها ردة الرجل الى بيت العروس. شمعون بيرس في القصر الملكي المغربي. معمر القذافي لا يصدق. لا يصدق الى الحد الذي جعله يصدق ان هذه الزيارة مخالفة لاتفاق الوحدة الموقع في وجدة!

اما جامعة الدول العربية فانها ما زالت مشغولة في البحث عن ميزانية لتشييد مبناها الجديد اللائق بوضعها الجديد.

شلوم عزيزي سميح شلوم. ولكنني لا اظن ان من حق السادات ان يفرح كثيراً فما زال في رزنامة العرب ما هو أشد سواداً.

اما لآخر هذا الليل من آخر؟. ما علينا الا ان نستعد لاستقبال ليل أشد حلكة. فان قاع هذه الهاوية ذات الشق المفتوح من طنجة الى عدن لا نهاية له، لا نهاية مرئية له. ولكن لمن الهاوية يا عزيزي لمن الهاوية؟

كنا نصفق لما ينهار من حولنا، لا علينا دع ما ينهار يواصل انهياره يبزغ البديل من بين الركام. هكذا كنا نقرأ التراجيديا الشكسبيرية بطريقة جدلية. وكانت اغنية الخراب هي الاغنية التي يزفها المثقف العربي الى ورد المزابل. ولم يكن في مقدور يد بشرية ان تسند حائطاً ينهار او توقف جبلاً يطير. ولكن هل استطعنا ان نختلف، ان نتميز، ان نتفرد وان نقف خارج هذا الشمول الرمادي؟ هل استطاع احد ان يقول ان شمول الخراب سيشملني؟ وباختصار مؤلم هل استطاع العربي أن يكون عربياً

Twitter: @ketab_n

آخر؟ وهل استطاع الجنين المتكون في هذا الرحم المريض ان ينجو من المرض؟ لا اقترح جواباً بل أطـل على صحراء.

خذ القصيدة عني يا عزيزي فقد ضاق المبدع بما يبدع وضاق الصانع بما يصنع. من أين يأتيك العسـل؟ من ابن يأتيني الامـل؟ خذ القصيدة عني لانني لا اطيق الساعة خداع الجمال. ولا اطيق قوة اللغة التي تحشرنا في النفق وتفتح لها لا لنا بطولة الافق. لا اطيق قوة اللغة التي لا تغير الا علاقة صاحبها بنفسه وحين يخرج الى الشـارع لا يجد نفسه ولا يجد لغته. خذ القصيدة عني قليلاً وحدثني عن خارطة الصحراء فها نحن نعد هجراتنا حين يؤذن لنا بالاستراحة القصيرة بين هجرتين. نعد هجراتنا كما يعد البدوي الابل والماعز. فماذا يريدون لنا وماذا يريدون منا. لقد بلغنا يوماً نسأل فيه لماذا ولدنا هناك؟ لماذا ولدنا هنا؟ ونحاكم: هل كان علينا ان نصدق تاريخنا وان نرفع للحاضر رافعة من دمنا. دمنا الذي احتاجوه يوماً لتلوين الاعلام ولتحسين سعر النفط. وحين تدهورت اسعار البترول انتهت الحاجة الى دمنا الذي صار دمـاً فائضاً عن الحاجة لا لزوم له ولا لزوم لما لا يلزم من شعب زائد. صار التخلص من بشاعة منظرنا ومن جهلنا ومن خمولنا شرطاً للحصول على الديون الامريكية.

شلوم سميح شلوم.

هل تذكر العهد الذي كانت فيه السياسة العربية تستنجد بأمريكا لتحميها من طيش اسرائيل. لقد امتد بنا الاجل لنرى كيف تستنجد السياسة العربية باسرائيل لتحميهـا من العـدوان الامريكي ومن الافلاس. لقد اجلسوا الوهم على قدميه. طوروا الوهم الى درجة الانتحار الذاتي وحولوه الى صنم للعبادة. هل بلغنا مرحلة اللا معقـول؟ كلا. لقد تجاوزنا مرحلة اللامعقول بتحويله الى معقول ألفناه وأدمناه. انظر، اذا كان في وسعك بعد ان تنظر، الى فردوس الصمت الممتد من طنجة الى عدن. واضحون كالفضيحة متساوون كالرمال حكماء كالعبيد وبلا قناع في مسرح العبث المفتوح بلا قناع. كم من قناع سوف يسقط؟ كم مرة سنقول «قد سقط القناع» لكي نرى بشكل اوضح. لا اقترح جواباً. اني اطـل على صحراء.

ويشتد علينا الخناق. الى اين يُدفع يا عزيزي بذلك النداء الفدائي الرسولي؟ الى اية بئر يرمون صرخة اللحم البشري العاري حتى من الصلاة؟ الى اين يسوقون هذا الجسد المضرج بخناجر الاخوة؟ أإلى هذا الحد تضيق الارض العربية بعشاق الحرية المتواضعين، الذين روض الواقع احلامهم فترجلت من المدى الشاهق الى مكان آمن محروس بكـل ما انجب العقل المساوم من معاهدات تحظر على الانسان ان يحلم

Twitter: @ketab_n

بصوت مسموع؟

يشتد علينا الخناق لنعود كما تركتنا الخيانة الاولى لاجئين، لاجئين كضحايا الكوارث الطبيعية، لاجئين بلا وطن، لاجئين بلا منفى، لاجئين بلا رسالة، لاجئين بلا قضية. فماذا ستكسب السياسة العربية من محاولة اعادة النهر الى الوراء؟ ومن سيحصل على حصة الاسد من هذا الجسد الغنيمة؟ وما هي مكافأة الجريمة؟

من سيكسب غير الزائر في صراعه الداخلي علينا لا من اجلنا؟ اما العرب فلن يضمنوا غير المزيد من الهزيمة. تقسيم المنقسم وتجزئة المجزأ وتخفيض سعر الدم والبرتقال مقابل هدايا القمح والقمع وازدياد التبعية. ثم ما شأننا نحن؟ ما شأننا بصراع انتخابي اسرائيلي داخلي لنزج بمصالحنا القومية فيه؟ ليس من واجبنا يا عزيزي ترشيد الرجعية سواء كانت تقليدية ام تقدمية القناع. ليس من واجبنا ان ندلها على مصالحها التي حولها ارتباطها بالغرب الى رهينة تستدرجنا لنكون رهينتها. فهل نكون الرهينة؟ ليس هذا ما يخيفني يا عزيزي. ان ما يخيفني هو الوهم والتحاق المعارضة بالنظام الى درجة اتساءل معها: ماذا اصاب لغتنا؟ لماذا تأدينا الى هذا الحد؟ ولماذا لا تستولي الرهينة على رهائنها؟ أليس من حق الرهينة ان تفاوض؟ ولماذا نزن كلماتنا بميزان الآخرين؟ فليس من واجب الرهينة الانضباط الدقيق بقواعد الشرعية الدولية التي قضمت مطالبنا ورسالتنا وروحنا واستدرجتنا الى نفاق اخلاق الدول: سفارة هنا وسفارة هناك ولا دولة.. الارض تبتعد ونحن نبتعد عن الارض. فما جدوى الاطراف اذا توقف القلب. وما اسم الجزيرة اذا جف البحر. لا اقترح جواباً بل أطل على صحراء.

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٧/٢٢)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لن يفلت احد من شهوتنا

● اخي يا محمود،

مسكين ساعي البريد المتنقل بيننا مثل رقاص ساعة اثرية. مسكين ساعي بريدنا، حمل رسالتك ـ دمعتك ـ الاخيرة، فحملته الحيرة: كيف يوصلها اليّ؟ كيف ومن اين ومتى؟ ابواب القارة العربية ونوافذها موصدة، مختومة بالشمع الاحمر المصنوع في الولايات المتحدة الامريكية او في ولاية اسرائيل الامريكية. يا له من ساع مسكين حقاً حمل الرسالة ودار بها على حدود الوطن العربي كلها مستغيثاً: دعوني اكمل عملي! حين قرع ابواب ساحل المتوسط الشرقي والجنوبي اطلت عليه اساطيل العم سام وخفر السواحل الاسرائيلي، وحين هتف بباب الشاطىء الاطلسي تصدى له البريطانيون والاسبان. قال اجرّب «البوابة الشرقية» للوطن العربي فأجابوه بالفارسية. ونادى يائساً، نادى على ثغور الشمال. وما من معاوية يلبي، وما من سيف دولة يجيب، وما من ابي فراس يسعف.. لم يكن هناك سوى الرجع الملول لاغنية تركية على مقام الرصد (اقرأ الرست) !

ووصلت رسالتك، اذن كيف وصلت؟

عبر كوّتنا اياها. الكوة المضاءة بسراج الدم في هذه القلعة الهائلة المهجورة المعتمة. الكوة التي كأنها (وكأنها) استغفلت الزمان فظلت مفتوحة او كأنها هي ثغرة طارئة بفعل العوامل الطبيعية. الفيضانات، العواصف، الهزات الارضية. ربما، الا ان الحارس الشيخ الذي دافع ببسالة عن هواء هذه الكوة ونورها لم يزل حياً يرزق ومن حوله سبط لن يضيع!

محمود يا اخي.

أية لوعة في القلب اودعتها رسالتك؟ ان صرختك المحشرجة: «خذ عني القصيدة»! هي التكثيف النهائي والكامل لألمنا الفلسطيني، انها النسخة المعاصرة ـ هل اقول الطبعة الجديدة؟ ـ لصرخة حبيبنا ورفيقنا يسوع المسيح: «الهي الهي لماذا

Twitter: @ketab_n

شبقتني؟» انني ابكي ايها الاخ البعيد، ابكي وانا اكتب لك هذه الكلمات، ابكي ولا اخجل، على الرجال ان يبكوا احياناً، دفعاً للخجل، احتيالاً على الحياة والتفافاً على الموت.

الهي، الهي، لماذا شبقتني؟ خذ عني القصيدة! ابعدوا عن فمي هذه الكأس! أما آن لهذا الفارس ان يترجل؟... وماذا بعد؟ اما آن لتعب السؤال ان يجزى براحة الجواب؟!

الآن يحضر فرانز كافكا بكامل استلابه، لا يلقي التحية على احد، يقف على منصة الامم المتحدة ليلقي كلمته، تصفق له الوفود ولا يعيرها التفاتاً. انه ما زال مكباً على ذاته متأملاً ذلك الجعل البشري المقلوب على ظهره، الجعل البشري انت وانا ونحن وهم. يلقي كافكا خطابه المرعب: «الم اقل لكم؟!» ويستدير نازلاً عن المنصة المنافقة، عائداً الى عزلته الانسانية المطبقة.

هنا يحين دورنا. نستعيد صرخة ذلك الشهيد القديم: «احمل صليبك واتبعني!». نستلهم النظرة الاخيرة في حدقتي سبارتاكوس المطفأتين، نحاول استكناه نأمته الفاصلة. نتشبث بصرير اسناننا. ورغم كل شيء نكتب القصيدة. ورغم كل شيء نحمل قصيدتنا ونتبعه. نتبع ذلك النور المتلألىء حتماً هناك في نهاية سردابنا الدامس. هذا السرداب لا يد له من نهاية... علينا ان نمشي فقط، نزحف، نؤمن ونقول، نقول ونؤمن، نستعيد قوانا حبّة حبّة وننهض خطوة خطوة. لا نرى النور ونراه، ينبغي ان نراه. لا خيار امامنا سوى بلوغ ذلك البصيص المؤكد في نهاية النفق المظلم. فرانز كافكا كان على شيء من الحق. اما الحق كله فالى جانبنا نحن. كافكا رأى، اما نحن فقد رأينا وثرنا، ادركنا وثرنا، آمنا وثرنا. هذا الجعل البشري المقلوب على ظهره ظلماً وغدراً وعدواناً سيستقيم من جديد وسيبعث انساناً سوياً رغم كل الوحوش المتحضرة المتألبة علينا.

لتذهب غولدة الى رغدان وليذهب السادات الى الكنيست وليذهب بيرس الى افران. ليذهبوا جميعاً حيث يشاؤون، فلن يفلتوا، لن يفلت احد من شهوتنا النبيلة الطاغية، شهوة العودة الى حيث نشاء، حيث يحق لنا ان نشاء. يستطيعون اطالة حرماننا بيد انهم عاجزون عن انهاء حقنا.

نحن، اليوم، في حاجة ماسة لانفسنا، لروحنا القديم، نحن في حاجة للايمان، ليس بمعناه الكهنوتي، بل بمعناه المجرد المطلق، بالعفوية التي تلازم الطبيعة الاولى والمباشرة، بعيداً عن السَّبر والتقصي. وفي منأى عن التأمل. نحن في حاجة لنارنا القديمة ـ على سذاجتها، لانها الخاص الكامن في اعماقنا مثل حبة الرمل الكامنة في اعماق اللؤلؤة. ليكن الشعب محارتنا، ولتكن قصيدتنا عزاءه المؤقت بقدر ما هي

Twitter: @ketab_n

عزاؤنا الدائم. لقد جعلنا من لفظة: سأقاوم! شعاراً لشعب ونداء لأمة. ورغم ان اوكار الخيانة تتناسل مثل اوكار الارانب، ورغم التكاثر الفاجع في مدن العبودية وعواصم السقوط، فلا خيار امامنا سوى ذلك الذي أكدته انت وجددته قبل فترة وجيزة: اما ان نكون او نكون!

ها انذا ارتاح قليلاً، حين اكتب اليك فانني اكتب الى نفسي. ويا لها من مناورة رائعة هذه التي نتعزى بها في زمن شـحّ فيه العزاء، زمن المبكيات المضحكات، هذا الزمن الذي ثرنا فيه وعليه، من أجل ان يكون زمننا نحن، وسيكون.

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٦/٧/٢٧)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

طائر على حجر

● عزيزي سميح،

حطت رسالتك الاخيرة عليّ كما يحط طائر على حجر.. آنستني في برية الروح. دلتني عليّ وعلى أفق لا يبدو انه سيواصل الهروب منا الى الابد...

ولا أخفي عنك حاجتي العطشى الى اول الماء والى اول الكلام. فهذه العزلة التي كنا نحتاجها لنتأمل ما فينا من بقايا النهار هي العزلة التي نقاومها لنواجه ما حولنا من حصار.

وها أنت توقفني في المهب الحريري للخطى الاولى. كأنك تنجح في وقف البعيد عن الابتعاد. كأنك تمنع البداية من اخفاء عنوانها الساطع، وسط ركام الشك الشائع في هذه الايام.

شكراً لهذا الشمال،

شكراً لتلك البوصلة.

لقد انقطعت شهيتي عن الكتابة فجأة، لا لأن جدران المراحيض العامة هي صحافة المستقبل الحرة، بل لانني لم احترف الكتابة بعد كما لم آلف الزواج. فهل ينبغي عليّ ان اخاف هذا الصيف الذي يدفع النفس الى الخمول، ويطلق افاعي الذكرى من اوكارها؟ ام ينبغي عليّ ان اغتصب الكتابة؟

منذ شهور، وانا أروِّض عاداتي. اصحو لأكتب. اصحو من اجل ان اكتب، وانقع حياتي من عبث كان ضرورياً حين كان يبدو لي ان في العمر متسعاً لنضج فواكه اللغة. ولكن، أليست الكتابة عبثاً أقسى في هذا الصراع الضاري مع بياض لا ينتهي؟ فكلما كتبنا احسسنا بأننا لم نكتب بعد. وكلما قرأنا شعرنا بأننا لم نبدأ القراءة.

ومن مشاكلي انني لا اكتب في الليل. لا أحب الليل ولا اطمئن الى الليل. والصباح هنا قصير. والفجر رصاصيّ موشح بحمام اسود. الحمام هنا أسود. ومن مشاكلي المهنية ايضاً انني لا اعرف الاجازة، لا اعرف ماذا اصنع بالاجازة التي يقدسها الناس هنا. لذلك، اختلف مع الصيف ولا اتفق مع الليل. تعال... تعال اذا

Twitter: @ketab_n

استطعت لنواصل هجاء الزمان والمكان ولنلعب الطاولة، ولنطهو مذاق الطعام القديم...

هل يصيبك هذا العقم المفاجيء؟ هل يجتاحك الاحساس بالهزيمة النهائية اذا توقفت اسبوعاً واحداً عن الكتابة الى درجة تنسى معها انك قد انتجت كثيراً هذا العام؟ لقد علمتني تجربتي المتكررة، في هذا الاحباط، ان ابتعد عن المحاولة، فالكتابة حرون لا تنفع معها وسائل الاغراء ان عصت. سترضخ، سترضخ. تباً لهذا الصيف. تباً للجرائد!

قلت لي انك تخاف كتابة النثر. لماذا تخاف؟ يبدو لي، يا عزيزي، ان النثر هو ديوان هذا العصر، اذا أبقى التلفزيون له باقية! وماذا لو سرق النثر شيئاً من الشعر. أليس النصُّ نصك؟ لا اظن ان النثر هو استراحة الشاعر، او فضيحته كما يقولون. فقد تتحقق الشاعرية في النثر اكثر من تحققها في القصيدة المشروطة بشكل قد يكبح جماح الجنون، هناك دائماً فائض شعري ينبجس من مكان آخر. المهم هو الا نؤجل هذا الانبجاس، فليس من الصواب ان ندخر الشعر الى ان تأتي قصيدته التي قد لا تأتي...

اياك، يا عزيزي، اياك ان تغربل النثر لتفصل ما يصلح منه للقصيدة القادمة، فالشعر لا يسقط في النثر بل يولد معه. وأنت أدرى من سواك بأن الشاعرية شهوة تصعب اعادة انتاجها في شروط توتر محسوب. الرغبة تصيح وتنفجر ولا تُنقل الى موعد آخر..

ضع نفسك في الريح والجنون، فليس في وسع الشاعر الا ان يكون شاعراً.

وفي الأزمات تكثر النبوءات الطالعة من كوابيس. لا تبك ان سألتك ان تأخذ القصيدة عنّي. فلمن اشكو مما اعبد؟ اما آن لك ان تعرف اني لا احبُّ الحب لاني لا احب وضوح هزيمة الحلم المتحقق. سأهرب دائماً مما يصير شروطاً للفرح. سأشاكسه كما يشاكس الطائر شجرة. ولن نشفى.. لا نريد ان نشفى من هذا الايقاع، لا لانه سلاح يصلح للسخرية من تاريخ ما خرج من التاريخ، بل لانه مرض ملازم لا يعني الشفاء منه سوى موتنا!

اكتب الي.. اكتب من اجلي.. لاقرأ نفسي بطريقة سليمة. وصدق حبرك المصنوع من غيمة. لقد جرّبتُ وتغربت واغتربت، فلم اجد اصفى من تلك المرآة: حجر هناك يحك جلدي وجذوع الشجر، حجر مرمي على طريق مهجور، حجر في يد طالبة غاضبة تتأهب للصراخ الاول، حجر يتجنح، حجر يتسلح باللغة، حجر من ذاكرة، حجر من نسيان، حجر من قصيدة..

اكتب اليَّ.. اكتب من اجلي لتُرشد جهات الأفق الى الجذور. لا، ليس من طبيعة

Twitter: @ketab_n

القلب ان يتلفت الى ناحية اخرى. وليس من حق القلب ان ينفصل عن الوجه النوراني لزهرة عباد الشمس.

كان عليك ان تبقى. وكان عليَّ ان اذهب، كان عليك ان تذهب، وكان عليَّ ان ابقى لنبني هذا الجسر، لنرفع لرائحة السريس السرية ولزهرة القندول سيرة الفضاء الذي لا يتسع لصرخة. ليس هاملت سيد الكلمات ليكوِّن حيرتنا. لماذا تضخم سؤاله الى هذا الحد الفلكي؟ فنحن لسنا بحائرين ومترددين بقدر ما نحن مذبوحون بشفرات المياه الراكدة. ولكن الادب قادر على اخفاء مذبحة شعب بسؤال فرد.

نعم، لقد اخترنا ان نكون وان نكون، وان نشرب الكأس، كأسنا، حتى الثمالة على مرأى من ملوك الطوائف المتحالفين مع ملوك الخرافة في حراسة القدس من قلوب تشرئب على الأسوار شجراً، وحصى، وأناشيد...

نكون، او لا نكون... ألستم انتم الجواب؟

يتبلور الاطار ويتغير.. ألستم انتم الجواب؟

يرتدي الملوك بدلات الكاكي للتمويه، ويتنكر البوليس برداء القديس للترفيه.. ألستم انتم الجواب؟

معاهدات سرية او علنية، خرائط محفوظة في الخزائن ام مطبقة على الارض.. ألستم انتم الجواب؟

خناجر الاخوة ـ الاعداء، والاخوة والاعداء واضحة.. ألستم انتم الجواب؟

وليتحالف الطائفيون مع الصليبيين، ألستم انتم الجواب؟

يسرقون الدم واللسان. يبعدون المقاتلين عن حدود الارض، وينهبون الارض من الشعب. الستم شعباً في ارض، وارضاً في شعب، ألستم انتم الجواب؟

نعم، ليذهبوا الى حيث شاءوا. وان كنا نريدهم ان يذهبوا الى اقرب جحيم. هل نجا احدٌ من «لعنة فلسطين».. هل نجا احدٌ من قبل؟ ولكن ماذا نفعل بالدهشة، ماذا نفعل بلا دهشة؟ ونحن ما زلنا نقرأ تاريخ الغزو الصليبي وتحالفاته، وندهش من تمدده الآمن على السواحل، ومن مرارة صلاح الدين المشغول بأكثر من حرب، المشغول باستبدال الدعاء بالسيف.

لا نجد وصفاً لحالتنا ولحالتهم افضل من تلك القلاع المهجورة الدالة على الحضور والغياب، في ارض تتساقط فيها القلاع على القلاع، ويرعى الماعز على انقاضها اعشاباً لا تتوقف عن النمو.

أكثير علينا، اذاً، ان نحزن قليلاً الى ما يتكرر بلا عبرة، هذه المرة، وكأن لا شاغل للحكم العربي غير احالة أزمة الآخرين الى صفوفنا، وتحرير الأمة من المدافعين عن

Twitter: @ketab_n

الأمة؟ ألم يعد للحكم العربي من مقومات الدفاع عن النفس غير القضاء علينا، جسداً وفكرة وصرخة؟

وبأي ثمن؟

بلا ثمن!

ولكنكم هناك.. فأكتب لنا من هناك عن هزيمة الحرب الاسرائيلية الدائمة لفك الارتباط بين الارض وشعب الارض. واكتب لنا عن هزيمة الاسرائيليين في محاولة فرض السلام الاسرائيلي على الشعب الاعزل المحاصر، ليحاط الملوك والرؤساء العرب علماً بما لا يعلمون من البديهيات...

واكتب الي.. دُلني على البسيط البسيط، على الكلمات الاولى لاغاني رعاة علّمونا الجبال، الكلمات الاولى لعمال المطبعة الاولى. معك حق.. معك حق: نحن في حاجة ماسّة الى الايمان الاول، والى النار الاولى. نحن في حاجة الى «سذاجتنا». نحن في حاجة الى درس الوطن الاول: ان نقاوم بما نملك من عناد، وسخرية، بما نملك من جنون...

في الأزمات تكثر النبوءات: وها أنذا أرى وجهاً للحرية، محاطاً بغصني زيتون.. أراه طالعاً من حجر.

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/٨/٥)

Twitter: @ketab_n

الصمت الجهوري

● العزيز محمود،

لم أجرب لدغة الأفعى، حتى الآن، جربت لسعات النحل. قد تكون مضاعفات توبيخ الضمير ألماً مماثلاً في مساحة ما، بين الافعى والنحلة. وكما تعلم فالملعونون، امثالنا، معرضون لنوبات التأنيب الضميري اكثر من قابليتهم الجسدية للسقوط في شراك الزكام (انت لا تحب الصيف وانا لا أحب الزكام!). نحن مكشوفون لعذابات ضمائرنا الى حد الجنون والى حد الغباء احياناً. نتصرف بأعصابنا كأنها ملكية عامة. وغالباً ما نبدو لأنفسنا تماماً كما نبدو للآخرين، مشاعاً للاجناس البشرية كلها. اذا جاع طفل في بيافرا ترانا نغرز اظافرنا في امعائنا. نحن المسؤولون عن سوء توزيع النتاج العالمي ونحن أفشلنا باهمالنا الشخصي خطط التنمية في العالم الثالث وبرامج الامن الغذائي الدولي. واذا قتل طالب جامعي في تشيلي واذا انفجرت سيارة مفخخة في لبنان واذا اعتدت امريكا على ليبيا واسرائيل على العرب والعرب على العرب فاننا ننقض على اقرب الاشياء الينا بالضرب والركل والشتائم: نضرب معدتنا بالقرحة، نركل احلامنا بالخيبة ونهجو القصائد بالقصائد.

هل نحن مخولون؟ هل نحن مكرسون؟ هل نحن منذورون؟ لا ونعم. نعم ولا. أجل وكلا. كلا وأجل. لماذا؟ لهذا!!

اليوم في غمرة رسالتك الاخيرة، صعقتني نوبة ضميرية جديدة: فجأة ينهض بيني وبينك راشد حسين بقامته الفارعة المنحنية قليلاً عند ملتقى العنق بالكتفين وبغرته المتفلّتة ابداً كأنها راغبة في الرحيل الى مكان ما.

يقول راشد وهو يشعل سيجارة من سيجارة: «هكذا! اكتب عدة رسائل لأتلقى جواباً متملصاً واحداً، وها انتما تتبادلان، الرسائل واحدة بواحدة». وأرد عليه متملصاً مختنقاً بالادانة: «الحق معك ايها الاخ الغالي الا ان حبنا لك يحصى بدقات القلب لا بالرسائل». كم اخطأنا يا محمود حين تأخرنا في الرد على رسائل راشد الحبيب.

ونحضر دفعة واحدة تلك الليلة المشدودة كوتر، الليلة الاخيرة التي امضاها راشد

Twitter: @ketab_n

بيننا. حيفا، شارع عباس، شقة اميل توما الغائب في الاتحاد السوفييتي (الحاضر في ذمة التاريخ). راشد يتحدث عن استحالة بقائه في الوطن بصوت عال كأنما يحاور احداً. ونحن نواصل وجومنا بأسى احتفالي. كان ذلك كرنفالاً للحزن. واليوم حين أمر بوادي عارة يقوم راشد من بين الاموات منتصراً بالحياة منتصراً على الموت بالموت.. وأجدنا جميعاً هناك انت وسالم وتوفيق وحنا وصليبا، ولا اجد ذراعاً أرفعها بالتحية ويغرق الشارع في غشاء من الدمع ولا يعيدني الى نفسي الا الابتعاد عن سفح «مُصْمُص» والانباء اليومية عن حوادث الطرق المهلكة.

هل كانت لنا يد في مصرع راشد حسين؟ ألم يكن في مستطاعنا اطالة حياة غسان كنفاني قليلاً؟ لماذا سمحنا بسقوط عبدالرحيم محمود في معركة الشجرة؟ كيف تغاضينا عن صلب الحلاج؟ لماذا لم نستأنف ضد قرار عثمان بنفي أبي ذر؟ ألم يكن في مقدورنا ردع الموت عن فدريكو؟ لعلنا تساهلنا مع الاسخريوطي اكثر مما ينبغي؟

انها أسئلة جادة. ولا اريد اجابة من اساتذة التاريخ. ولا اريد اجابة على الاطلاق. لا اريد للحزن ان يتشكل ولا اريد للغضب ان يتموضع! حسبي ذلك الصمت الجهوريّ الذي تختزنه القصيدة.

ايها العزيز محمود،

كانت رسالتك الاخيرة اشبه بنهنهة طفل خارج لتوه من البكاء. انت الآن في حالة نفسية افضل. الى متى؟ الى المفاجأة البعربية القادمة. لقد حصلت انا على مفاجأتي الخاصة قبل فترة وجيزة حين قرأت في احدى الصحف التي تصلني متأخرة جداً ان أخانا العقيد معمر القذافي قرر تغيير اسماء الشهور. حسناً، انها رغبة ملحة في تغيير واقع الزمن، الا ان ما حدث فعلاً لا يتعدى تغيير شكل الزمن، اطاره، مقياسه. هذه الواقعة تعيد الى الذهن واقعة مماثلة. عزّ على اتاتورك ما اكتشفه في شعبه من تخلف، فانقض على العمائم واستبدلها بالسلندر وانهال على اللحى واستبدلها بالآفترشيف وماذا كانت النتيجة؟ أتيح لي قبل اعوام ان اقوم بجولة في ربوع آسيا الصغرى، وكنت اردد في دخيلتي بين قرية واخرى: «أتاتورك اتاتورك دع لي لحيتي!».

لا يقلقك تحفظي من النشر، فهو كما يبدو تحفظ ذهني يشكل تساؤلاً اكثر مما يشكل موقفاً. وهو قائم على القناعة بأن عملية الكتابة، أية كتابة: القصيدة، الرسالة، الخبر الصحفي، المقالة، الاهداء الخاص على كتاب تهديه انساناً عزيزاً عليك، كلها تستهلك طاقة ما من المخزون المتراكم في حالة الكتابة وأعني بحالة الكتابة، تلك الحالة التي يتغير فيها وضعك النفسي والجسدي معاً، تنتابك غيبوبة ما، ترتفع حرارتك قليلاً، ترى ولا ترى، تسمع ولا تسمع، ولا ينقذك من اختلال

Twitter: @ketab_n

التوازن الطارىء سوى ذلك الاندغام الكامل بين روحك وجسدك وقلمك والورقة الساحرة المستلقية بين يديك مثل امرأة والهة تصيح: خذنـــي!

بلى، يصيبني «العقم المفاجىء» احياناً. ذات مرة استمر شهوراً بكاملها. استحوذ عليّ رعب لا يوصف. لعله الرعب الذي يكتسح انساناً كاشفه الطبيب بأن داء السرطان لن يمهله طويلاً. لم أجد السلوى الا في حكمة تلك النبعة الجبلية في كرم الزيتون الذي اشارت اليه احدى رسائلك السابقة. انها تحتبس عاماً واكثر لتعود وتتدفق من جديد في موعد غير متوقع ولا يقدر إنسيّ على حسبانه.

حصلت في قبرص على نسخة من مجموعتك الجديدة «هي اغنية.. هي اغنية»، وكان طبيعياً ان يعجبني فيها ما لا يعجب النقاد الالترامودرن، اعني الشعر، الشعر الحقيقي بلوعتـه البكـر وفرحه الطازج وغنائيته المفعمة بالدم والحبق والشمس. وخيّل لي يا محمـود انني وقعت في احد مطبات القراءة. حين بدا لي ان القصيدة، منشورة في صحيفة او مجلة، ليست هي نفسها حين تتداخل مع شقيقاتها في مجموعة شعرية خاصة. قد اكون مخطئاً لكن لِمَ لا اكون ايضاً على حق، فالانسان، منشوراً في المجتمـع، ليس هو نفسه حين يتداخل مع ذاته في ركن خاص. أليست القصيدة شاعراً؟ أليس الشاعر انساناً.

اكتب لك هذه الكلمات في الرامة. تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ثمة كلب ينبح في طرف القرية الشمالي الشرقي. لعل شاباً يعود الآن من منزل خطيبته الى بيته وقد يكون عليه ان يستيقظ في الفجر ليذهب الى عمله. انه الليل، ليلنا الجليلي الرائع. كم اخشى ان تضيع مني لحظة من فضائه الممتلىء بالدهشة العامر بجلبة الصمت. هذا الليل الجبليّ الوعر الخاوي المكتظ، اتوجه ملكاً على احلام يقظتي ويكرّسني كاهن الاعتراف، يجثو امامي على ركبتيه ويبوح لي عبر حجاب من اجفاني المثقلة بكل ما في روحه من أسرار.

انت لا تحب الكتابة في الليل. لا بأس، لعله قدر علينا ان نتناوب الانفجار.. حين تحمد اصابعي على القلم في تهويمة الهزيع الاخيرة تقرع ما بين صدغيك نواقيس الفجر، فتنهض الى الورقة الساحرة المستلقية بين يديك مثل امرأة والهة تصيح: خذنـــي!

أخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٦/٨/١٢)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بيت من هواء

● عزيزي سميح،

أصحو لك من النوم لأودعك برسالة. كانت زيارتك قصيرة، قصيرة كتحية البحارة. رافقتك السلامة، يا عزيزي، رافقتك السلامة. ولا تقلق عليَّ، لا تقلق عليك، لا تقلق على احد، لتواصل هذا التماسك النبيل.

أحدّق في الساعة لأعرف انك قد وصلت الى بلادك الآن. هل بدأ الاستجواب؟ هل يحق لك ان تقابلني بعد صدور القانون الجديد؟ وهل يفكرون بسن قانون آخر يمنع تبادل الرسائل مع اعدائهم الذين يريدون لكم ان تكونوا اعداءهم؟... معقول.. لا معقول. كل شيء مفتوح على اللامعقول. الى متى اغبطك؟ الى متى تغبطني؟ والى متى تدعوني الى مقايضة الحنين بالكتابة.. الى متى لتدفأ من الكلام بالكلام؟

... تعرف ماذا اصابني أمس. هو ما يُصيبني الساعة. قل لي: من اين استوردت هذا السلام مع النفس؟ من اين نهلت نعمة المحافظة على المسافة اللازمة بين حركة الواقع الانقلابية وبين ثبات المثال؟

على قلق أنا، على قلق... احوم كالنحلة الملعونة، ولا اريد لعسل الكتابة ان يُغريني بالهتاف لمصادر الشقاء العام والشخصي الذي يُغدق علينا ايقاع السحرة. كفى هوساً! فان بيتاً واحداً من خشب او قصب او حجر خير لي من مباني هوميروس ودانتي وابي تمام. لهذا صرخت في المرآة: آن للشاعر ان يقتل نفسه. لا لينتحر، كما يظن الصحافي الباحث في القصيدة عن خبر، بل ليكف الانسان فيه عن تحويل الدم الى ورد، وعن تجميل الرماد... وليفضح السعادة، السعادة المضللة المضللة الناتجة عن أمل لا فكاك منه بابداع عالم، مواز ومضاد، لعالم ينهار فينا وفيه. ولنوقف الاتهام الذاتي: أثمرتُ الناس لتحيا اللغة!.. ولتتوقف الجثة فينا، جثتنا كما قلت، عن الرقص الاحتفالي..

ولكن، ماذا يحدث.. ماذا يحدث لو تركنا هذا الموت الماطر بلا شاهد وبلا جمال

Twitter: @ketab_n

دفاعي، لو ابقيناه ميتاً بينما يمجد الآخرون موت ورقة من شجرة؟. ماذا يحدث لو تركنا هذا اليأس العابث في حياتنا بلا قوة ابداع تحوله دلالاتها الى أمل؟. ماذا يحدث للفجر بلا وتر جيتار؟. وماذا يحدث لك اذا لم تخرج ما فيك من زهور ليلك؟

تركت فيَّ مذاق مرارةٍ وغياب. اصابني هذا الصباح ما اصابني امس من بلوى ضعف حين اوصلت الصبيتين، ابنتي اخي، الى المطار. جميع الركاب عائدون، عائدون، عائدون بأكثر من لغة، بما فيها العبرية، عائدون الى ما ليس لهم، عائدون الى ما هو لي، عائدون الى صنوبرتي وسريري. وانا ممنوع من التفكير بالعودة... وممنوع من الرغبة في العودة.

ماذا اصابني، يا عزيزي، لماذا اعود الى اكتشاف البسيط؟ لماذا يجرحني بسيطُ البسيط؟ لماذا اتذكر انني قد نسيتُ البسيط؟ لماذا يحتاج البسيط، هذا البسيط بسيطنا، الى خارق ومعجزة والى حرب عالمية؟. ألأنني كبرتُ دون ان أدري. ألأن الطفولة التي كبرت في غيابي دلتني على ان الكلمات ـ مهما كبرت واتسعت واشتدت ـ لا تنجب طفلاً من لحم ودم، وانه لا بد للطفل من ام؟ وانني في حاجة عضوية ونفسية الى من اصب له الحليب والشاي في الصباح؟ وانني في حاجةٍ الى من اعود اليه في غرفة في فندق؟

ان تكون معي.. ان يكون احد من افراد عائلتي معي.. ان يكون احد من اصدقائي القدامى معي.. هو الدليل الاخير والوحيد على انني موجود. ماذا دهاني؟ الى هذا الحد تحتاج القربى والصداقة الى تاريخ وامهات وسجون قديمة.. الى جذور وذكريات؟ ألهذا نمرُّ اليوم، على الناس والاشياء والمدن، مرور الممثلين الهواة على خشبة مسرح عابر؟

ألهذا مات راشد حسين؟

انا ايضاً يعضني ضميري. وانا ايضاً احد الذين يحملون انفسهم المسؤولية عن العزلة التي غرق فيها راشد. نعم يا عزيزي.. نحن مسؤولون ـ بما يعنيه الشعر في جدل الاخضر والخنجر ـ عن موت الشعراء والانبياء. نحن مسؤولون عن طلوع القمر على قصور القتلة. نحن مسؤولون عن مصرع فيديريكو غارسيا لوركا وراشد حسين. كان علينا ان نفعل شيئاً لانقاذ رأس الحلاج. ولكن، ماذا سيُصيب سؤالنا لو ادركنا اننا عاجزون عن اللقاء في حيفا لمنع راشد حسين من الرحيل الى نيويورك ولمنعي من السفر الى المجهول؟

مزيد من الخلوة في الحمّام لحجب الدموع عن الاصدقاء والاعداء. تلك هي المسافة، لا القطيعة، بين ما نريد وما نستطيع..

Twitter: @ketab_n

لقد انكسر راشد، كما ينكسر السرو العالي، في المعركة اياها التي كرست فيها الصهيونية الليبرالية بعض منابرها مواقع للدفاع عن القومية العربية!! وحين انتبه راشد حسين، القومي البري، الى التناقض بين الموقع والموقف كانوا قد سحبوا منه المنبر وعلقوه على الهواء..

كان يكتب الينا من نيويورك باكياً. وكان صليبا خميس، الصديق الوفي، يحث الاصدقاء على المراسلة. هل كنا كسالى، ام كنا نفتقر الى حاسة المنفى وحاجة المنفيّ الى جسور معنوية، ام كنا نغبطه لانه متحرر هناك من قيود الاقامة الاجبارية والسجون، ام كنا مشغولين في معارك الدفاع عن حقنا في الهواء؟ لا اعرف. اسئلة تحفر فينا الندم. لقد جرحناه بذلك الاهمال الصبياني البري، على الرغم من انه كان صديقنا ومثالنا. هل كانت نيويورك، الواسعة في السينما، ضيقة على راشد الى هذا الحد؟

من هناك، اتصل بي عندما كنت مقيماً في القاهرة. دعوته الى زيارتي فلبى الدعوة بطيبته المعروفة. أوقفوه اربع ساعات في المطار. وحين افرجوا عن قامته الفارعة، وعانقته مداعباً خصلة شعره الشاردة، قال لي: اسمع! قلت: ماذا؟ قال:

واقفٌ كلي مذلة في مطار القاهرة
ليتني كنت طليقاً في سجون الناصرة

قلت: من منا لم تستقبله هذه الحسرة؟ ذاهبون الى بلاد الاحلام ليدفعنا اول شرطي الى بئر الخيبة. طأطأ شفقه وواصل العناق. وقلت لأواسيه: حدث لي ذلك على الحدود السورية ـ اللبنانية في اول زيارة لدمشق بدعوة رسمية من وزارة الثقافة، حين وجد حارس الحدود اسمي مدرجاً على اللائحة السوداء.

في القاهرة، استعاد راشد حسين عافيته المعنوية تدريجياً. جمعته بجميع ادباء مصر. فرح بهم. فرحوا به. قرأ شعره لجمهور الشعر. أدلى باحاديث صحفية طويلة اعادته الى سياقه الادبي. دعاه حسنين هيكل الى الكتابة في «الاهرام». قرر الاقامة في القاهرة. سافر الى دمشق. قرر الاقامة في دمشق. اختلف مع بعض الاصدقاء القدامى الذين تغيروا ـ كما قال ـ ثم عاد الى نيويورك ليبحث عن نفس لن يجدها..

كان متعباً، ويُغيِّب ذاته. لقد ضاق الامام. وحين كان يلتفت الى الوراء كان الوراء يبتعد مهما سلط عليه الذاكرة. لم يجد ما يشغل به منفاه، ولم يكن الحنين مهنة كافية، ولا شعر عربياً في نيويورك الفاتحة معدتها لابتلاع الامم والثقافات. لماذا لا

Twitter: @ketab_n

تعود؟ اسأله. فيقول بصوت يتلاشى الى البعيد البعيد، بصوت فاتح الغموض: ليتني اعود، ولكنني تورطت في المنفى.. تورطت الى درجة اسأل معها نفسي: ماذا سأفعل هناك.. ماذا سأفعل؟

وكنا نراه، كل عام، في نيويورك. يأتي الى فندق «بلازا» ليأخذ الوفد الفلسطيني كله الى شقته الصغيرة لتناول «المجدرة». كانت هذه الوجبة احد التعابير عن هويته الوطنية. «لست غريباً الى هذا الحد.. لتجد فيها جذورك» كنت امازحه. وكان يلح. كان يتقن طهوها، ويجرحه اي اعتذار. راشد حسين لم يهاجر. لم يخرج من مصمص. لم يعرف نيويورك. ولم يطور لغته. اراد ان يبقى كما هو. ومن حوله تمرُّ الايام والتيارات والامواج والشعوب. وهو هو.. حارس الحنين والذكريات. وهو هو.. هناك: الشاعر الذي جر لغة الشعر الفلسطيني من الخطاب الايديولوجي الى واقع الحياة اليومية والى انسانها البسيط: الفلاح، العامل، اللاجيء، العاشق، والفدائي...

فلماذا لم نكتب اليه بعض الرسائل، لماذا لم نكتب الى كولونيل روحنا المتقاعد؟ لماذا لم نشغله ببناء الجسور والمواعيد، لماذا تركناه وحيداً.. وحيداً في نيويورك؟

صديقه «هادي الطرن» معذب الضمير. قال لي: انا ايضاً مسؤول عن موت راشد. كنت آخر من رآه. ذهبت الى شقتي وذهب الى شقته. في الليل ناداني. ألح عليَّ بأن اذهب اليه. رفضت. قال لي انه محتاج الى من يشرب معه ويتكلم معه. قلت له اني متعب. وتركته.

صديقه هادي يبكي الآن: ليتني ذهبت اليه.. ليتني ذهبت. لقد انقضَّ عليه الليل. توغل في العزلة المطلقة. وكان وحيداً في بطن الوحش. كفر بكل شيء. اشعل النار في أشرطة سجل عليها شعره، فاختنق بدخان قصائده..

اختنق راشد بدخان القصائد...

كان انقاذه ممكناً، لو وجد من يؤنس وحشة روحه في مدينة وحشية. كما كان انقاذ مايا كوفسكي ممكناً لو جاءت اليه صديقته، او احد اصدقائه ليلعب معه الورق. كذلك كان من الممكن انقاذ معين بسيسو في غرفة الفندق لو كان الى جانبه احد.

لا احـد..

كان من الممكن انقاذ الكثيرين لو كانت هنالك يـد، او رسالة، او سبب للحياة..

لا احـد..

فهـل سنجد من ينقذنا، يا عزيزي سميح، هل سنجد من ينقذنا لو تخلينا عن الشعر، لو خجلنا من تحويل الدم الى ورد؟

Twitter: @ketab_n

انقذني من سطوة هذا الحنين. انقذني من شماتة هذا المطار الذي يوصلكم الى بيوت من حجر، ويوصلني الى بيت من هواء!

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٨/٢٥)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الـمـلاك

● اخي محمود،

لو أعلم فقط، لو أعلم من اين هذا الثلج كله... نديف هائل عبر النافذة، اسأل صحفياً شاباً في جريدة «الاتحاد» التي عدت اليها كما يعود العاشق الى حبه الاول او كما يعود المجرم الى مكان جريمته، بلغة دوستويفسكي، اسأله وهو يضع خبراً جديداً على مكتبي: هل من ثلج على نافذتك؟

يفزع قليلاً ثم يبتسم بارتياك ويجيب مشككاً فيّ وربما في نفسه ايضاً: «لا.. لا ثلج على نافذتي».. ويعود الى عمله متلجلج الخطى يائساً تماماً.

يتراكم الثلج على نافذتي ويغيب ميناء حيفا قليلاً قليلاً مثل سفينة تهب نفسها للضباب. وتنقطع صلتي البصرية بالعالم الخارجي.

يُقرع الباب برفق ويدخل بكل هَبَلِه وأناقته صديقنا القديم اوسكار وايلد.

ـ ماذا تشرب يا اوسكار؟

ـ قهوة تركية من فضلك.

لم تكن القهوة قد حضرت بعد حين قلت له باحترام شديد:

ـ يا عزيزي اوسكار. الآن وبعد العندليب والوردة تستطيع الذهاب الى موتك بهدوء. لا تبدد وقتك ووقتي.

ولم ينتظر صديقنا القديم طويلاً، نهض بأدب جم وذهب الى موته.

كم اشتهي عندليبي ووردتي. كم انا في توق جامح الى سفر اخير نحو المحطة الاخيرة. أرهقتني الفوضى، أرهقني الرحيل في الاقامة والاقامة في الرحيل.

تسألني: من اين استوردت هذا السلام مع النفس؟

حسناً، سأبوح لك بما اعتبرته دائماً شأناً موغلاً في الخصوصية. انا يا صديقي احترف احلام اليقظة وامارسها بإدمان. اخلط العالم مثل اوراق الشدة واعيد ترتيبه على هواي. واحتفظ في جيبي بقلم يبدو في مظهره الخارجي قلم حبر عادياً من طراز «شيفرز» او «باركر». بيد انه قلم سحري، صوبته ذات يوم باتجاه سفن الاسطول

Twitter: @ketab_n

السادس الراسية في ميناء حيفا، وحين ضغطت على النقطة السرية في وسطه تفجرت السفن واحدة تلو الواحدة. وليتك شاطرتني المشهد الرائع، مشهد المدمرات وحاملات الطائرات المشتعلة الغائصة في اعماق البحر مثل اسماك القرش الممزقة بقذائف الآر. بي. جي.

وبعد الاعتداء الامريكي على ليبيا استدعيتُ رونالد ريغان (رونالد او رولاند؟ لا اذكر) استدعيته الى مكتبي في وادي النسناس فحضر على الفور ولم اسمح له بالجلوس قبل ان افرغ من كلامي. وقد وبخته وفركت اذنه وأنذرته بالفلقة اذا هو عاد وكرر اعمال الزعرنة.

وبأحلام اليقظة أعدت الوحدة الى صفوف منظمة التحرير وفرضت الوحدة العربية الشاملة وفقست الكرة الارضية مثل بيضة وأعدت بناءها من جديد وفق هندستي الخاصة ووزعت غاباتها وانهارها وصحاريها بالشكل المناسب. وبأحلام اليقظة أبكي وبأحلام اليقظة اضحك، واعيدك الى الوطن لنصل ما انقطع ولنكمل نشيدنا الناقص.

ثمة مصادر اخرى للتماسك ولتحقيق السلام مع النفس، فبعض الناس يتخففون من اوزارهم بالقائها جزافاً على عاتق الله سبحانه وتعالى وكأنه موظف صغير في حوانيت آبائهم او حراث مياوم في حقول اجدادهم. وتراهم يخلطون بين فريضة الزكاة والملايين التي يبذرونها على موائد القمار وارداف الراقصات في نوادي اوروبا الليلية. هي البلادة بعينها الا انها على اية حال ضرب من ضروب التماسك والسلام مع النفس. وحين ترى الى الواحد من هؤلاء فانك تحس برغبة شديدة في اطلاق رصاصة بين عينيه مباشرة، بيد انك تتراجع على الفور لانك لا تستطيع التأكد من ان الرصاص وحده قادر على ازهاق مثل هذه القاذورات البشرية.

وفي الحالات كلها يظل ماثلاً امامنا ذلك المصدر الانبل والارقى للتماسك وللسلام مع النفس: «فهم الضرورة».

فهذا التعبير المتحول مع الحياة من مقولة ماركسية علمية محددة الى موقف حضاري ومسلك وجودي، يختزن قدراً هائلاً من مبررات استمرارية الحياة على علاتها.

لا اريد ايها الاخ العزيز ان أُسيء الى احد. ذلك أن الاساءة الى الآخرين تؤلمني اضعاف ما تؤلمهم (هذه احدى نقاط ضعفي.. او قوتي.. لست ادري!).

لا اريد الاساءة الى احد، غير انني على يقين من ان مایاكوفسكي لم يدرك جوهر «فهم الضرورة» ولذلك اقدم على الانتحار. ولعل ملاك «فهم الضرورة» رفع جناحه

Twitter: @ketab_n

عن «يسينين» فرفع يده على روحه وخسر مرتين: خسر المعرفة وخسر الحياة.

ايها العزيز محمود.

بيت من حجر؟ هذا صحيح

بيت من هواء؟ وهذا صحيح.

الا ان بيتنا نحن المنذورين المقربين بمشيئة الدنيا والآخرة، هو البيت الآخر؟ تحت الحجر وفوق الهواء، بين الظلمة والنور على حدود النار والثلج، ذلك البيت الذي لا يلج اعتابه بشر سوانا، الضيق الرحب المعتم المضيء الدافىء الرطب البارد الجاف. ذلك هو بيتنا الاول والاخير. اما كل ما عداه فليس سوى محطات على الطريق. وكما اخبرتك ذات يوم فمنذ تزوجت تزوجني التفكير بضرورة بناء بيت جديد للاسرة القادمة. ليس لي بل لأسرتي التي لا تستطيع مشاطرتي نعمة الاقامة في بيت الشعر المدهش. كنت سأكتفي بالعقد القديم في المنزل الذي تعرفُهُ وكنت سأبتهج بكهف على سفوح «حيدر» او خيمة على كثبان «النقب». وكيف يؤاخي المرء بين طموحه الخاص و «حركة الواقع الانقلابية» التي تشير اليها في رسالتك؟ هنا يُقبل الملاك المخلص. ملاك «فهم الضرورة».. مُتوجاً بهالة من حكمتنا العربية القديمة: «للضرورة احكام!».

أنذا أرى نفسي الآن بصورة اوضح من صورة الأمس. كيف ترى صورة نفسك؟

أُكتب إليّ. أُكتب إليك.

أخوك سميح القاسم

(حيفا ـ ١٩٨٦/٩/٢)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

... والدكتاتور

● عزيزي سميح،

ساعات ما بعد الظهر. ضوء. سماء زرقاء. ضوء يتلألأ على اوراق الشجر. ضوء يتسرب الى النفس. ضوء من ضوء، لا من موسيقى موزارت ولا من رواية فوكنر. ضوء ضوء...

لعل اول الخريف هو احد هبات الطبيعة الجديرة بالمدائح. تشدُّ الشجرة قامتها لتشكر هذا البهاء كامرأة تشكر الرجل. شجرة، امرأة، قصيدة يونانية صافية. وفي وسع الحمام، المصاب صوته بالربو والزكام، ان يطير على هذا الضوء الثابت، وان يطمئن الى سماء العودة، في وسعه ان يكف عن الهديل.. ضوء.

واحسُّ برغبة في التعبير عن فرح طارىء، مجاني، غامض. ما أشد سعادة المرء حين لا يودع احداً، ولا ينتظر احداً. كأنه لا يصحح بروفات كتاب. أمن مثل هذه العناصر البسيطة تتكون السعادة؟.. وجرس الهاتف لا يرن، فيا اجمل هذا الكسل! اغلق رواية «اسم الوردة» للايطالي إيكو، واترك نفسي لفراغ لذيذ.

لا افكر بشيء يخُرب القلب. واغبطك وانت جالس على صخرة البداية ـ الى متى تبقى البداية بداية؟ ـ سعيداً بشوكة اوسكار وايلد التي تحيل دم العندليب الى وردة، هارباً من «سالومي» ومن اضطراب مؤلف «صورة دوريان جراي»، وقابضاً على التعريف المادي الاولي للحرية: «هي وعي الضرورة»، ومسلّطاً احلام اليقظة على اساطيل البحر الابيض المتوسط... والى متى تبقى البداية بداية؟

ولكن هل استطاع امرؤ القيس فينا ـ يا عزيزي ـ امرؤ القيس الذي لا تحبه ان يوقف المذبحة وان يسقط الطائرات؟ او هل استطاع، على الاقل، ان يمنع سواه، ممن ساروا على دربه، من اللحاق بقيصر، على الرغم من انه ادرك الخيبة منذ البداية ونبّه السائرين الى ان صاحبه قد بكى...! لا تظلم امرأ القيس، يا صاحبي، وان وضعه المستشرقون مع السموأل الركيك لاسباب لا تعنيه!

رتّب العالم على هواك، ايها الشاعر القادر على الاحتفاظ بكل بداية، ومنها وهم

Twitter: @ketab_n

الشاعر ـ أعني قوته ومبرره ـ في تغيير العالم واستبدال فوضاه بنظام الصورة والايقاع. واسلم من الثلج القادم من النافذة. نعم، هناك ثلج لا يراه فتى وجهت اليه السؤال. هناك ثلج.. ثلج نحسُّ به ولا نريد ان نراه..

وهذا حسن. هذا افضل من الدفء الرخيص، المبتذل الى حد وصف الثلج بأنه دافىء، ساخن، لاهب. فالثلج ثلج يستمتع بمشهده العباد، عبر الزجاج، وهم جالسون في بيوت دافئة، الا يشبه هذا اللؤم المنافق لؤم المتفرجين علينا، عبر الزجاج والنظريات، وهم يستمتعون بالدفء والنصر؟ ونحن.. او بعضنا يتلقف الآهة الضرورية لتحسين الصورة، ونبني عليها، او منها، تخطيطاً أولياً لتأسيس جمهورية افلاطونية!

هل أسخر؟ أسخر كثيراً. فالسخرية وهي البكاء المُبطن خيرٌ من دموع الاستعطاف، لان الاجل قد امتد بنا الى ما دون أرذل العمر، الى يوم نهبُ فيه لمواساة القاتل بما حلَّ به من مصاب، هو تأنيب الضمير، حين اتقن لعبة البكاء الالكتروني على ضحايانا، فكدنا نقول له: اغفر لنا موتنا على يديك.. اغفر لنا اننا سببنا لك بعض الازعاج!..

اضحك، يا ولدي، اضحك. فليس في وسعنا ان ننساق في لغة الحزن اكثر مما انسقنا، فلنوقفها بالسخرية، لا لأن السخرية هي «اليأس وقد تهذب» كما يقولون، بل لانها لا تثير الشفقة، ولانها تنزل القاتل من منزلة الفكرة المجردة، السلطة المطلقة، الى «انسانية» تتعارض مع انسانية البشر ومع الطبيعة الانسانية، الى «انسانية» مضحكة بقدر ما هي مرعبة...

هل تعرف ماذا يُشغلني في هذه الايام؟ انه الدكتاتور، نقيضٌ ملاكك.. الدكتاتور.

اني مشغول بالدكتاتور الى درجة عيّنتُ معها نفسي كاتباً لخطب الدكتاتور!!. ما اصعب هذه المهمة، وما أشدُّ ما تثيره من متعة حين نعي انها لعبة أدبية. سأواصل كتابة خطب الدكتاتور، أليس هذا مسلياً؟

هل تساءلت يوماً عن خلو الادب العربي الحديث من شخصية الدكتاتور؟ ألأن ملامحه لم تتبلور، بعد، في وعينا، ام لاننا نخلو من طفل اندرسوني البراءة يشير الى عُرْي الملك؟. لقد فسر الكولومبي غارسيا ماركيز اهتمام الرواية الامريكية اللاتينية بشخصية الدكتاتور بقوله «ان الدكتاتور هو الشخصية الاسطورية الوحيدة التي انتجتها امريكا اللاتينية». أمن الضروري ان يتحول الدكتاتور العربي الى شخصية أسطورية لتنتبه اليه الرواية العربية الحديثة، ام اننا نحتاج الى شروط اخرى لتعامل اكثر واقعية واقل تجريدية مع سؤال السلطة؟

Twitter: @ketab_n

الدكتاتور فينا حد التماهي، شخصاً وفكرة. الدكتاتور في نسيج حياتنا، بأسلوب آسيوي كما يقول الاستشراق، سواء كان الدكتاتور «معبود الجماهير» ام «عدو الجماهير» ولكنه ما زال مغلفاً بالتجريد، لا احد يعرفه، لا احد يراه، مخبأ بأغلفة سميكة من الكوادر والمصالح والاقنعة، لانه مشغول بتأمين مستقبل مزدهر للامة تارة، ولانه مشغول بتفكيك الامة واعادتها الى مصادر تكونها الاولى تارة اخرى، ولانه دائماً متأرجح بين المصطلحات الايديولوجية المرنة وتوزعنا التلقائي والقسري على خنادق اوهامنا. الدكتاتور حولنا، بيننا، فينا.

حين انتهيت من قراءة رواية الغواتيمالي العظيم استورياس «السيد الرئيس» انتابني شعور غريب وملتبس: شعرت انني انتهيت من كتابتها لا قراءتها. كم تسحرني هذه الرواية المدمرة التي لا تُظهر الدكتاتور في اكثر من صفحتين. ولكنه منتشر في نسيج الخراب النفسي، والتدمير الذاتي، والموت الاخلاقي، الذي أشاعه في من يعملون معه، وفي تغييب الحد الادنى من العلاقات الانسانية حتى بين افراد حاشيته، وفي تحويل القلب البشري الى خِرقة..

وبالمناسبة، لم افهم لماذا استدرج صديقنا ماركيز الى القول ان هذه الرواية «رديئة جداً» رداً على قول استورياس ان ماركيز «مجرد كاتب امثال». لعل هذا التراشق بالانكسار والضغينة هو احد آثار التخريب النفسي التي اشاعتها الدكتاتورية في امريكا اللاتينية حتى على مستوى العلاقات بين الادباء الذين تفشت فيهم الدكتاتورية الادبية وهم يقاومون الدكتاتورية العسكرية.

الدكتاتور يتلاعب بمصائرنا، فلم لا نلعب بشخصية الدكتاتور بتحويله الى مضحك، كما كنا نسخر من الحاكم العسكري الاسرائيلي بتحويله الى مجرد خواجه في مطلع حياتنا الادبية والسياسية. هل تذكر تلك الايام؟ هل تذكر زاوية «من وحي الايام» في جريدة «الاتحاد»، التي تألب على كتابة قصائدها الساخرة حنا ابو حنا وتوفيق زياد وسالم جبران؟ لماذا توقفتم عن السخرية، واحتكرها شيخ شبابنا اميل حبيبي؟. وانت.. انت ألم تكن لاذعاً ورائعاً حين دفعت قرقاش الى تعيين وزير للفرح ووزير للحزن لا تفرح الناس ولا تبكي الا بأمر منهما، او لعلهما هما اللذان يفرحان ويبكيان نيابة عن الشعب!

... والدكتاتور يعيش في حياتنا، ويصوغ اسطورته التدريجية. هل خطر لحاكم امريكي لاتيني ان يُسلّط صورته على القمر بالاشعة ليؤمن الناس بنبوءته عندما يرون وجهه طالعاً من القمر. كما قد يفعل حاكم عربي؟ أفي وسعنا ان نواجه هذه الظواهر الساخرة بغير السخرية؟

Twitter: @ketab_n

حين باشرتُ كتابة خطاب الدكتاتور الاول «خطاب الجلوس» كنتُ أنوي كتابته نثراً. ولكن امتلائي بالسخرية جرني الى الايقاع. ورغبتي في الضحك جرتني الى القافية. لماذا تثير القافية الضحك الى هذا الحد؟ ألأنها تسلط الحواس على النتوء، ولأن الدكتاتور نتوء في الطبيعة؟ لا اعرف تماماً. ولكن الانسجام في غير موضعه يثير السخرية. والانضباط في موقف فوضوي يثير الضحك. أليست القافية هي اعلى تجليات الانضباط؟. وهكذا رأيت ان من المضحك اكثر ان استخدم قافية واحدة لكل «خطاب الضجر» وهو الخطاب الثاني من سلسلة خطب الدكتاتور التي لا اعتبرها، ولا اريد لاحد ان يعتبرها قصائد، بل خطباً موزونة!..

من هو دكتاتوري؟. انه مجمل خصائص الحكم العربي الفردي الاستبدادي المجافي للطبيعة، والمتجسد في حكام يتداخلون في بعضهم تداخل الصفات العامة المشتركة في فرد، دون ان احدد ملامحه الشخصية المميزة، لان ذلك قد يعرضني الى خطر استثناء آخرين، وقد يعرضني ايضاً الى مخاطر الهجاء.

وقد تسألني عن مصادر «انسانية» الدكتاتور: هل هي تعاطف خفيّ مع ما يعانيه الدكتاتور من اغتراب وعزلة وحرمان انساني؟ ام هي تضخيم عنصر تشابه مع الذات لحظة تضخمها؟ ام هي افتتان خجول بسلطة تتقاطع مع سلطة الكتابة؟

لعل مصدر الالتباس الذي تبعثه هذه الاسئلة هو ان على الكاتب ان يتقمص شخصية موضوعه. ومن شروط هذا التقمص الا يُحوِّل الدكتاتور المخلوق من لحم ودم الى آلة، فهذه الآلة تصلح لعمل الكاريكاتور لا للادب الساخر الذي يشترط مستوى انسانياً ولعل انسانية الدكتاتور هي نتاج تدخلنا وشرطها لاعادة انتاجه أدباً من ناحية، ومن ناحية اجتماعية ـ فان الدكتاتور هو من نتاج البشر، ولو كان تشويهاً لطبيعتهم البشرية!

اما الجانب الشخصي الذي لاحظته، يا عزيزي، وهو المشترك الضروري بين المؤلِّف والمؤلَّف، فان هنري برجسون يفسره في دراسته الشهيرة عن الضحك بقوله: «مهما يكن الشاعر الهزلي قوي الرغبة في استجلاء مضحكات الطبيعة الانسانية، فما احسبه يمضي الى البحث عن مضحكاته هو. ولنفترض انه اراد ذلك، فلن يستطيع الوصول اليها، اذ لا يُضحكُ في المرء الا الجانب المحتجب عن وعيه من شخصيته. ولذلك فان الملاحظة في الملهاة تجري على الآخرين، ومن هنا تتصف بالعمومية. وهذا ما لا يتوفر لها حين تجري على الذات. لانها وقد استقرت على السطح لن تبلغ من الاشخاص الا غلافهم. وعند الغلاف يتماس الناس، ويكون من الممكن ان يتشابهوا»..

Twitter: @ketab_n

لنضحك قليلاً مع الدكتاتور وعلى الدكتاتور. ومهما كان الاختلاف الايديولوجي بين انواع الدكتاتورية صحيحاً فإن الدكتاتور ـ في علاقته بالناس وفي عزلته ـ هو الدكتاتور. والدكتاتور يُثير الرعب والسخرية معاً. وساعات ما بعد الظهر هي وقت السخرية. سأودعك الآن لاكتب احدى خطب الدكتاتور، فقد اطلقت عليه قافيتي، كما اطلق هو عليّ نباح كلابه.. وكُتابه.

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٩/٩)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إضحك إبك!

● أخي محمود،

بين تكتكة الآلة الكاتبة في الغرفة المجاورة وهمهمة المروحة الكهربائية لصق مكتبي وهدير محرك الديزل على الشارع المحاذي وخشخشة الاوراق المضطربة على حامل التلفون ودعاء جارتنا الساخطة على ابنها العفريت بانقصاف العمر فوراً وحالاً وبلا فرصة لأمنية أخيرة.. بين كل هذا وفي غمرة سمفونية كاملة من الضجيج العصري تأتي رسالتك. احزم كل هذه المنغصات بهدوء ونظام وأضعها جانباً، طامحاً الى شيء من التفرغ لقراءتك.

قبل الرد على رسالتك اود تنبيهك الى اننا لسنا وحيدين في حديقة الأسى والتراشق بالياسمين هذه، التي امتشقناها من اضلعنا مثل آدم في طفرته الابداعية الرائعة. ان حشداً كبيراً من الناس يزيح الستائر ويطل من النوافذ المحيطة بنا منتظراً ساعي بريدنا الخاص. ومن المدهش ان بعض القراء يكتشفون في رسائلنا ويستشفّون منها أموراً لا أشك في انها لم تخطر لنا على بال، ولا بأس في ذلك.

يوم الاثنين الماضي كنت جالساً بمنتهى الوقار على كرسي الاعدام الكهربائي في عيادة طبيب الاسنان. وبينما انا اغلي وأنضح في ألم الاسنان كان الطبيب ومساعداته ومرضاه ذكوراً واناثاً، طوالاً وقصاراً، شقراً وسمراً، مدنيين وقرويين، كانوا جميعاً اشبه بجوقة إنشاد مدرسية او بكورس كنسي يحدثونني باهتمام اكيد وبلهفة منقطعة النظير عن انطباعاتهم الخاصة بشأن هذه الرسالة او تلك ويسألون ويعقّبون ويحتارون، وانا اواصل الجلوس بوقار على كرسي الاعدام علاجاً حتى الموت، محدقاً في وجهك الهيتشكوكي لاعناً اجداد اجدادك على هذه الورطة: ولا بأس. ثم انني اوصلت هديتك الى تلك الفتاة التي ما زالت تحلم بأنها عدلت صورتها على جواز السفر بحيث اصبحت مطابقة لصورتك، وبعملية التزوير البريئة هذه اتاحت لك العودة الى الوطن وبقيت هي في بلاد الغربة منتظرة الفرج.. من مؤتمر القمة: (مورفي ـ بيريس ـ مبارك؟!).

Twitter: @ketab_n

وماذا اقول؟ نحن يا صديقي لا نُحسن التمثيل، ولا نملك قوة المهرج الحقيقي. ولئن صعدنا خشبة المسرح فلن نجد هناك سوى بيدائنا الشاسعة، نتوسط فضاءها ونتشظى على مشهد من النظارة المأخوذين بانفجار الشرايين وانتصاب اصابع اليدين مثل شجرة عارية.

لا يا صديقي، نحن لا نُحسن التمثيل، ورسالتك الاخيرة تسجل هذه الحقيقة المبهجة في نهاية الامر. نحن مزجوج بنا في مساحة ما بين الملاك والدكتاتور، نقترب من هذا فيشتتنا ذاك، نضطرب قليلاً وقد نضيع قليلاً. ولا نعثر على انفسنا الا في القصيدة. ولماذا تنفي صفة القصيدة عن «خطاب الجلوس»؟ لماذا تعطي متنفساً غير مبرر لخصوم الشعر؟ لماذا تتيح لهم الوهم بأنهم يحاصروننا بينما هم يزحفون حائرين على اطراف الغابة عاجزين عن اقتحام مغاليقها العصية الا علينا؟ وهل ننسى ان نظرياتهم الشعرية ليست سوى سيور في حذاء الدكتاتور؟

اعجبتني مهنتك الجديدة، كاتباً لخطابات صاحب السيادة والجلالة والسمو. «اضحك يا ولدي اضحك». ما اجمل ان يصادق المرء احزانه ويؤاخي سخريته، في هذا الزمن الذي ما كنا نُؤثر ان يمتد بنا، الا انه يمتد ويمتد، ولا حياة تُنصف ولا موت يُسعف.

ها أنذا اتأبط ملاكي فتأبَّط دكتاتورك وتعال معي نتفرج على النفس البشرية.

ان تعبيراً مثل «النفس البشرية» يوحي تلقائياً بالمغازي الايجابية التي تنسجم اصلاً مع اللفظتين في حالة الانفصال: «النفس» و «البشرية». وفي هذا الايحاء دليل على فاعلية التراكم التربوي والتثقيفي لصالح هذا المفهوم العام. ومما يلفت النظر حقاً ان هذه الفاعلية لم تتأثر كثيراً بالأدلة المناقضة المتوافرة على امتداد التاريخ، وفي التاريخ الحديث حصراً. وحتى لا أُؤخذ بالانانية والاقليمية.. فإنني انصرف قليلاً عن تجربتنا نحن الفلسطينيين، التجربة الساخنة سخونة الدم الطازج، والتي اثبتت الآن في هذا الوقت، في هذه اللحظة، ان «النفس البشرية» تستطيع الخروج في تظاهرة من مليون انسان الى شوارع مدينة ما جراء لعبة كرة قدم، بينما تنهال شرطة «النفس البشرية» في المدينة ذاتها بالهراوات وبالغاز المسيل للدموع على بضع نساء يتظاهرن احتجاجاً على مذبحة صبرا وشاتيلا.

منذ عشرين عاماً، على وجه التقريب، قرأت كتاباً عن الأرمن. ومن المفارقات التي تميز حياتنا ان الكتاب كان باللغة العبرية وقد ترجمت منه بعض القطع الشعرية الأرمنية الى اللغة العربية ونشرتها آنذاك في احدى الصحف المحلية.

Twitter: @ketab_n

وأمس مساءً فرغت من قراءة كتاب جديد عن المأساة الأرمنية لكاتب عربي فلسطيني اسمه الياس زنانيري. وازاء الشهادات المقشعرة الواردة في الكتاب والتي رواها شهود عيان وبعض الناجين من المذبحة، وجدتني متورطاً مرة اخرى في مسألة «النفس البشرية» هذه والايحاء التلقائي بمغزاها الايجابي. ان تلهي الجنود بقذف طفل الى الاعلى واستقباله برؤوس سنجاتهم، وبقر بطون الحبالى، واغتصاب امرأة نفساء، حتى الموت، واصطياد الشعراء وسحل المفكرين، كل هذه الفنون الكامنة في النفس البشرية لم تبدأ عند جنكيز خان وتيمورلنك ولم تنته عند طلعت بك وأدولف هتلر.

و «النسيان» الذي نعتبره، بحق، نعمة من الطبيعة على الانسان، ينبغي ان نعتبره، وبحق، نقمة على الانسان ومن الطبيعة نفسها. وقد ادرك السفاح المحترف ادولف هتلر هذا السر، فحين اصدر اوامره الى فرق الموت بإبادة جميع الناطقين باللغة البولونية، اختتم أوامره هذه بعبارة ذكية: «على اية حال، من يتذكر اليوم تصفية الأرمن؟».

«اضحك يا ولدي اضحك»... وانظر اي مطبّ هو النسيان هذا؟ وكيف انه قابل للتكيف ومهيّأ لان يصبح ستاراً من الدخان يُخفي وراءه نيازك الجنون المنفجرة في اعماق النفس البشرية؟

الا ان الذكاء ليس وقفاً على الجزار. انه في متناول الضحية ايضاً. واليهودي الذي رفع شعار «لو نشكاح فلو نسلاح» (لن ننسى ولن نصفح) كان يدرك انه يمارس الانتقام بمجرد طرح الشعار ذاته، لانه يفوّت على الجزار فرصة التمتع بنعمة النسيان ـ نقمة النسيان. ولم يكن الفلسطيني اقل ذكاءً فقد سارع هو ايضاً الى رفع شعار «لا نسيان ولا غفران»، غامزاً لامزاً، مطيحاً بتنينين في ضربة واحدة.

هكذا اذن. يتداخل الارمني في التركي واليهودي في الارمني والفلسطيني في اليهودي واليهودي في الالماني والالماني في الارمني... تتداخل الفصول، تختلط المقاييس، يمتزج الدم بالسخرية، تتشابه الدمعة والوردة. ويتطابق الموت والحياة في اورجيا صاخبة متفجرة، وننبجس من كل هذا مصعوقين مبهورين مشحونين بالسخط المتردد كالارجوحة بين ضفاف النور والظلام. فما الذي اصابنا ايها العزيز محمود، ما الذي اصابنا في هذه الايام؟ لماذا اصبحنا فرائس سهلة للهواجس التي نتشبث بها مثل قشة الغريق؟ هل تذكر هاجس البحر عندك وعند حبيبنا معين؟ هل

Twitter: @ketab_n

تذكر هاجس الصحراء عندي؟ الم تلمس هاجس الصليبيين عند اميل حبيبي؟ وها انت اليوم مسكون بهاجس الدكتاتور كما يتلبّسني هاجس السقوط. ماذا أصابنا؟ أهو الخوف ام هي الجرأة؟ اهي الرؤية ام انها الرؤيا؟

ماذا أصابنا؟ إضحك يا ولدي إضحك... إبـكِ يا بُني إبـكِ!

أخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٦/٩/١٦)

Twitter: @ketab_n

حاضر سابق...

● عزيزي سميح،

الى اين تأخذنا هذه الرسائل، هذا النص المفتوح على البداية والنهاية. ما البداية وما النهاية؟ وما قيمة هذا السؤال؟ انها سجل سيرة عفوية، على مرأى من الناس.. كتابة على الارصفة والحيطان.. شكوى النفس لاختها النفس. لا تخطيط لها ولا منهج، وان كنت اتدربُ فيها على اختبار ما بلغتُ من فطام.

هل هي شبه ورطة جميلة؟ لا أغبطك على ما انت فيه، من طبيب اسنان لا يملّ حفر الاعصاب، الى قارئات لا يضجرن من التأويل. ولكن، حين ينتهي مفعولُ المخدر، وتعود الى بياض ورق لا ينتهي كأنه سفر العدم، فانك ستعثر لا محالة على جدوى هذا العبث، اعني على جمال هذا العذاب المتحول الى سعادة لدى من لا تعرفهم...

لا يُنقذنا غير من لا نعرف. ولسنا ضروريين الا للمجهولين. ما هذه المفارقة؟

لم يخطر على بال آرثر ميللر، عندما صبَّ عذابه الشخصي في مسرحية «ما بعد السقوط»، انه سينقذ كاتباً مصرياً من السقوط هو صديقنا الكبير يوسف ادريس الذي قال لآرثر ميللر وقال لي، ان تلك المسرحية كانت طوق نجاته الوحيد من أزمة غم قاتلة...

ومن حق آرثر ميللر الا يفهم الحاح يوسف ادريس عليه بالتماسك والايمان بجدوى الكتابة، ففي وسع المريض ان يطالب الطبيب بالشفاء، بالافادة من طاقة العافية المتحولة، كما حدث لمريض القلب حين طال تنصُّت الطبيب على دقات قلبه.. طال الى درجة صرخ معها المريض بالطبيب: كفى، ارفع سماعتك عن صدري! ثم ادرك ان طبيب القلب قد مات بالسكتة القلبية. أهذا قال الشاعر: طبيبٌ يداوي والطبيبُ مريض...؟

ولم لا؟ نحن نعرف أسماء من انقذونا. ولكننا لا نعرف اسماء من انقذناهم.

وحين سألتقي في الآخرة مع السيد ميغيل سرفانتيس سابدرا، سأعترف له بان

Twitter: @ketab_n

رحلتي الثالثة مع دون كيشوته قد انقذتني من الانهيار النهائي قبل سبع سنين حين اختلفت احلامي مع ادوات تحقيقها.. واختفيت في باريس.

كما أنقذتني راهبة لبنانية في زغرتا من عبثية الكتابة حين روت لي، وفي عينيها دموع، انها شهدت سقوط القدس في حزيران الشهير، وانها عالجت مقاتلاً جريحاً كانت وصيته الاخيرة، قبل استشهاده، ان يحصل على مجموعة من قصائدنا!!

واليوم... اليوم، اصبتُ بالكآبة من وحشية ما يكتبه عني بعض «مواطني» مقاهي دمشق، المهاجرين من مقاهي بغداد وبيروت، فأسعفتني رسالة من قارىء مجهول يخبرني ان رسائلنا المتبادلة قد امدته بحافز جديد للحياة. ومكالمة هاتفية من زميلة في المدرسة، لم اسمع منها وعنها منذ سبع وعشرين سنة، تطالبنا بأن نواصل صيانة سعادتها.

أليس في هذه الطاقة المتحولة ما يزودنا بالطاقة؟ فلتبعد عنك، يا عزيزي، هاجس السقوط، لان هنالك من ينتظرك ويشعرك بأنك ضروري، ضروري، ضروري.

ولكن، ما هي رسالة هذه الرسائل، والى أين تأخذنا؟

اما رسالتها فلم احسب لها حساباً ما دامت تُشبع هذا التوق الجميل الى نداء شطري البرتقالة، وتحكُّ حميميّة تفتقدها الناس في خطاب هذه الايام. وما دامت قادرة على طرد الذباب عن طعام روحينا فهي مفيدة... فأنا لم اعرف، مثلاً، ان قصيدتك الجميلة «اليك هناك في بيروت» كانت تستخدم سلاحاً لقطع رأسي، حين روج البعض شائعة تقول ان القصيدة تخاطبني، حتى اوضحت في احدى رسائلك لهم، لا لي، انها كُتبت في اثناء اقامتنا المشتركة في حيفا..

هل ترى الى اي حد كنت صادقاً حين اشهرت حيرتك الباكية ازاء مصطلح «النفس البشرية» التي تحمل في نسيج غاباتها الداخلية ما يحتاج دائماً الى تهذيب، والى مناخ أفضل عافية من مناخ القيم السائدة المفتقرة الى الحد الادنى مما اصطلحنا على تسميته القيم الانسانية بمعناها الايجابي؟ وما يجعل الملاحظة اشد ايذاء هو ان هذا المناخ ليس نتاجاً لجهد الاعداء بقدر ما هو انجاز اصدقاء...

«قل شائعتك وامش» ـ هذا هو شعار العاطلين عن التعايش مع زمن احلامنا المغدورة. هل تذكر تلك الفرية الدموية التي روجها خصومُ فكرنا وشعرنا، قبل عشرين عاماً، يوم سافرنا الى صوفيا لملاقاة الاخوة الذين انتظرناهم ثلاث حروب فازدادوا بعداً؟ هل تذكر كيف كتبوا انهم شاهدونا ـ انت وانا ـ نرفع العلم الاسرائيلي في شوارع صوفيا؟ لقد ضحكنا في البداية من سماجة النكتة، ثم بكينا حين ادركنا ان تلك الفرية السوداء، ما زالت تلاحقنا الى الآن.. وتجد من يصدقها!

Twitter: @ketab_n

ولكن، ما العمل غير العمل. ولا عمل لنا غير تحويل الوجع الى طاقة قد تصل، وقد لا تصل، الى القادرين اليوم وغداً على تحويل القصيدة الى قبضة وخطوة. وما علينا الا ان نتحمل ما يطالبنا به بعض الناس من تعويض عن الانهيارات لا نقدر عليه، وكأننا اكثر من شاعرين! قل: هو الحب الذي يطالبك، ولا تُصغ الى مرضى الروح. فهل يستطيع احدٌ منا حقاً ان يرتدي زيّ الدكتاتور او الملاك، بينما لا نملك ان نكون لا هذا ولا ذاك، فلسنا سوى ضحية مقسومة الى اثنين، ضحية تشير الى حدود المشهد، وترفض الدفن والنسيان...

نعم، يا عزيزي، لن ننسى ولن نغفر... لا غفران ولا نسيان. نعم، يا عزيزي، سننسى وسنغفر حين نصبح مؤهلين للمغفرة والنسيان. فالنسيان هو نعمة المنتصر. والغفران هو رحمة المقتدر. اما الآن: فلا غفران ولا نسيان.

ومن النسيان ما ينتشلك من قاع الهاوية، ما يصعد بك الى فمها. ومن النسيان ما يوقعك في الهاوية. وحين نتوغل اكثر في جدلية الكتابة نعرف الى اي حد يجري تبادل الأدوار المختلطة بين الذاكرة والنسيان. ونلاحظ ان ابتعاداً ما عن المشهد، وانفصالاً ما عن العاطفة يزودان الكتابة بأحد عناصر عملها وهي الذاكرة التي تختار الماضي مرجعاً لتوثبها وارضاً للامتداد والحنين. أليس في هذا التذكر شيء من نقيضه؟ فماذا بعد ان نتذكر... ماذا بعدما نفرغ الذاكرة من مخزونها؟

لا أتكلم، هنا، عن الذاكرة الجماعية، بل عن الذاكرة الفردية الساعية الى انتقاء ماضيها لتستوعب تاريخها في لحظة السؤال الكبير عن المصير..

هل كبرتُ كثيراً، ام ارتطمتُ بجدار الافق المسدود، لاعيش في هذه الفترة من حياتي ماضيَّ كله الى درجة اصغي معها بكل خلاياي الى ما نسيت، او اوهمني ايقاع الحاضر السابق ـ اذا جاز القول ـ بأنني قد نسيت. لم اكفُ البارحة عن محاولة شاقة لتذكر اسماء النباتات والاعشاب والزهور البرية التي زوجت لغتي بالطبيعة. وحين نُبش اسمٌ ما، كامن فيَّ، تدفقت نافورة التفاصيل مني لأدرك انني ثرثار حتى مطلع الفجر. ما سرُّ انبثاق هذا الماضي؟ أهو البحث عن طفولة المكان، ام هو الشبق لملاقاة مكان الطفولة، ام هو الاقتراب من سؤال سابق: ما البداية.. ما النهاية؟

ربما كان ذلك هو السبب الذي يؤجج فيَّ حافز الكتابة اليك. الحافز. الحافز. إذا أنّ الحافز لان الصخر وامتثل لريشة عصفور، فكيف لا يلين امام انين الحديد. معك، على جسرك، التقي بما افتقد، اسيطرُ على الغياب، واستولي على البعيد. وفي هذه العادة التي اورطك فيها كما تقول اخاطب ما لا يخاطب الا بالجنون، فليس من حق الانسان ان يكتب رسائل الى نفسه الا اذا تواطأ مع احد. وانت تتواطأ معي لترتاح

Twitter: @ketab_n

من وهم الخارج، فقد حملتُ عنك الحقيبة والخيبة. ولتحتمل عذاب الداخل، فقد حملتَ عني السجنَ وأمسكتَ بنافذة الافق، دون ان يتمكن احدنا من ردع الثاني.

فهل اجد فيك الماضي؟ لا تظن ذلك تماماً، فلست بمرآتي بقدر ما انت مرجعيةُ قلب لم يتكيف مع بلد او مع احد. لذلك تأخذني الرسائل الى ما كان، وربما الى ما سيكون. ما البداية.. ما النهاية؟ تكلما عن ماضيكما فقد صار ذلك ضرورياً ـ هكذا يطالبنا الكثيرون. لا اعرف ان كانوا يعنون الماضي أم يعنون شكل الحياة هناك. فقد ترابطت المفردتان ـ الماضي وهناك ـ لتشيرا الى مسار واحد هو استحضار طبيعة ارض ومجتمع من خلال تكوين شخصي. كيف يطل الخارج من الداخل على الداخل. وكيف يطل الداخل على الخارج الذي لم يخرج.

اكتب عن الماضي، اكتب لي عما تكتب الآن...

اما انا، فقد فرغت هذا الاسبوع من كتابة الصياغة الاولى لكتاب مجنون، نثر وجنون، شعر وجنون، سرد وكوابيس وبطولة وجنون، وهو تاريخ يوم واحد من ايام آب ١٩٨٢ في بيروت، وسأبدأ في هذا الخريف بكتابة الكتاب الذي يلاحقني هاجسه منذ اربع سنوات، كتاب البيوت التي عشت فيها، في الوطن والمنفى، منذ البيت الاول الى الآن. هو شيء من سيرة البيوت الذاتية، اكثر من خمسة وعشرين بيتاً، ولا بيت لي، لا عنوان لي. هل تعلم، يا صاحبي، ان العبرانيين قد تعلموا بناء البيوت من اجدادنا الكنعانيين؟ يا للمفارقات الساخرة! وهل تثير فيك هذه الملاحظة شيئاً من التأمل المرّ.

هل هو، مرة اخرى، بحث عن الماضي، عن مكان الماضي باعتباره وطن الحلم؟ لا اعرف. ولكنني سأكتب... سأكتب.. وسأكتب..

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/٩/٢٢)

Twitter: @ketab_n

اخطاء وخطايا

● اخـي محمود،

وعلى ذكر رسائلنا، فانني اتساءل احياناً عن طير اسود يخترق جبهة القارىء حين يعـترضـه حاجز الخطأ المطبعي. تتحدث في احدى رسائلك عن «الكتابة الحرون» فيقف القارىء ازاء «الكتابة الحروف».. ولانه يتوسم فيك العمق والجدية فانه يحار في امر السر الكامن وراء تصريحك الهام والفلسفي: «الكتابة حروف»!

واحدثك في احدى رسائلي عن تابيس وراهب توبتها، فيلتقي القارىء بتابيس وراهب تربتهـا.. واتصـور القارىء التعيس عاجزاً مكموداً حيال اكتشافه مدى الجهل الذي يتخبط فيه فلا يعلم ان تابيس هذه كانت تملك تربة ما، وان لهذه التربة كاهناً للاعتراف.

وتعـود بي الاخـطاء المـطبعية الى ايام زمـان، ايام كنا نحرر الجريدة ونراقبها ونصححها ونبيعها دون ان نقبض اثمانها من القراء الكرام فتتراكم علينا الديون وتحسم من مرتباتنا الزهيدة اصلاً، فلا نعرف كيف نبدأ الشهر وكيف ينتهي بنا.

واقول لك في احدى رسائلي السابقة: أكتب الي... أكتب اليك! بضم الهمزتين وبمعنى ان الكتابة الى صديق، والكتابة بحد ذاتها، تشكل في خلاصتها نوعاً من مخاطبة الذات، تساعدنا على اكتشاف انفسنا من خلال اكتشاف الآخرين والكشف عن الاشياء التي تتناولها هذه الكتابة.

وصلتك الدعوة، الا انها وصلتك بتعديل ما، بتعديل طفيف وغير مخيف. وصلت بضم الهمزة الاولى وبفتح الهمزة الثانية، وبمعنى الاشتراط «أكتب الي.. أكتب اليك! ولا اشتراط ولا يحزنون، فنحن في عصر المفاوضات المباشرة بلا قيد وبلا شروط مسبقة، وكان الرب في عون المؤتمر الدولي!

تذكرني في رسالتك الاخيرة بما كنت اؤثر ان انساه، بتلك الحملة القذرة التي شنتها علينا عناصر مشبوهة في العام ١٩٦٨ يوم خرجنا الى صوفيا مفعمين بشهوة العناق فعدنا وفي ظهرنا سكين الشائعة الدامية. وما دمنا نذكر فسنذكر دائماً وابداً تلك

Twitter: @ketab_n

الوقفة النبيلة التي امتشقها آنذاك رفيقنا وحبيب شعبنا وشهيد قضيتنا غسان كنفاني، الذي لم ينتظر التفاصيل بل ادركها بحسه الوطني السليم فهبَّ مدافعاً عن «جناحي الشعر المقاوم» كما لقبنا، مشكوراً الى دهر الداهرين.

وماذا اقول لك ايها العزيز محمود؟ الشائعة سلاح خطر وحقيقي، يكاد المرء يقف عاجزاً ازاءه. وقد اكتويت بـه شخصياً على جلدي ونخاعي وروحي.

وأدرك خطورة هذا السلاح عدد من عتاة الدعاية والتحريض، حتى ان غوبلز وزير الاعلام الهتلري كان مؤمناً كل الايمان بأن تكرار الشائعة يحولها الى حقيقة ذات اثر مادي لا يقهر!

وتشكل الشائعة عنصراً جوهرياً في المذهب الديماغوجي الذي تعتمده مجتمعات الاستغـلال والقهر والبطش. ففي الولايات المتحدة الامريكية يمارسون التهديد بالشائعات على النحو التالي: «سأقول للعالم ان اختك عاهرة، واذهب انت لتقنع العالم بأن لا اخت لك!».

ومما يزيد من خطورة الشائعة ايمان الناس بتلك الحكمة القديمة «لا دخان بدون نار!» فماذا يبقى لنا بعد ذلك غير محاولة الاحتراس ومحاولة الدفاع ومحاولة الاقناع ومحاولة العزاء؟

انا شخصياً تعلمت درساً في العزاء ذات يوم من ايام العام ١٩٦٦. كنت واقفاً مع الشـاعـر جورج نجيب خليل في شارع هنفيئيم (الانبياء) في حيفا، نسلم ونسأل ونتساءل، حين انفجرت على مقربة منا مشادة كلامية حامية بين رجل يهودي يحرس «مكتب مطاردة النازيين» القائم في العمارة المجاورة وبين فتى عربي يبيع التين في اكياس بُنية تميل الى الكاكي.

فجأة صاح الحارس اليهودي: انصرف من هنا ايها العربي القذر! ولما كنت آنذاك في عـز الشباب لم اتمالك حيتي فتدخلت شاتماً لاعناً مهدداً.. وتجمهر المارة، بعضهم بقوة حب الاستطلاع، وآخرون بدافع المحاولة لاصلاح ذات البين، كما يقال، وكانت هنـاك سيدة عجوز تحمل سلاً من البلاستيك الازرق مملوءاً بالخضار، فدنت مني وسألتني بالعربية وباللهجة المصرية اللطيفة: «ايه جرى؟ فيه ايه يا ابني؟» فأجبتها محتداً حانقاً: «هذا الحيوان يشتم الفتى بعربي قذر!! فما كان من تلك السيدة العجوز الا ان ربتت على كتفي بحنان وهي تقول: «آل له ايه؟ آل له عربي قذر؟ معلش يا ابني، كله بيروح في الغسيل!!» وتلاشت عن عيني سحابة الغيظ.. وابتسمت لها: شكراً يا سيدتي شكراً.. لا بأس، كله بيروح في الغسيل!

وانفضت الجمهرة وانفضضت حاملاً في قلبي وعقلي حكمة تلك السيدة العجوز

Twitter: @ketab_n

بسلّ خضارها البلاستيكي الازرق..

ماذا اقرأ في هذه الايام؟ وماذا اكتب؟

اقرأ عن الارمن والقضية الارمنية، لاصون ايماني بوحدة الانسان وشمولية التاريخ، ولاكتشف كتفاً اخرى اريح عليها رأسي ولاستحضر رأساً اخرى اريحها على كتفي..

واقرأ كتاباً عبرياً رديئاً اسمه «عربي جيد»، وهو في خلاصته تسجيل لتخبطات مثقف يهودي يحاول التملص من مواجهة الحقائق التاريخية في بلادنا ويعثر على خلاصه الموهوم في غرفة ما في باريس، لا من منطلق الجرأة الادبية والسياسية بل بدافع العجز عن الاعتراف وتسمية الاشياء بأسمائها الحقيقية.

ورغم نصيحتك الاخوية الطيبة بالتخلص من هاجس السقوط، فانني منغمس في مطاردة هذا الهاجس الذي يطاردني، وفي هذه الاثناء اتابع الكتابة التي ستكتمل كما اعتقد في شكل سريّة.

وقبل ذلك تورطت في عمل قد يكون في المستقبل عملاً روائياً.

ولأنني لست روائياً محترفاً فسأقدم في نهاية المطاف شبه اوتوبيوغرافيا تحكي جانباً من تجاربي الشخصية في هذه الحياة التي تشبه تناول ملعقة سم صغيرة ثلاث مرات يومياً. وعلى غير عادة، او على غير عادتي فقد بدأت بعنوان هذه المحاولة الجديدة: ملعقة سم صغيرة، ثلاث مرات يومياً.

زرت أهلك بعد عودتي، وقابلت البنتين اللتين كنت تحصيهما كل يوم عدة مرات. لقد سعدتا جداً بزيارتك وهما مع الاهل جميعاً بخير. نصوحي متحمس هذه الايام لزيارتك والله اعلم.

ما اخبارك انت؟ كيف الاصدقاء واحداً واحدة بلا استثناء؟ أكتب الي. أكتب اليك!

اخوك سميح القاسم

(الرامة ـ ١٩٨٦/٩/٢٧)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هو... أو هو

● عزيزي سميح،

السيدة شيرلي هوفمان امريكية ـ اسرائيلية تعيش في مدينة القدس. التقيتُ بها، منذ اسابيع، في مهرجان الشعر العالمي في روتردام. قرأتْ شعراً عن أزقة القدس، وهي قرأت شعراً عن حجارة القدس. قرأتْ عن تيهنا الجديد، وهي قرأت عن تيهها القديم. ولكنها عرفت ما لم اعرف. قالت ان اسباب الحروب الدائمة في الشرق الاوسط هي غيرة النساء، الغيرة التي اندلعت نارها بين جدتهم سارة وجدتنا هاجر...

ضحك الجمهور الهولندي، واشتد ضحكه حين تصافحنا على المنصة، وقلت لها: اللعنة على جدتك وعلى جدتي ايضاً.

لم تكن مشكلة السيدة هوفمان الوحيدة هي انها جاءت لتمثل الشعر العبري الحديث دون ان تفقه شيئاً في اللغة العبرية، اذ في وسع الشعر العبري ان يكون شعراً انجليزياً!

ولكن مشكلتها التي لا يعرفها الجمهور الهولندي هي ان ابنتها، اليهودية الامريكية، متزوجة من شاب هولندي مسيحي. وحين سافر العروسان الى القدس تعرفا على شيخ مسلم سرعان ما ادخلها في الدين الاسلامي. وهكذا فإن احفاد السيدة هوفمان اليهودية سيكونون مسلمين هولنديين امريكيين اسرائيليين.

قلت لها مواسياً: هذه هي الحياة، وتلك هي القدس!

قالت: هذه هي الحياة. وماذا في وسعنا ان نفعل سوى الدفاع عن موضوع السلام!..

تذكرت السيدة هوفمان، يا عزيزي، بعدما انتهيتُ من قراءة الكتاب العبري الذي أشارت اليه رسالتك «عربي جيد». وهو كتاب محير، لانه يلعب بالجرح الانساني بشفرات حلاقة صدئة، ويقدم المأساة في صورة «البورنو». انه محير على الرغم من صحة تقويمك العام له، فليس من الضروري ان يكون ادباً جيداً ليحرك الاسئلة التي يثيرها عبء هاتين الهويتين في شخص مشطور الى: عربي ويهودي، دون ان

Twitter: @ketab_n

يكون عربياً ودون ان يكون يهودياً..

الكاتب يوسف شرارة ليس يوسف شرارة. انه اسم مستعار لمثقف اسرائيلي منبوذ، ولد من ام يهودية ومن أب عربي ـ هكذا يقول ـ انتهت به رحلة البحث عن اسم وعن هوية الى غرفة باريسية كتب فيها هذا الكتاب ـ الاعترافات بلغة عبرية طليقة العبارة وصريحة البذاءة معاً. فلماذا اختار اللغة العبرية ليكتب سيرة حلمه المكسور اذا كان نصفه العربي عربي الثقافة؟ هذا السؤال اياه سيصير سؤالاً معكوساً لو كتب المؤلف سيرته باللغة العربية: لماذا كتبها بالعربية ما دام نصفه اليهودي عبري الثقافة؟

لن ننتهي من هذا اللغز. ولكنني اشير اليه لان اختلاط هويته وانقسامها ناجمان عن اقصاء واع للوعي من عملية البحث عن الذات. ولانه لا يقدم سؤال الهوية على مستوى سؤال الانتماء الثقافي، بل يُحيله الى سؤال العرق ليسمح لتخبطه بأن يواصل متعة التخبط. فهو عربي لان دم ابيه العربي يسري في عروقه. وهو يهودي لان امه يهودية. ولكنه اسرائيلي دائماً. اسرائيلي بلا تردد.

لم يقنعني عذاب يوسف شرارة بأنه ضائع الى هذا الحد بين هويتين متوازيتي التجاذب. فالعربي فيه لا يتقدم بأكثر من سؤال الضمير اليهودي الشاهد على إثم ولادة كان ضحيتها الآخر. العربي فيه هو غموض الموقف اليهودي الاخلاقي تجاه «آخر» ليس من الضروري ان يتحدد من سلالته العرقية. لذلك حفلت سيرة المفارقات والتناقضات بترميز نمطي لا ادري الى أي حد يصلح لتقديم الشهادة او الرواية. وما دام المؤلف قد اختار الاختفاء وراء نص أدبي، فلم يعد من واجبه ان يطالب القارىء بمعرفة الحقيقة عنه وعن أمه وأبيه الا كما تقدمها «الحقيقة الادبية»..

هذه الحقيقة الادبية تقول ان يوسف شرارة هو يوسف روزنسفايغ الغاضب على مجتمعه ومن عدل مفقود على أرض شهدت دولاً وغزاة وشعوباً وبقيت هي الارض. حين بلغ سن التجنيد الاجباري في الجيش الاسرائيلي المكلف بالدفاع عن الدولة اليهودية رفضوا أن يقوم بواجبه تجاه الوطن لان أباه عربي. وامام توسلاته الباكية قاله له الضابط: «نحن لا نجندك في الجيش، وذلك لمصلحتك... فأبوك عربي له أسرة كبيرة في العالم العربي، فهل تستطيع أن تحارب أقاربك وأن تقتلهم؟».

لقد دفعت المؤسسة الاسرائيلية يوسف خارجها، وذكرته بأن أباه عربي، فانخرط في حزب يرفع شعار «الاخوة العربية ـ اليهودية» لكنه «اشمأز» من «مثالية» الحزب و«سطحية» شعاراته، فخرج من اداة العمل السياسية الساعية الى الاصلاح، خرج

Twitter: @ketab_n

الى ذاتـه المضـطربـة، فخـرج من التـاريخ... كدس الحقائق والوقائع والثقافات والحضارات. خلط تاريخ العرب وتاريخ اليهود والسلالات والمذابح والحروب في طبيخ بشري ليكتشف انه «وليد التاريخين المتصارعين، هنا والآن، وضحيتهما في آن، على ارض يخوض شعبي حرباً دائمة ضد شعبي الثاني، ضد دولتي وضد دُولي. ان عكا فيَّ. والمانيا فيَّ. وارض اسرائيل وفلسطين. وانا في كل هذه الامكنة ولستُ في أي مكان».

لقد جعلوا منه عربيَّ اليهود... وحين انتقل من تل ابيب الى حيفا مُتخلياً عن صديقته اليهودية دينا ليعيش مع ليلى العربية، يحوله العرب الى يهودي العرب. يقول ان عربه قد خيبوا أمله، اذ قال له قاسم: «ماذا نتوقع من يهودي؟ ان تكون أمـك قد ضاجعت عزوري لا يجعلك جزءاً من قصتنا». ولكنه لم يبحث عن حـل لاسئلته الا في مكان واحد. قال له صديقه: «لا في سرير دينا ولا في سرير ليلى ستجد حلاً للمشكلة اليهودية العربية».

ويلخص حواره مع عربيتـه ليلى مفهـومـه القـاصـر «لصراع الحقين» العربي واليهودي: «أنت على الاقل تجدين مكاناً تهربين اليه، لك أم أخرى، أما أنا فلا. لك اثنتان وعشرون دولة عربية. تنازلي قليلاً: لماذا تريدين قطعة الارض هذه، الارض الصغيرة الحقيرة؟ أنت تنتمين الى الامة العربية الكبيرة. لقد دُستِ على اليهود ألفي سنة. فلتعطي شيئاً من أرضك لأمي».. قالت ليلى: يظنون انك يهودي. قال: اذن، من أنا؟

لم يكن غير ما كان. وهكذا فهم الانتصار العسكري الاسرائيلي «كان على احدكما ان ينتصر: انت او انت؟»! فهل استطاع يوسف ان يفتح للآخر فيه خطاب الدفاع عن حقـه خارج المنـبر الصهيوني الـذي يُرسل العرب الفلسطينيين الى ذويهم في الخارج؟ وماذا لو كانت أمه يهودية، ابن قوانين هذه القربى التي تجر الوليد الى الحيرة امـام الاختيار الصهيوني، كأنـه يقول ما كـفَّ العرب عن قوله: ان كل يهودي صهيوني! لان الصهيونية ليست وراثـة، بل هي اختيار فكـري وسياسي، فلماذا رفعها الى مستوى السلالة، واذا كان قد رفعها الى هذا المستوى، فلماذا يدعونا الى البكاء على حيرته!

وحين قرر الهروب من لعبة اليهودي والعربي، من دخول اليهودي عربياً في فمه ليخرج يهودياً من قفاه والعكس صحيح ايضاً، ليختار الهوية الثورية الفلسطينية في بيروت، لم يشاهد في بيروت غير ما يبرر عودته الى جلده الحقيقي، فقد قال له عمه هناك: سنقضي على هؤلاء الفلسطينيين. سأل عمه: وانت، ألست فلسطينياً؟

Twitter: @ketab_n

فأجاب: تركت عكا قبل اربعين عاماً. أنا مسيحي لبناني. وعندما هاجرت لم تكن هناك فلسطين. هل تعلم اننا ننتظر الجيش الاسرائيلي لينقذنا!.. وهكذا اقتنع يوسف بأن الفلسطينيين ليسوا مقاتلين من اجل الحرية، ولكنهم قتلة. وهرب من بيروت الى باريس. وهكذا استطاع ان يخلص من العربي فيه دون ان يخلص من اليهودي فيه. لقد عجز عن ان يكون عربياً جيداً، وعجز ان يكون يهودياً جيداً. ونجح في ان يكوّن شخصية سيئة!

من هو العربي، يا عزيزي سميح، في الوعي الاسرائيلي العام؟ انت ادرى مني بهذا الفولكلور العنصري. ولكنني جمعت لك هذه التعريفات: العربي الجيد هو العربي الميت، العربي هو الماكر المخادع الكذوب. العربي لا يفكر الا بنهود اليهوديات. العربي هو الذي يهين المرأة. العربي هو الذي يحلم بمضاجعة الجندية الاسرائيلية، وبمضاجعة بدلتها العسكرية. العربي ماهية قومية لا انسان. العربي لا يفهم غير لغة القوة. للعربي دموع كبيرة. والعربي الجيد لا يتكلم الا اذا طلبوا منه الكلام. والعربي الجيد من له حاسة فكاهة يهودية.

ان يوسف شرارة بريء من هذه التعريفات، فماذا يبقى من كتابه ومن لعبته المليئة بالدموع؟ انها شهادة مثقف اسرائيلي على ميوعته ورخاوته وعلى عنصرية مجتمعه. وبعيداً عما يخصنا، ففي الكتاب عذاب انساني يسمح للتداعي بأن يتداعى، وللمفارقات بأن تعيد تشييد مسرحها المنهار. ولكنه يقنعنا بأنه ليس في وسع احد، الآن، ان يحمل الاثنين، العربي واليهودي، في كيان واحد. كما لم يتمكن غسان كنفاني من هذا العبء في «عائد الى حيفا».. لماذا... لماذا؟؟

ألأن كتابة هذه الازدواجية، المتحاورة على زمن صراع وعلى مكان حرب، تحتاج الى زمن آخر وشرط آخر يفتحان للانساني مدى التعبير الحر بعدما يكون جرح الهوية قد التأم، ويصير من «حق» الواحد أن يكون عربياً ويهودياً بلا رموز، وبلا خيانة، وبلا هزيمة؟

ان اليهودي في العربي الآن هو الخيانة. وان العربي في اليهودي الآن هو الهزيمة. وما بين الهزيمة والخيانة لا يتقدم التعبير الادبي الا بوصفه عبثاً او كوميديا سوداء.

يا للمأساة العاجزة عن ان تكون مأساة الا في الملهاة. ويا للحق العاجز عن صياغة لغته الا خارج لغته.. ويا للضمير العاجز عن التحقق الا في قناع الضحية.

ويا عزيزي،

أمن نكد الدنيا علينا أن من واجبنا ان نقرأ ما يعنينا في الادب العبري الحديث الذي تعنينا حيرته وتخبطه، لنزداد اقتناعاً بأننا ندافع عن قضية عادلة وعن هوية

Twitter: @ketab_n

وطنية وانسانية واضحة؟ ربما... وربما. ولكن اذا قابلت ليلى التي قال لها يوسف شرارة انها «تضاجع كمومس من مستوى رفيع»، قل لها ان عندي ما افعله في أي مكان... هنا او هناك... وانني لم اقابل يوسفها في بيروت. ولم اكتب للقتلة!

واذا قابلت السيدة شيرلي هوفمان في القدس، سلم عليها وقل لها: لعنة الله على سارة وعلى هاجر!

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٦/١٠/٧)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نحن أم ابن زريق؟

● اخي محمود،

كان مطراً رائعاً ذلك الذي فاجأنا قبل ايام. ازحت ستارة النافذة في ساعة متأخرة من الليل لاستلهم الطبيعة شيئاً من الفرح النظيف تعويضاً عن الكدرة العفنة التي اشاعها في نفسي كتاب هنري ميللر «رامبو وزمن القتلة»، بترجمة صديقنا العزيز سعدي يوسف.

وكأنما بشهوة مازوكية، اغفلت الكتاب وتجاهلت المطر، عائداً الى شهقات ألبينوني المتهدجة في قلعة الالم منذ مطالع القرن الثامن عشر.

يزهد المرء احياناً في ما يبدو للآخرين كنزاً نادراً. «ان ظلت روحي، منذ هذه اللحظة يقظة، فاننا سنصل سريعاً الى الحقيقة».. هكذا يتكلم رامبو. وتلح عليه الفكرة فيلحّ في القول: «لو انها كانتْ مستيقظة دوماً لأبحرت بكامل الحكمة!».. اهو كنز نادر، هذا الذي يعرضه علينا ذلك الصعلوك الفرنسي المدهش؟ قد يكون.. قد يكون كنزاً نادراً الا انني زاهد فيه. اذا كانت يقظة الروح هي فردوس رامبو المنشود، فهي بلا جدال جحيمنا الموجود. لقد كان اخونا رامبو مرفهاً الى حد البحث عن يقظة روحه فماذا نقول نحن الموصومين بيقظة روحنا المعصومين عن ابسط مقومات الفرح: الوطن، الهواء الطلق، الشمس المشرقة حقاً، البحر الذي لنا، شجرتنا الاكيدة، بيتنا الواضح وهلمجراً...

وفوق طينتنا نبتل بالخرافات وبالسيدة شيرلي هوفمان هذه التي تتحدث عنها في رسالتك.

اما بشأن «هاجر» فانني اكتفي بالرمز. ولعلك تعلم انني اطلقت هذا الاسم على طفلتي التي لم تولد بعد. سارة شيء آخر. واكتفي بالرمز مرة اخرى: انا لا أحب السيدات المستهترات اللواتي يلعبن بأفئدة الرجال الشيوخ فيدمّرن الاسر ويشردن الامهات والاطفال. اكثر من ذلك، فانني احتقر هذا النوع من السيدات وأومن بأنهنّ في جوهرهن نساء تعيسات منكوبات بعقدة الشعور بالنقص والسادية.

Twitter: @ketab_n

يوسف شرارة هو اسم مستعار ـ قناع ـ متراس ـ ملجأ، لكاتب اسرائيلي تعرفه وأعرفه. شاركنا ذات يوم لقاءات «التعارف والتفاهم» التي زخرت، كما تذكر، بالاحابيل والمناورات وتلخصت في ما يشبه حوار الطرشان. لقد غضبنا ذات يوم على الشاعرة داليا رابيكوفيتش لانها صرحت للصحف العبرية: «ذهبت الى لقاء من اجل الاخوة فعدت فاشستية!» كنا خائفين لا على الاخوة بل على لعبتنا المستمرة، حيث كان كل طرف يحاول جاهداً البرهنة على صحة وجهة نظره وعدالة قضيته، وليذهب الطرف الآخر الى الجحيم... وعلى العموم، كنا نحن الذين نذهب الى الجحيم.

ويوسف شرارة هذا رجل مرفه هو الآخر بالحرمان من «يقظة الروح».. يفلسف جبنه ويبرر جهله تارة بافتعال المثالية وطوراً باختلاق العواقب التاريخية. وما قلته في رسالتك صحيح. كان صحيحاً أمس. وهو صحيح اليوم. واخشى انه سيظل صحيحاً ردحاً من الزمن.

اخي محمود.

لم اتمكن من السفر الى كوبنهاغن للمشاركة في مؤتمر السلام «لا لأنني احب قيصر اقل بل لأنني احب روما اكثر» فغداً نفتتح مهرجان الفن القطري الثاني في ام الفحم التي اصبحت رسمياً مدينة، وما زالت في الواقع قرية كبيرة. ولشدة الاهمال الرسمي المتعمد فقد تدفقت المجاري في أزقة «المدينة» وحولتها المياه الآسنة الى فينيسيا على النسق الاسرائيلي، فينيسيا، انما بلا ألبينوني!

آمل ان نلتقي في غرينوبل الشهر القادم، لن اتمكن من السفر الى المغرب لسببين احدهما وجيه جداً: اولاً، سأكون مضطراً للسفر الى صوفيا للمشاركة في لقاء ادبي دولي هناك. وثانياً، لأنني لا اريد السير على خطى شمعون بيريس، علماً بانني مريض بالحنين الى كل شجرة والى كل كثيب في وطني العربي، قارتي التي لا موطىء قدم لي فيها ولا صخرة ذكريات، وانني لاتساءل احياناً عما يمكن ان يكون لو انني طالبت باستعادة حقي الشرعي في ملك اجدادي القرامطة. ألن يكون اجدى للعرب وللمسلمين ان يستبدلوا جنرالاً بشاعر؟! ام ان هناك خطراً بأن يرتدي الشاعر بزة الجنرال فور تسنمه السلطة؟!

وعلى ذكر السفر، ايها العزيز محمود، فقد تعبت. تعبت من التذاكر وحواجز التفتيش. تعبت من المطارات والفنادق. تعبت من الترانزيت والحقائب. تعبت من لوعة اللقاء الخاطف ويتم الفراق على شفير المجهول..

ومزيداً على مزيد، فقد اصبحت مسكوناً بالخوف. انا الذي كنت اتسلق سلالم الطائرات والسفن مثلما اتسلق درجات منزلي، يتسلقني اليوم انقباض خانف كلما

Twitter: @ketab_n

ازمعت سفراً.. يعتبر في بعضهم سفيراً متجولاً او سائحاً محترفاً في «الفيرست كلاس»، ولا أتمنى لهم ما اكابده من غصص الروح كلما ودعت اطفالي النيام وكلما ابصرت الدموع المنزلقة بصمت من عيني نوال.

ومن كان مثلنا فانه يدرك لوعة رفيقنا ابن زريق البغدادي. ولئن كان ابن زريق قد استودع الله قمراً له في بغداد، جاداً في طلب الرزق لأطفال ضاق العراق عن كسرة خبزهم، فإنني استودع الله قمراً لي في الرامة، جاداً في طلب وطن ضاقت بـه الاوطان... فمن منا الاشد رزءاً والأفدح عبئاً: ابن زريق ام انا؟ انت ام ابن زريق؟

اخـي يـا محمود،

نسـافر ونسـافر... تنثرنا الدروب وتجمعنا المفارق، نشقى في الفرح ونشقى في الشقـاء. لا اخترنا ولا خيرنا... وكل ما في الامر اننا لم نفقد الايمان بأن طريقاً ما سيفضي، لا محالة، الى نهاية ما... وابداً على هذا الطريق...

اخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٥/١٠/١٩٨٦)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أحصدوهم...

● عزيزي سميح،

ماذا ستقول في آخر هذا الشهر عندما تذهب الى كفرقاسم؟

لقد حلت الذكرى الثلاثون لاحدى مذابح هذا العصر المليء بالمذابح.. كفرقاسم، اسمٌ من دمنا، احد اسماء دمنا.. كفرقاسم، تُحَرِّكُ في النفس غابات «الآخر»، حوار السيف والرغيف، خطاب الوحش الى طفلة مهجورة هي احدى حفيدات هاجر. اسم تتنازعه هويتان: «انا اقتل، اذن انا موجود».. و «انا احيا اذن انا موجود»..

كفرقاسم، بعد ثلاثين عاماً من انتصار حبة القمح على البندقية، لا تتذكر الا نفسها، فلاحين وتاريخ ارض، ويرتد الدم الى وجه القاتل هوية وحيدة، وشكل حياة مشروطاً بالموت. كفرقاسم لا تحتفل الا بنشوة البقاء.

لا اتمنى ان اكون معك هذه المرة، على مقبرة بلغت من العمر ثلاثين عاماً. طالت نباتات الشوك وكبرت اشجار النخيل، واشتعلت زهرة الخبيزة ثلاثين مرة. للمقابر ايضاً عمر وتاريخ... وازهار.

وعلى جانبي الطريق المؤدي الى مسرح دمنا المرفوع على اسمنا، تصطف البنادق والحواجز لحراسة النسيان. كان في وسع حرس الحدود ان يضعوا حدوداً للذاكرة وحدوداً للنسيان. فقد قطعت ذلك الطريق من قبل، اكثر من مرة، لأجد النسيان عاجزاً عن النمو، ولأعرف الى اي حد يتذكر القاتل انه لا يستطيع ان ينسى، فكيف ننسى، كيف نغفر؟

كنا فتياناً حين انتزع توفيق طوبي اسماء قتلانا التسعة والاربعين من انياب السر الحكومي المضروب عليهم... اسماء الرجال والنساء والاطفال الذين كانوا عائدين من الحقل والمحجر الى وداعة البيوت. لم يسمعوا آذان العشاء على مدخل القرية، بل سمعوا كلمة واحدة تشبه صراع الحنطة والمنجل، كلمة واحدة الفوا ايقاع بحثها الدموي عن الخبز، كلمة واحدة: احصدوهم...

لم تسلم روحنا ولغتنا من جرح ذلك المساء. ولن تسلما مما يضُخُه الجرح فينا من

Twitter: @ketab_n

قوة، قوة السير الابدي، منذ بدء الخليقة والى الابد. على طريق هذا الوطن..

لم نتكوّن الا لنكون. ولم نكن الا لنتكوّن. اما الذين اشترطوا كينونتهم باشباع «الرغبة الجارفة المكبوتة في الانتقام» منا، ليحققوا مشروع حضورهم بتغييبنا، فلم يتمكنوا من القضاء، على رغبتنا الجارفة في البقاء. لهم ان يتجادلوا على ثنائية السيف والكتاب «ان الفترة التي يعيشها اليهودي هي فترة عصيبة، وفي مثل هذه الفترات تعيش الامم بالسيف لا بالكتاب، لان السيف هو التجسيد المادي للحياة في أنقى معانيها».. ولنا ان نبقى بما نملك من قوى البقاء المتوفرة في شرطنا البسيط، البريء، الشرس.

ويا صديقي، ليس من حق من ليس يهودياً، والعربي بخاصة، ان يقارن ما يفعله اليهودي، فرداً ومجتمعاً، بأيّ فعل آخر يفعله غير اليهودي. لقد تم الاعتراف الغربي بهذا «التابو» الذي يعني تجاوزه ارتكاب جريمة ضد الانسانية. من هي الانسانية؟ ومن هو الوصي على تعريف حدودها؟ لا احد يعرف غير من يحق له، وحده، ان يعرف..

ليس شعار «لن ننسى ولن نغفر» من ابتكارنا نحن ضحايا من احتكر دور الضحية، وخوله حادث كان فيه الضحية بأن يتحول الى قاتلنا الذي لا يُحاكم. ليس ذلك الشعار من صياغتنا؛ والا لانهالت علينا التهمة الكونية بالرغبة المكبوتة في الانتقام. فما زال هناك دم رخيص ودم ثمين. وهنالك قاتل عادل وقاتل ظالم. وهناك ضحية ممتازة وضحية بخسة، تحصل فيها الاولى على تعويض بدولة مسيجة «بحق النقض» الاخلاقي، وتحصل الثانية على قبر لا شاهدة له، وتكافأ بالنسيان..

ان الخطاب الصهيوني، والغربي المتواطىء حتى التماهي الجبان، يطالبنا بان نُهيل النسيان على ضحايانا وعلى ماضينا وحاضرنا قبل ان نهيل التراب، وقبل الشروع في قراءة الفاتحة. بينما هو يُطور فيها قوة الذاكرة «لن ننسى ولن نغفر» لا لينتقم ممن كان عليه ان ينتقم منهم، من غربه الذي أنتج نازيته ولاساميته وعنصريته فأنتجه، بل من شرق ساميّ، منا.. وليصوغ اطاراً مرجعياً وحيداً للشر وللخير ولمفهوم الانسانية ونظام الحقوق.. هو اطاره المرجعي الخاص، الوحيد، المطلق، الابدي، والكوني..

لذلك، كان من حق ايلي فيزل ان يكافأ بجائزة نوبل للسلام، لان مفهوم السلام ايضاً يفتقر الى تعريف واحد، عالمي، وواضح، وحوصر معناه في معنى واحد هو الدفاع عن قضية مقدسة، هي الدفاع عن سلامة الذاكرة اليهودية من خطر وهمي او واقعيّ هو: خطر النسيان!

Twitter: @ketab_n

ان من يكافأ على قوة الذاكرة، في هذا الاطار المرجعي، عليه ان يُنتج نقيضه الناسي، حين يُشهر هذا النقيض ذاكرة مضادة تشير الى ان في امكان من يتذكر ان يقتل آخر يتذكر. الا تتسع ذاكرة هذا المتذكر الكبير الى ما ارتكبه بعض المعبرين عن موضوعه من جرائم ضد الانسانية، على الارض المقدسة، من ديرياسين الى صبرا وشاتيلا؟ الا يعترف بحق هؤلاء القتلى في خلق ذاكرة تستعير مصداقية شعاره: «لن ننسى ولن نغفر»، في براءة دفاع بسيط عن وجود بسيط؟!

كلا... لان شروط توازن هذا الخطاب ليس تعميمه للانسانية، بل صيانة ما ينجزه من «جيتو» له و «فيتو» على الآخر. من شروط توازنه ان ينصاع «الآخر» الى نسيان هو شرطه لصيانة ذاكرة الخطاب. معنى هذا الانصياع هو ان المجازر المرتكبة ضدنا ليست مجازر ضد انسانية. انها عمليات مشروعة ضد عائق انساني. وهكذا، فان تجريد الضحية، ضحيتنا، من الهوية الانسانية هو شرط صلاحية «الذاكرة» اليهودية للعمل، ولحقها الوحيد في مراعاة «الفترة العصيبة» التي ارتكب فيها اليهودي الاخطاء.. الاخطاء لا المجازر!

ان «الفترة العصيبة» التي كانت تجتازها دولة «الذاكرة اليهودية» في عام ١٩٥٦ كانت مبرراً سياسياً للاخلاقية قتل ٤٩ عربياً في كفرقاسم، ولمحكمة انتهت بقرش شدمي الشهير!

وهذه «الفترة العصيبة» هي التي جعلت طفلاً يهودياً في التاسعة من عمره يقول لمجلة «هعولام هزه»: «يجب قتل العرب جميعاً. يجب وضعهم في كيس واحد والقاؤهم في البحر»... وجعلت طفلاً في السابعة من عمره يحل مشكلة العرب بطريقة أخرى: «يجب حشو العرب بالقنابل وحرقهم»...

فلمن الذاكرة؟ ولمن النسيان؟

روى احد الناجين من مجزرة كفرقاسم، قصته لملحق صحيفة «هآرتس»: قال انه يخلع ساقه كل ليلة ويمددها تحت السرير. وفي كل ليلة تسأله طفلته البالغة السابعة من العمر: ما هذا يا أبي؟ فيقول لها: عندما تكبرين، يا ريم، ستعرفين. ستعرف ريم ما يلي: في تمام الساعة الخامسة بعد ظهر التاسع والعشرين من اكتوبر ١٩٥٦، فُرض امر منع التجول على قرى المثلث الفلسطيني. كانت حرب سيناء قد اندلعت منذ دقيقة واحدة فقط. كان ابوها اسماعيل بدر عائداً من العمل الى قريته. أوقف «حرس الحدود» عربته الى جانب الطريق، هو وثلاثة عمال. سألهم الجندي: من اين انتم؟ قالوا: من كفرقاسم. تراجع الجندي وصاح: احصدوهم!!!

ويضيف اسماعيل بدر: فجأة سقطت عليّ ثلاث جثث. ثم تقدم الجنود، وسحبونا

Twitter: @ketab_n

عبر السياج. صرخ ابن عمي: اولادي، اولادي.. فهشم الجندي جمجمته. حاولت ان أزحف فلم اتمكن. لقد اصيبت ساقي. طارت ساقي. حاولت ان احبو على يدي. رأيت بئراً. أردت ان القي بنفسي في البئر. ولكن لا ادري من اين جاءتني القوة، فتسلقت شجرة زيتون، واختبأت بين الاغصان. كنت اسمع الرصاص والصرخات، وجهاز اللاسلكي: قتلنا عشرة، هل نقتل المزيد؟ بقيتُ على الشجرة. وصلت الى الحاجز سيارة شحن تحمل ثلاثة وعشرين راكباً. أذنوا لهم بالمرور. وصلت شاحنة أخرى.. اذنوا لها بالمرور. ولكن ما ان ابتعدت قليلاً حتى فتحوا عليها نيران البنادق. بقيت ثلاثة ايام على الشجرة الى ان سقطت، وعثر عليّ احد اقاربي بالمصادفة.

عندما تكبرين، يا ريـم، ستفهمين...

اما الآن، فهل تنسى الساق الخشبية الساق البشرية؟

ويقول خضر محمود: كنا عائدين من المحجر. رأينا القتلى والجرحى على الطريق. كان هنـاك رجـل طاعن في السن. سأل الجندي الضابط: هل نقتل العجوز؟ قال الضابط: لماذا نخسر رصاصة؟ انه لا يساوي ثمن رصاصة! ثم توجه الضابط الى سيارة جيب وتكلم باللاسلكي: لقد وصلت شاحنة اخرى ملأى بالركاب... واريد ان اقتلهم جميعاً. اجابوه: خذوهم الى الحدود، اقتلوهم هناك، وقولوا: هربوا فقتلناهم.

لمن الذاكرة؟ ولمن النسيان؟

سيُسدل الاعـلام الغـربي ـ ماكنـة الذاكرة ـ ستار النسيان مرة اخرى على كفـرقاسم، كما يُسدلها على ذكرى مجازر صبرا وشاتيلا... سيسدلها علينا ليتعقب اخبـار اي يهودي مُصـاب بالزكام بسبب سوء الطب الاشتراكي! لتبقى الذاكرة اليهـودية حية، فهي شرط نسيان العـرب. وعـلى العرب ان يتخلوا عن الارض والحقوق... والذاكرة. ألم يكافأ انور السادات بجائزة النسيان:

جائزة نوبل للنسيان ـ للسادات...

وجائزة نوبل للذاكرة ـ لفيزل...

ولكن دمنا ما زال طازجاً. لن ننسى ولن نغفر...

وكفـرقاسم ترفع ذاكرتها، وتبقى في مكانها... تبقى في نشوة البقاء.. وفي نشوة الانتصـار على الموت وعلى النسيان.. فمن ينسى هذه الكلمة: احـصـدوهـم...؟؟؟

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/١٠/٢١)

Twitter: @ketab_n

... يهطل المطر
وتنبت الحقيقة

● اخي محمود،

حين وصلت رسالتك كنت قد حزمت حقيبة السفر. قلت في نفسي: حسناً. فلنسافر معاً. نتسلى على الطريق ونضحك على المطبات الجوية ما دمنا عاجزين عن الضحك على المطبات الارضية. وقلت في نفسي: من مكان ما في الشرق الاوروبي اكتب اليك.

كانت اثينا محطتي الاولى. وكان من المفروض ان أتسلّم هناك «فيزا» الدخول الى بلغاريا والمقعد المحجوز لي سلفاً على طائرة شركة «البلقان».

وهناك. فقط، اكتشفت انه ما من «فيزا» وما من مقعد على طائرة. كان عليّ ان اتحرك بسرعة لان عداد الحياة يتحرك بسرعة، وخشيت الا يكفي ما معي من نقود لتغطية نفقات الفندق والمطعم والتكسي و... «المسابح»، التي اشتريتها من اثينا بكثرة. لأن لديّ في الوطن وفي المنفى اصدقاء لا يطلبون من اوروبا سوى ان تتيح لهم امكانية التسبيح بهدوء!

ولمعرفتي السابقة بدهاليز القلعة الكافكاوية وسراديبها المهلكة، فقد تدبرت أمري، وهبطت اخيراً في صوفيا للمشاركة في لقاء الادباء العالمي تحت شعار «السلام ـ أمل الكوكب الارضي». وعلى امتداد ثلاثة ايام بلياليها طبخني السلام على نار الادب الضئيلة في ذلك اللقاء. وكان الحضور العربي ضئيلاً هو الآخر وارتجالياً الى درجة ان اللغة العربية لم تجد لها مكاناً الى جانب اللغات الست التي تقرر اعتبارها لغات رسمية. ومع نهاية اللقاء كانت قد انتهت لدي الرغبة في لقاء قريب آخر.

لا يعني هذا الكلام ان مشقة السفر ضاعت سدى، فقد ألقيت كلمة اغضبت الاغلبية الساحقة من هؤلاء السادة الادباء. وتشاجرت مع عدد منهم، احدهم ذلك

Twitter: @ketab_n

اليهودي الذي جاء ممثلاً لفرنسا وأبدى دهشته لانني امثل اسرائيل!. وقد تساءل بمنتهى الصفاقة: «أليس هناك شعراء يهود يستطيعون تمثيل اسرائيل»؟ قلت بخبث «لم امنح اسرائيل شرف تمثيلي لها، انا هنا بصفتي الشخصية وباعتباري شاعراً عربياً فلسطينياً.. ثم انه ما من شعراء عبريين يليقون بهذا المقام»!!

ومن ايجابيات ذلك اللقاء انني وقعت عقداً مع احدى دور النشر لاصدار مجموعة من قصائدي باللغة البلغارية وعلمت من المسؤولين هناك انك وقعت معهم عقداً مماثلاً قبل حين.

ولانني لم اتمكن من المشاركة هذا العام في مهرجان الذكرى الثلاثين لمجزرة كفرقاسم على ارض المجزرة وبين ورودها الحية بدماء الشهداء، فقد وجدت شيئاً من العزاء بين طلابنا المغتربين في بلغاريا والذين شاؤوا ان يسمعوا مني شيئاً عن هذه المجزرة التي يربطهم بها حبل السرة التاريخي رغم انهم ولدوا بعدها بكثير.

كما تعلم، فقد جهدت المؤسسة الصهيونية والاعلام الاسرائيلي الرسمي لاظهار المجزرة على انها مجرد شذوذ استثنائي، وكان لابد من بعض الطقوس القضائية والمراسيم الدعائية لتجنيب «دولة الضحايا» اي شكل من اشكال الاحراج في مواجهة الحقيقة. وكان على «ضحايا الدولة» ان يمارسوا طقوسهم هم في ديانة الدم وصلاة الدمار من اجل الحقيقة المجردة البسيطة المرعبة: المجزرة هي القاعدة لا الاستثناء.

«ويهطل المطر وتنبت الحقيقة»... درس تعلمته في ايام الولدنة. ارسلني ابي برفقة اخي سامي لزراعة بعض البذور في قطعة ارض ما زالت لنا. واوصانا بأن نضع حبتين في كل حفرة. الا اننا كنا على عجلة من امرنا لنتابع الشيطنة وكرة القدم في ساحة القرية. وكان سامي آنذاك ولداً عفريتاً وكنت انا الولد الاهبل فاقترح علي ان نضع في كل حفرة حفنة من البذور حتى ننتهي من العمل بسرعة ونعود الى شلة الاولاد التي تنتظرنا على احر من بلاط الساحة. وهكذا كان. نفذنا المؤامرة وعدنا الى البيت بسرعة فدهش والدنا واستفسر وحقق، الا اننا تشبثنا بالشهادة المتفق عليها سلفاً: عملنا وفق تعليماتك ولم نضع في الحفرة الواحدة سوى حبتين اثنتين. فهنأنا الوالد على نشاطنا وكافأنا وصرفنا الى شلتنا وكرتنا.

ومرت الايام والليالي وأبرقت فأرعدت فأمطرت.. واستدعانا الوالد من جديد ليسأل مرة اخرى: كم بذرة وضعتما في كل حفرة؟ ودون ان نفطن الى عوامل الطبيعة وتقلباتها عدنا وكررنا: حبتين لا اكثر!

آنذاك فقد والدنا هدوءه الذي تعرفه فأطعمنا علقة لا تُنسى وكان يهتف بين شدة

Twitter: @ketab_n

اذن واختها: «سيهطل المطر وتنبت الحقيقة»! «سيهطل المطر وتنبت الحقيقة»!

وآنذاك فقط، ادركنا ان والدنا تفحص مزروعاتنا فعثر على غابة حقيقية مكان كل حفرة!

كان ذلك درساً وأي درس، الا ان والد الصهيونية كان رجل صناعة لا رجل زراعة. لذلك لم تتعلم درساً في طفولتها ولم تدرك انه ذات يوم «سيهطل المطر وتنبت الحقيقة»!.. ومع ذلك فالمطر يواصل هطوله وتواصل الحقيقة ظهورها ونموها.. ومع امطار هذا العام الغزيرة ظهرت حقائق جديدة بشأن مجزرة كفرقاسم. فقد نشرت صحيفة «هعير» الصادرة في تل ابيب، في العاشر من تشرين الاول [اكتوبر] اعترافات عدد من «ابطال» المجزرة. ويكفي ان نسجل وبدون تعليق بعضاً من اعترافات الجندي شالوم عوفر:

«كنا مثل الالمان. هم اوقفوا الشاحنات وانزلوا اليهود منها واطلقوا الرصاص عليهم. وهكذا نحن. لا فرق ـ نفذنا امراً مثلما نفذ الجندي الالماني امراً ابان الحرب، حين صدرت له الاوامر بذبح اليهود». ويستطرد الجندي شالوم (سلام؟!): «انا انسان عديم الاحساس. غير نادم على شيء. فقد كنت متورطاً في امور أسوأ. فمنذ الخامسة عشرة من عمري وانا معتاد على المشي فوق الجثث».

من الواضح تلقائياً ان الجثث التي تعود شالوم (سلام؟!) السير عليها لم تكن جثثاً مستوردة من كوكب آخر.. وعلى اية حال فلنصغ اليه مرة اخرى: «كان الامر في غاية الوضوح. وكان واضحاً ان الامر جاء من فوق. اعلى بكثير من «الالوف مشني» (المقدم) يسسخار شدمي، وفي سياق المحكمة كان واضحاً ان اجراء تحقيق جدي في الموضوع من شأنه ان يوصل الى قائد المنطقة الوسطى الجنرال تسفي تسور والى رئيس هيئة الاركان موشيه ديان والى وزير الامن دافيد بن غوريون. وبعد المحكمة اخذوا تواقيعنا على تعهدات بحفظ السرية. وعقاب كل من يتكلم، السجن لمدة خمسة عشر عاماً».

ويهطل المطر، وتنبت الحقيقة.. الا انه هذه المرة مطر من الدم والدموع...

وكل مجزرة، وشعبنا بخير!

اخوك سميح القاسم

(حيفا ـ ١٠/١١/١٩٨٦)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سفر بلا سفر

● عزيزي سميح،

... واما انا، فما أُبْتُ من سفر الاّ الى سفر.

وفررت من تفسير هذه النغمة المتتابعة. فمن يجرؤ على الشروع في حديث السفر طالما لم يعرف حداً له؟

من البدء ونحن نسافر في ما ليس سفراً بقدر ما هو اقتلاع، وليس سفراً بقدر ما هو ضياع، وليس سفراً بقدر ما هو صراع... مدفوعين الى استبدال سفر بسفر بحثاً عما يُؤجل فينا اطلاق الصرخة المكبلة باعتبارات ليس اولها قداسة المكان، وليس آخرها سخرية الزمان...

لا اعرف عمَّ يفتش الجسد في الجسد، ولا عم يبحث الباحث في اللامكان عن مكان رمزي، ولا عـمَّ يبحث المسافر في اللغة، غير اسناد الروح على مكان للروح لا تحتاجه، الا حين ندرك بغتة، انها آخر ما نملك لنكورها عضلة للدفاع عن مساحة للصرخة...

ولكنني اعرف انني لا اسافر. هي الريح تجري بي واظنُّ اني احركها. هي الدوامة السـريعة. لا اسافر كالناس، لأن المسافر هو العائد الى مكان الخطوة الاولى. هو العائد الى العتبة الاولى او الاخيرة التي خرج منها. هو العائد الى عنوان شبه ثابت، ينتظره فيه احد، او رسالة، او سجان، او قبر، لان المسافر هو العائد. اما المسافر من مكان ليس له الى مكان ليس له، المسافر خارج مكانه، فليس اكثر من تائه، حتى لو رفع المعنى الى مكانة البحث عن الفكرة، او الاغنية، او الحب الذي يحوله مرض الروح الى مرفأ.. قابل للانكسار!

لـذا، لم اسافر ـ يا عزيزي ـ غير مرتين. في كل هذا السفر لم اسافر سوى مرتين:

مرة معـك، منـذ ثمانية عشر عاماً، على متن «فينوس» اليونانية التي سميتها «فينوس القبيحة»، من ميناء حيفا الى ميناء اثينا، ومنها الى صوفيا. هل تذكر كيف كنا نبحث عن موسيقى ميكيس تيودوراكيس لنعرف انها ممنوعة في اليونان، وان

Twitter: @ketab_n

اسم الفنان ايضاً ممنوع، فلم نسمع من بين اعمدة الهياكل القديمة غير حفيف العشب اليابس؟

وفي صوفيا، هل تذكر كيف كان اشقاؤنا العرب يخطفوننا سراً، ويحبوننا سراً، خوفاً من عرب آخرين ادانوا بقاءنا هناك في بلادنا، وطالبونا بأن ننهي التناحر الضاري بين هويتنا وشروط سفرنا بأن نتخلى عن جواز السفر او عن وثيقة السفر؟

كانت تلك الرحلة سفراً لاننا كنا عائدين، محمّلين بفرح الامتداد العربي، الى بيوت لا تبتعد عن بيوتنا غير خطوات قليلة، ونشعر ازاءها بمنفى النفس الذي لم ينتقل من النفس الى خارجها الا بوضع هذه المفارقة كلها مقابل مسيرة العذاب التي يقطعها اخوتنا، احياء وشهداء، من اجل ان يصلوا الى خطوة اقرب الى سمائهم الاولى، الى حيث يتقلص المنفى الكبير الى منفى صغير، منفى في الوطن...

منذ تلك الايام ونحن نسافر. نسافر في الحنين وفي النشيد المقطوع الى عالم لا تُغرينا فيه الف ليلة وليلة، بل تغرينا فيه الف هزيمة وهزيمة لم تكسر فينا قامة الامل، بقدر ما حطمت فينا الوهم ليزداد تعلق السجن بفضاء لا يتخلى عنه مهما تبدلت الفصول...

ومنذ تلك الايام، ونحن ندرك ان ما يُسافر منا هو النشيج، ليعلو على افئدة محروقة بالامل المعاكس قوة نشيد يصلح لأن يكون طريقاً يسلكه المنفيُّ الى مكان يستولي عليه الآخر، دون ان يتمكن من تغيير طبيعته، فشقائق النعمان تتفجر كجراح الحب الاولى في موعدها في نيسان. وللصنوبر دائماً.. للصنوبر تلك الرائحة القادرة على تحويل السجن الى معبد!

ومنذ تلك الايام، ونحن نسمي المكان بالشغف اياه الذي نُسمي به الكائن. نسمي القرى والمدن والنبات والطير كما نسمي اولادنا وآباءنا. فهل كنا نؤلِّبُ على السجن والمنفى معاً قوة الاسماء، ام كنا نحشد الحي والبسيط لنبعد النمط؟ ام كنا نتكاثر في ما يتكاثر فينا من اسماء لنغلب ما يتكاثر حولنا من نسيان وسواد؟ ام كنا نحاول اعادة تركيب المكان بأسمائه لان من سمى مَلَكَ وامتلك!

لا ادري...

ولكنني ادري اننا ادركنا الحاجة الى اعلاء شأن الفروق الصغيرة بين السفر، والرحيل، والتيه، والذهاب، والاياب، والغياب، والتنقل، والانتقال، والترحال، والخروج، والدخول، والضياع، واللجوء، والتشرد، والهجرة، وما يحركه اختلاف الخطوة عن الخطوة من دلالة!

وسافرت مرة ثانية...

Twitter: @ketab_n

وكنتَ معي مرة اخرى...

سافرتُ من الحياة الى الموت في فيينا، وعدتُ من الموت الى الحياة. قيل لي انني ودعتُ الحياة بلفظة واحدة: «بيّا». أمن اللائق ان اصف الموت.. موتي؟

اخترقت غابة من المسامير صدري وانتشرت في كل الجسد. ذابت طاقتي وسقطت على ارض الغرفة. ولكن سيرة حياتي حضرت كلها لأعرف ان الموت يحيي ما مات من الذاكرة. كان الشريط كلمات بيضاء مكتوبة على لوح اسود. رأيتُ كل ما كنت قد رأيت. وتوقف الأنين عن الأنين، لانه لم يعد في وسع الناي ان يئن. ثلج ثقيل على صدري، وعرق بارد على جبيني. ونمت. نمتُ على غيمة من قطن ابيض. تشرب النوم اعضائي وامتصني تماماً. لم اشعر من قبل بمثل هذه النشوة، نشوة النوم الابيض على سحاب ابيض. بياض لم أره من قبل. بياض من ضوء ناعم. شفاف ولا يطل على شيء. لا يعكس شيئاً. بياض خلفه نور وخلف النور بياض مصقول. وانا خفيف، يحملني سحاب خفيف معلق على هواء ثابت. لم اسقط عن شيء ولم ارتطم بشيء. لم اسمع شيئاً ولم اشم شيئاً ولم ألمس شيئاً. ولكنني رأيت ريشة بيضاء نائمة على سحابة بيضاء واقفة على هواء ابيض...

وحين أعادوني من نشوة النوم الى عذاب اليقظة، بأسلاك الكهرباء وثقوب في الساعدين وفي الفخذين، شعرتُ بالاختناق. لماذا اعادوني من سحر الراحة!

كان عليَّ ان انتظر اسبوعين لأعرف الحقيقة: لقد اعادوني من الموت الذي استمر دقيقتين الى الحياة. لقد اعادوني من النشوة الى الوجع. أهذا هو الموت؟ ما اجمله! أهذا هو الفارق بين الحياة والموت؟ ما أكبره! لقد أزعجوني في نومي الابيض الجميل. ايقظوني في ساعة لا أريد ان استيقظ فيها. لقد أعادوني من السفر الى... الرحيل!

بعد يومين، جئتَ لتجلس على سريري...

لماذا انت؟ لماذا انت؟

أومن بحدس الطبيعة، ذلك المجهول الذي لا ينفي عدمُ ادراكنا له وجوده. فكثيراً ما افكر بشخص لم أره منذ سنين طويلة لأراه امامي فجأة او لأسمع صوته على الهاتف. وكثيراً ما اتعرف على مشهد لا اعرفه من قبل، فأراه بعيني من رآه عدة مرات من قبل. ماذا يُسمى هذا الحدس، هذا التواطؤ بين ما كان وما سيكون؟ كأن المستقبل يرابط خلف الماضي..

هل هو نوع من السفر؟

سفر لا ينتهي. سفر لم يبدأ.

Twitter: @ketab_n

ونسافر من الماء الى الماء. نسافر من الطين الى الطين، فكيف نعرف سفرنا بما هو اقل تفاهة من علاماته الخارجية: جواز السفر، وثيقة السفر، «حرس الحدود» مكان الولادة، مكان الاقامة، جهة المغادرة؟

في اللغة نجد حلولنا. في اللغة نحاول ان نزوّج المعلوم الى المجهول. في اللغة نسافر ونعود. في اللغة نرسي للسفر قواعد سفر رمزية تكسر ذاتها لتبني ذاتها او تكسر السفر. في اللغة نصالح ما لا يتصالح في الواقع... وفي اللغة نعلن حربنا ونقيم سلامنا.

ولكن، اين نسافر خارج اللغة؟

اما من سفر في هذا السفر!

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/١١/٢١)

Twitter: @ketab_n

لقاءاً.. والى الوداع!

● اخي محمود،

في شمس واضحة وضوح الدم الجديد المشرق من بير زيت وغزة. وبأصابع معقمة بدخان الاطارات المشتعلة على مصلبات الشوارع، اكتب إليك مسافراً مقيماً، مأخوذاً بنبل الحجارة مسكوناً ببراءة الزجاجات الفارغة، سلاح الخضر العصري المشهر في وجه الدبابة وناقلة الجنود. ما من بتهوفن هنا وما من احمد عدوية، وحدهم ابطال شاتيلاغراد وعين الحلوة غراد وصبرا غراد وبرج البراجنة غراد، يعزفون دمهم الكبير الصاخب على ايقاع القصف والقصف المضاد، هنا، هناك وفي كل مكان.

ما من هدوء على جبهة الشوق الفلسطيني، ما من هدوء على جبهة القلب ليهدأ اولئك المركونون على اعتاب رونالد ريغن، وليهدأ اولئك الذين جعلوا من راية العرب والمسلمين ستاراً لشحنات الاسلحة السرية الى جيوش فارس.

كان هاجس السفر محور رسالتك الاخيرة، فهل تذكر كيف ضحكنا حين طلبوا الينا اختيار قصيدة في موضوع السفر لندوة غرينوبل؟ ضحكنا، كالطير يضحك مذبوحاً من الالم، لان السفر ليس موضوعاً لقصيدة، بل هو مضمون الحياة وهو مضمون الموت في لغتنا. السفر بكل مرادفاته ومفرداته، السفر بكل ابعاده ومعانيه، بكل حساسينه وكواسره، بكل يابسته ودموعه، بكل مفارقاته وحقائبه وبُقجه، السفر علانية السفر سراً، السفر بالجوازات المزورة والتاريخ المزور والعناوين المزورة، السفر الذي يبدو دائماً وابداً بالاتجاه المعاكس، خطأ، صدفة، احتمالاً، محطات بديلة، وتاريخاً بديلاً، هذا هو محتوانا الشخصي، هذه هي قصيدتنا الذاتية. بيد ان عنادنا العاقل وجنوننا الواقعي وايماننا العلمي (سمتنا الخاصة) امور لا مرد لها ولا مفر للعالم من التعامل معها باعتبارها الشكل الأرقى للتنسيق الكامل بين اللاعب الاولمبي وبين اعضاء جسده المدربة والمهيأة لاداء القفزة الصائبة والظافرة، على اكمل وجه.

Twitter: @ketab_n

حين حطت مكالمتك الاخيرة عندليباً على شجرة الروح كنت وبعض الاصدقاء مغموسين في الاعداد لمهرجان الذكرى العاشرة لرحيل صديقنا وحبيبنا راشد حسين، هذا المسافر الجميل الذي حاول ان يختار منفاه فاختاره المنفى.

واذا كانت طرق المسافرين تتشعب على هواها، وتنطلق كيف شاءت في مهبّ ريحها العاتية ونسائمها الرخية، فإننا ما زلنا قادرين على استجماع الجهات بين اصابع يدنا الواحدة، بما يليق بالحوذيين المتمرسين، وما زلنا قادرين على استحضار رحلاتنا، بكامل تفاصيلها، وانك لتذكر معي رحلتنا تلك بصحبة راشد حسين الى قرية المكر الجليلية ذات يوم من صيف ١٩٥٨. كنا مدعوين الى مهرجان شعري في ساحة القرية. ولم تكن شرطة اسرائيل مدعوة، الا انها قررت المشاركة على طريقتها الخاصة، فأغلقت مداخل القرية وقرفصت على الاسفلت متأهبة لاستقبالنا بالكلبشات المصنوعة بتقنية عالية وبما يتناسب مع مقاسات معاصمنا العاصية.

ولاننا لا نستطيع الا ان نسافر فقد تداركنا الامر على نحو لا يخلو من طرافة بقدر ما فيه من أسىً. لقد هيأ لنا اهلنا في المكر عربة تراكتور استلقينا فيها لتقطع بنا طريقاً زراعياً بين الاشجار الواطئة، وحين هبطنا في ساحة القرية وهلل «الكابتن» فرحاً بانتصاره الشخصي و «القومي» على مكائد الشرطة، كانت بقايا السماد الطبيعي المنقول سابقاً في عربتنا الضخمة، عالقة بقمصاننا. وكان راشد آنذاك أسوأنا حظاً لانه كان يرتدي قميصاً ابيض جديداً، ولم نكف عن مداعبته بالسؤال عن نوع العطر الذي يستعمله.

واليوم، لا استطيع الا الاعتراف بأن ذلك «العطر» الذي «أستعمله» راشد حسين يحمل في رئة الذاكرة عبق الجنة نفسها وعبير الخلود الخالد.

وها أنذا اقترح عليك ان تبعث الينا برسالة الى راشد نقرأها بالنيابة عنه وبالاصالة عنك في مهرجانه العتيد.

اما الآن، وفوراً، فسأمضي لوداع السيدة الجليلة والنبيلة والدة رفيقنا وصديقنا الكبير اميل توما.. يبدو انها لم تعد قادرة على احتمال الشوق فسافرت.

والى اللقاء في مطار الريح، ذات سفر قريب.

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٦/١٢/٧)

Twitter: @ketab_n

شتاء

● عزيزي سميح،

لا أعرف الهدوء منذ شهور. ولا أجد وقتاً للتعويض عن الوقت الضائع بين مدينتين. ومن فرط ما شاهدت من مدن لا اعرف اية مدينة. كأنني سحابة في الريح او صوت على حجر. لقائي وداع! وليس وداعي لقاء دائماً.. ومنذ خرجت من عزلة الصيف الطويلة التي ربطت فيها ساعتي على وقت الورق الابيض، متباهياً بانتقالي الصارم من هواية الكتابة الى حرفتها.. وانا أدور في صخب الذهاب السريع من مكان الى مكان.

وها أنذا في شتاء جديد..

اشجار عارية واشجار من فضة وثلج اصطناعي. فبعد قليل سيولد سيدنا المسيح، وابن بلدنا، وبعد قليل يولد من خطاه عام جديد. وبعد قليل سننخرط في عادة التأمل في ما صنعت بنا الجلجلة، وفي ما صنعنا بأيام العمر الهاربة منا كالاولاد...

شتاء جديد، وقلب جديد..

افتش في قلبي، الليلة، لأتلمس صوف الفراغ الناعم، فأصفق لما فيه من حب يورق ويكسو اغصان الشجر. أهنىء نفسي على هذه العافية. ولكن، كيف أسرق وقتاً من الوقت لاتابع انضباطي السابق بصباحات صارت اقصر، خاصة وان الليل ليس مهنتي. ليس لي ليل لأحتفي بشتاء لا يفعل ما هو اكثر من اطالة الليل، وحشو القلب بالتوجس من الوحدة..

لا أريد ان اكون وحيداً.

ولا اريد ان أصدق ان الشعر وسيلة للانتصار على شيء، او حل لعذاب الضياع تحت المطر. ففي الشعر ايضاً غربة. وها أنذا أتذكر المطر الاول على بيادر وحقول، واسترجع تلك الرائحة الاولى في برية حاصر فيها المطر ولداً لم يجد ما يلوذ به سوى الهتاف اليائس لأم لا تسمع الانين..

Twitter: @ketab_n

كم أحب المطر.. كم احب المطر الأول وأصغي فيه الى ما يبتعد، وأقبض فيه على رائحة لا تُعرَّف بغير اصوات النايات الجائعة الى إنائها. فلماذا لا يشبه شتاء شتاء؟ ولماذا يحرك الشتاء فينا هذا الحنين الى الماضي او الى المجهول؟.. ولماذا.. لماذا يكبر الحب حين نتذكر الليلك؟

سأزج بنفسي في ما لا يُسيِّجها او في ما يجعل الطاعة بهجة، في لحظة ينتهي عندها السؤال ليبدأ الانجراف. حصان معلق على وتر، ما عليه سوى الاندفاع الجميل الى الهاوية. وليست الهاوية سوى قمة مقلوبة. لو استطيع.. لو استطيع فقط ان أجد هامشاً بين عاصفتين أو رصيفاً بين هاويتين. لأنني اريد ان اقبض على الصهيل.. واكتب. اريد ان ادفع تلك العربات الغارقة في الثلج، الى الامام قليلاً، الى الوراء قليلاً، لا لأنني اشفق عليها من عزلة الاغاني، بل لانني لا اريد ان اجد نفسي هناك. فلأحصِّن نفسي او لأعودها منذ الآن على ذلك المشهد: ثلج، حصان، عربة، واغنية لا تصل...

شـتـاء؟

فكيف اغيِّر ايقاعي كما يغيِّر الشتاء مداري؟ أمن حطام القلب يصاغ هذا الليلك! وماذا يفعل الشاعر في معبد مهجور؟ ماذا يفعل اكثر مما فعل في انقضاض الشتاء على امرأة تدربت على الغياب.. تدربت الى درجة الوقوع في عبادة عيني ثعلب!.. وها أنذا ادندن: هي امرأة.. هي امرأة..

شـتـاء،

هو فصل الشاعر. هوية غامضة لبداية النهاية، او لنهاية البداية. ميلاد من موت. موت من ميلاد. نزول السماء الى الارض. صعود الارض الى السماء. وانتظار لما يسفر عنه القلب من مرض أو عيد.

شـتـاء،

حدائق للنسيان..

شـتـاء؟

مخيمات تسعفها السماء بماء لتواصل القدرة على تلقي «الموت الاخوي». واحد الزعتر يتابع عمر الحصار عشر سنين اخرى، عشرين عاماً آخر في رحلة من الصفيح الى الصفيح. فماذا اقول له وقد تألب عليه جنون التحالف الشيطاني وهستيريا القدر؟ العاصمة وفروعها المتغيرة. وهو هو يعيد انتاج هويته النارية. ويحرق اوراق هوميروس ليطهو طعامه الوحيد: الخبيزة. ويدثر بشبق البقاء العاري. ولا يأخذ من اسئلة شكسبير غير ما يجعله هو هو: وحيداً في مألوف لا يألفه.

Twitter: @ketab_n

احمد الزعتر وشاتيلا وسائر الاسماء لا يجد ما يقول. أما من مقطع آخر للنشيد! لم يحدث شيء. لم يحدث شيء. فلتبك السماء كما شاءت ان تبكي على حالها. اما هو، فما له من السماء الا ما يضيف اليها. يا احمد العائد من الموت باسم جديد للمخيم، بحصار جديد للحصار! متى تكف عن افراغ اللغة، وليس الرمل رملاً.. وليس الازرق للازرق!

شتاء،

واحمد الفائض عن نشيده، المدعو الى آخر حفلات الموت، ينبت من عناصر الطبيعة، من ذاته ومن أقصى بقاع اليأس، بطلاً للبساطة.. منذوراً لما ليس له: لقدرة الامة على الاستمتاع بما يقتل فيها الألفة والروح، وبما يحقر البطولة وينزلها الى مستوى العار. فليس قتل الفلسطيني مدهشاً بقدر ما هو أمر عادي، وطبيعي، ويومي. وليس مدهشاً ابداً بحث الباحثين عن مقبرة جماعية لشعب زاد عن الأمة وزاد عن الارض وزاد عن التاريخ. فلن يغفر احد لهوية احمد الزعتر حتى لو سمى نفسه احمد العربي، او لانه سمى نفسه احمد العربي. فماذا عساه يفعل في هذه العزلة غير ان يتناسخ في كل دقيقة ويرفع عاره الوحيد في فضاء الكهنة القتلة!

الى أين آخذه؟ الى أين يأخذني في هذا الشتاء؟ وكيف نقوى، هو وانا، على سأم التكرار وابتكار معجزة الدهشة وسط ركام الخيانة الكبرى المرفوعة الى مستوى القداسة، على مرأى من امة لا يكفي القمع، وحده، لتفسير ما نستمتع به من عجز عن التعديل الطفيف على المشهد، كأن يسحب الاطفال المذبوحون الى الكواليس، ولتزل العبودية من مستوى الفكرة الى مستوى الفكرة..

شتاء؟

شتاء من دم؟

مطر احمر على المخيم. ولا يملك شعبي غير قوة هذه العزلة هنا وهناك. والنشيد جسد. كأن الواقع هو الذي يُقلّد اللغة. كأن الطبيعة هي التي تطمح الى محاكاة النشيد. سأصرخ بك ثانية: خذ عني القصيدة! خذ القصيدة عني، لأتمكن من الوقوف مرة اخرى على شيء: رأسي، او قدمي، او روحي. ولأمسك خيطاً من خيوط هذا الفضاء الهارب. ولأصدِّق ان الحرية والوطن يستحقان صراخ هذا الدم!

ولا تصدقني ان توازنتُ خارج هذا التوتر، فليست لي ارض وراءه. ولا أُصدِّق ان في وسع هذا الرمح ان يشفيني إن خرج من خاصرتي. ولا أصدِّق انه شرط حياتي وحريتي. وليست الريح تحتي ـ كما قال المتنبي ـ ولا الريح حولي. واكاد أصرخ: ان الريح نسيجي.

Twitter: @ketab_n

شتاء؟

وأبحث فيّ عن احمد العربي. وفي الصمت اسأل: هل من جديد؟ ولكن، لماذا يأتي اهل المغرب العربي الى صوت قال لنا الصمت انه حوصر حتى الذبح؟ ولماذا تحميني الشرطة من علاقة العرب بفلسطين؟ ولماذا تضرب الشرطة علاقة فلسطين بالعرب؟ هل تدرك التباس السلطة حين تنقسم ادواتها على الهشاشة القائمة بين ذاتها وواجباتها؟ ان رجال الشرطة الذين ضربوا الشباب المحيطين بنشيج القلب الفلسطيني هم رجال الشرطة الذين طالبوني بصورة تذكارية! والرقيب الذي يمنع تداول كتبي هو نفسه الذي طلب مني ان أوقع لابنته على كتبي. ورجل الأمن الذي أوقفني ساعات في المطار هو الذي طلب مني ان اكتب على بطاقة هويته بيتاً من الشعر.. للذكرى..

ويا عزيزي، خذ القصيدة عني!

خذ عني القصيدة... في هذا الشتاء...

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٦/١٢/٢٠)

Twitter: @ketab_n

احمل قصيدتك..
واتبعني!

● اخي محمود،

أمطرتْ رسالتك الشتائية على القلب، وكان عارياً كما ولدته غربته، فلا لوم عليه اذا ارتجف، عصفوراً في العاصفة، ورقة «نابية» عن شجر الحكمة، او ولداً من اولاد المخيم الصغير تحت خيمة الله الكبيرة.

طقسٌ ماطر ورسالة قارسة، وبريد لا يعرف الرحمة. بريد بالاتجاه المعاكس دائماً وابداً، حتى لكأن لعنة فرعونية تلاحق هواجسنا واوجاع اصابعنا النازفة حبراً ودماءً على ورق لا يرتوي.

أيُّ بريدٍ هذا؟

وأيّ سعاة، هؤلاء؟

ويا أخي العزيز، كان الثلج الاوروبي يحاصرك بشراسة حين انتبهت ازاء المرآة الى مزيد من نديف الثلج، هابطاً من سماء الروح، طالعاً في الشعر الابيض على الصدغين... هوذا أخوك دوريان غراي يتهاوى من فضاء الحياة الصاخبة الجامحة، لتنسجم خطاهُ، راغمة مكبوحة، مع ايقاع الزمن الرهيب.

كعادتنا، في منتصف ليلة رأس السنة، كنّا معاً ولم نكن معاً، كعادتنا.

حاولتُ العثور عليك في باريس، وتركتُ لك شجن المعايدة على رنين الهاتف اليتيم. وحين عثرت عليَّ بعد ايام اعدت اليَّ شجني عبقاً من وردة حزنك... وكان معنا آنذاك راشد حسين ومعين بسيسو، ورفاقنا الآخرون من أقمار الكلمات الغائبة في بطن الحوت.

عامٌ جديد.

اهو حقاً كذلك؟

وكيف نحصي نحن اعوامنا؟

Twitter: @ketab_n

لنبدأ اذن، لنبدأ تقويمنا بعام الفيل. وليكن هذا عام المخيم. اما العام القادم فسنجد له اسماً آخر جميلاً رشيقاً بقدر يتناسبُ عكساً مع ما نحن فيه، أمةً وشعباً، أرضاً وسماءً، بشراً وشعراء.

وما دمنا نحلم بترويض الزمن، فسأفضي لك باحساسي الراهن وجهاً لوجه ازاء هذه اللفظة المجردة «الزمن»:

أنذا مشدود بحبال من مسد الى جوادين اثنين، احدهما ابيض والآخر اسود، يخبّان باتجاهين متعاكسين... وانني لأسمعُ صوت تمزّع اللحم عند الأبطين وما بين الفخذين. انه الزمن الزمنان، ذلك المرهون بدقات القلب وذلك المتناثر مع دقات الساعة.. الزمن النابع منّا ليصبُ بعيداً بعيداً في اعماق الأبدية.. والزمن القادم من غور سحيق في غموض المستقبل ليصب في اعماقنا نسلاً او كلمات، غبطة او عزوفاً، ندماً او اكتفاءً.

ثمة موقعٌ غير محدد وغير متوقع، للارتطام الهائل في نقطة ما بين ما تعارفنا على تسميته «بالروح» وما درجنا على تعريفه «بالجسد».

وهناك، في تلك البؤرة المدومة، اقفُ عارياً مأخوذاً محموماً، رافعاً ذراعي في محاولة مستميتة لالتقاط الشمس ولترتيب المجرة وفق ذلك الحلم البسيط والمركب في آن، وعلى صورة تلك الأمنية الساذجة والعميقة في آن: ليكن الوجود اجمل قليلاً. لتكن الحياة افضل قليلاً وليكن لنا ان نحظى بحصة أوفر من السعادة!

ولانني اغتسلت نهائياً من اثم المثالية، فلن يلوثني وهم السعادة بمعناها المطلق. ولن اتملّص من الواقع الى الانشاء. وسأظلُ قادراً على استشفاف سبب للسعادة. حتى في اجراء يبدو عادياً، كالاجراء الراهن لاعادة توحيد صفوف الكتاب الفلسطينيين، وفي انتصار القوى الوطنية التقدمية في انتخابات المهندسين في غزة، ولجان الطلاب الجامعيين في بيرزيت وبئر السبع والقدس. وسأظل قادراً على احتواء الشقاء القادم مما يسمى بحرب الخليج، تلك المذبحة المجنونة التي تمنح اسحق شامير متعة القول: «ان انتصار اي من ايران او العراق في حرب الخليج يُعتبر تهديداً لسلامة اسرائيل».. او تلك المتعة «الشعبية» التي يبثها الاعلام الاسرائيلي بسخرية واضحة: «تقتضي مصلحة اسرائيل ان ينتصر الجانبان».. او «تقتضي مصلحة اسرائيل ان ينهزم الطرفان!».

ـ خلاصة للسعادة والشقاء، متزامنين متكاملين متماسكين، تأتي القصيدة. فهل احدثك عما اكتبه الآن؟

كنت اخبرتُك في وقت سابق انني أكتب سربيةً عن «السقوط». والذي حدث، ان

Twitter: @ketab_n

اطـار السـريّة تحطم يوماً بعد يوم ليتحول العمل فيما بعد من الشكل الواحد المتنامي والممتد، الى مقطعاتٍ اشبه بالشظايا، نظراً للحالات النفسية التي تتناوبني وتبعاً لها. بيد ان الاحساس العام والشامل بالسقوط لا يزال قائماً، وما زال هو المحور الاساسي الذي تند عنه الانفجارات الروحية وتدور في فلكه اجرام القلب.

وبعـد، فان معضلة عصيبـة سـتـواجهني حتماً. فيبدو لي ان قصائد «السقوط» ومقطعاته ستكون اقل قدرة على الانتشار والوصول. ومع ان الانتشار هذا ليس هدفاً بحد ذاته، فلا استطيع الادعاء بأنه مسألة غير ذات بال!.

وكنتُ وعدتُ «دار الاسوار» في عكا بهذه المجموعة، قبل ثلاثة اشهر ولقلق ما. ابطأت وارجأت، ولعلها المرة الاولى في حياتي التي اتردد فيها، قبل دفع مجموعة من القصائد الى المطبعة.

بعد دقائق اكون قد تجاوزت منتصف الليل بساعة كاملة. وبعبارة أُخرى، أدق واكثـر تواضعاً، يكون منتصـف الليل قد تجاوزني بسـاعة كاملة... حملةً اوروبيةً جديدة على شكل منخفض جوي. ليل وبرد. بُرنس مغربيٌّ على كتفيّ، ومطرٌ على ليمونة الدار. مترانٍ من الثلج الاسود على جبل الشيخ، جبلان من الحزن الابيض على قلبي.

وانت هنـاك. نائمٌ الآن مثل افراد العائلة الآخرين. وانني لأسمع رجع انفاسك الوجلة. لعلك تحلم الآن بشتاء آخر في زمن آخر وفي جغرافيا اخرى.

لعلك تبكي في النوم.
او لعلك تبسم راضياً مرضياً، لوجـه صبـوح يشـاطرك الغربة وقهوة الصباح المتكررة في رتابةٍ قاصمة.

مطرٌ عندنا، وليس لنا.
مطرٌ لا ينقطع.
هرّةٌ غريبةٌ تموء في مثل هذا الوقت الغريب.
وقلب يموء مثل هرة. منبوذة تحت المطر.
مـطـرٌ ورسالتك.

وها انت تزفرها مرة اخرى: «خـذ عني القصيدة». تزفرها ولا مفرّ. لن يأخذ احد عنك

Twitter: @ketab_n

قصيدتك. يا اخي وحبيبي لن يأخذ احد عنك صليبك.
ولن يبقى لك الا ما يبقى لي.
ولن يبقى لنا سوى صيحة ذلك الفدائي الشاعر:
«احمل صليبك واتبعني!»... «احمل قصيدتك واتبعني».

أخوك المحبّ والمشتاق
سميح القاسم
(الرامة ـ ٨٧/١/٢١)

Twitter: @ketab_n

شيء.. من لا شيء

● عزيزي سميح،

لا أحد يحلم كما يحلم الآخر. ولا احد يحلم نيابةً عن احد..

ولكن الشعر يحلم بأن يحلم للجميع ونيابة عن الجميع. اهكذا نستطيع ان نفسر هذه الحاجة الدائمة والغامضة اليه؟... وبالوجع المُشتهى لحب لا نريده، ولامرأة نحبها وندعي اننا نحبها هي، لا الحبَّ نحب؟ او ندعي العكس كأن نحب الحب في امرأة لا نحبها..

ونتغيّر..

نتغير بلا مقدمات واضحة، نتغير بلا سبب..

في وسع طائر عابر ان ينتشلنا من هاوية حين يحمل بمنقاره خيط الأفق.

وفي وسع طائر زائر ان يُهيل علينا التراب.

لست متطيّراً الى حد الهوس. ولكنني حين حملت فنجان قهوتي الاول لاحتسيه على مهل، سمعت أنيناً غريباً في ركن الغرفة، أنيناً قادماً من رماد الصباح. حدّقت في مصدر الأنين فلم أبصر شيئاً. خيل اليّ انه قادم من الحائط فاقتربت لاجد جسماً غريباً ناتئاً في قبعة المصباح الكهربائي. هل تعرف ماذا وجدت؟

وجدت طائراً كبيراً مختبئاً هناك. في منقاره الاصفر الطويل حصوة كبيرة، فاستبشرت خيراً في البداية. ولكني سرعان ما خفتُ من عدم خوفه مني. لوّحت حوله بيدي فلم يتحرك. صرخت به فلم يحاول الطيران. كان يحدّق فيَّ عن كثب. كان يحدّق بعينين مفتوحتين بلا انقطاع ولا وجل. كان يهددني ويتوعدني. يخترق صدري ويتحول الى وحش. استنجدت بما أملك من مظلات لأدفعه الى الرحيل عن غرفتي وعن صباحي، فلم أفلح..

حملت قهوتي وخيبتي واختبأت في غرفة أخرى. ما هذا الطائر المتحول الى رسالة لا اريد ان أستلمها؟ وقد اقتنعت تماماً بأن هذا الزائر ليس طائراً. فما هو.. ما هو؟

هل في وسع المخلوقات الجميلة ان تحرك فينا هذا التشاؤم، وان تسدد الينا مثل

Twitter: @ketab_n

هذه النظرات الجارحة؟ لقد استطاعت «الخادمة» ان تخرج الطائر من المصباح، وان تلقي به من الشرفة ليعود ثانية، وثالثة، ليموت في المكان الذي اراد الموت فيه، في مصباحي. ولكن، لماذا كان يعض على هذه الحصوة الكبيرة؟ هل كانت رسالة من احد؟ هل كانت هدية؟ وماذا اراد ان يقول لي؟ ماذا اراد مني؟

لا احد يستطيع ان يمحو الحاح المشهد مني، فالى متى تطاردني العينان وتلك الحصوة!

وقالت لي العرافة «جونيا» الأشورية بعد شهور، دون ان احدثها عن ذلك الطائر: لا تخف مـم رأيت. ستعيش. كان ذلك الطائر يموت نيابة عنك. وكان يترك وراءه سريراً بارداً لامرأة مهجورة. هل تعرفها؟

قلت: لا اعرفها.

قالت: اني اراك تكذب، فهل من عادتك ان تكذب؟

قلت: في مثل هذه الامور.. لا بد لي من ان اكذب، ولكن، اين رأيت الطائر؟

قالت: في مخيلتك..

«جونيا» ليست ساحرة او عرّافة. انها عالمة طـب، وعضو في اكاديمية العلوم. في يديهـا طاقة كهربائية قادرة على تحديد المجال المغناطيسي للجسد البشري بدقة كاملة، مما يؤهلها لمراقبة اي خلل في هذا المجال.. الامر الذي يشير الى وجود مرض.. تستطيع ان تشخصه.

أوقفتني دقيقتين، دون ان اخلع شيئاً من ملابسي. حركت يديها حول جسمي وقالت لي: في قلبك خلل. في الجهة اليمنى من اسفل البطن خلل. في مثانتك التهاب. في ساقك اليسرى تصلب شرايين. وفي ضرسك الثالث على اليسار وجع.

قلت مازحاً: وماذا في بالي؟

قالت: امرأة تتلاشى، واسم زهرة تتفتح..

قلت: واين اسكن؟

قالت: على الطابق الخامس في بناية محاطة بالاشجار.

ذهبت الى المستشفى، وبعد اسبوع من الفحوص والتحاليل الدقيقة، قال لي التقرير الطبي ما قالت «جونيا» في دقيقتين...

مازحت البروفسور: وماذا في البال؟

قال: ماذا تعني؟

قلت: هل ترون اسماً لزهرة تتفتح؟

قال: هل انت شاعر؟

Twitter: @ketab_n

قلت: لا. ولكن «جونيا» عرفت ما في جسدي قبل ان تعرفوا. وقالت ايضاً ان في بالي اسم زهرة تتفتح.

قال: «جونيا» طبيبة، وليست عرافة.

ثم تـلا عليّ وصاياه الطبية: لا تدخن. لا تشرب. لا تغضب. لا تتعب. لا تنفعل. لا تقلق. لا تعشق. لا تكتئب. لا تضطرب. لا تفكر. لا تسكر. لا تسهر.

صحت: كـفـى.. كفى. انك قادر على تحويل اي شاعر الى حمار.

قال: ولكن، هل انت قادر على تحويل الحمار الى طبيب؟

هل تنقصنا مثل هذه السلامة؟ هل ينقصنا حمار مثلي؟ وتذكرت قصة عن سجين سياسي محكوم بالاعدام. وقبل تنفيذ الحكم بالاعدام بساعات سألوه عن أمنيته الاخيرة، فقال: اريد ان أتزوج لانجب ولداً يحمل اسمي. استغربوا طلبه، ولكنهم احضروا اليه مومساً وأدخلوها الى الزنزانة. بعد دقائق خرجت دون ان يقربها. سألوه لماذا تخلى عن رغبته في الزواج، فأجاب: ان هذا الوطن المليء بأولاد العاهرات لا يحتاج الى ابن عاهرة جديد!!

ولكن اسألك، يا عزيزي، أليس الحمار الحيُّ خيراً من الشاعر الميت؟

ربـمـا،

بيد اننا لا نريد ان نصدق ان من المجدي لاحد اخلاء مجال الشاعر من قليل من «المثالية»، لا بمستواها الفلسفي بالطبع. والا، فما معنى ان يتمكّن طائر من قتلك، ويتمكن طائر آخر من بعثك حياً؟ ففي منطقة الروح.. في اقاليم الغامض من النفس مجال لم يصل اليه العلم بعد. ولم يُر او يعالج الا بالسحر والشعر، وبقدرة غامضة على رؤية ما لا يُرى. اذن، كيف قرأت «جونيا» اسم زهرة تتفتح في البال وفي القلب، هي امرأة تطعمني الشتاء كحبة الكستناء المشوية على موقد الفرح. هي امرأة.. هي امرأة حلمتُ، قبل أن أراها، بأنني أعانق زهرة ونطير على غيمة بيضاء.

وكيف استطاعت فتاة ان تبوح لامها بمخاوفها: لا اريد ان امضي معكم في هذه الرحلة، لانني خائفة. تساءلت الام: مم تخافين يا ابنتي؟ قالت: «رأيتُ في المنام طائراً ملتفَّ الـسـاقـين، منحني الرأس». ولكنهم اخذوها الى الرحلة. وفجأة ارتمت الفتاة المرتجفة في حضن امها: «انا خائفة.. خائفة. لقد جاء الموت». وقبل ان تكمل جملتها ارتطمت سيارة العائلة بسيارة اخرى ارتطاماً قذف بالفتاة الى البعيد. ومن بعيد نظرت الام لترى ابنتها تتخذ هيئة طائر المنام: ملتفة الساقين، منحنية الرأس، وميتة!

فماذا يقول العلم؟

Twitter: @ketab_n

وها أنـذا أخرج للتو من حلم: فتحتُ باب شقتي لآخذ بريدي الصباحي، فرأيت حبات من البرتقال تملأ مدخل البيت.. برتقال اصفر، ذهبي، تتقدمه برتقالة مربعة الشكل في حجم الباب.

وانت تعرف انني لا احب مذاق البرتقال على الرغم من ان لونه يفتنني. وحين صحوت أكلت برتقالة، وانتظرت ما تسفر عنه هبات الحلم. ثم تذكرت اول امرأة ارغمتني قبل عشرين عاماً على اكل البرتقال لاثبت لها انني احبها. فهل كانت تشبه امرأة الشتاء الآن التي ترغمني على الا احبها وحدها، بل ترغمني ايضاً على ان احب حبها، وما يشيعه فيّ من اشعة الروح، وما تطلقه في جسدي من خيول راكضة؟

ليس ضرورياً، في هذا السياق، ان نسـأل: هل الـواقع هو الذي يركّب مادة احلامنا؟ ام ان الحلم هو الذي يركب عناصر واقعنا؟ لان للعلماء تناولاً يختلف عن هاجس الشعراء الذين يحتاجون الى قراءة الواقع بأدوات الحلم.

وماذا اريد ان اقول لك؟

لا شي.. لا شي، عدا الاسترسال في خواطر لا يضبطها موضوع، خواطر تطل على ما لا ندرك فينا من غموض هو الذي يوضح الشعر ويبرّر الشعر، الى درجة قد نُعرِّف الشاعر معها بأنه ذلك الانسان الذي يحمل آلافاً من «قرون الاستشعار» التي ترى البرق البعيد، وتحس بالعاصفة البعيدة، وتلمس الزمن القادم الذي لا زمن فيه.. وهو.. هو المهووس بأن يصدِّق أحلامه..

أمن الغريب، اذاً، ان تحتاج العرّافة، عضو اكاديمية العلوم، الى كتابة الشعر في محاولة لفهم ما لا تفهم من طاقتها على قراءة ما في بالنا من اسماء الأمكنة والنساء، والزهور؟

لا تسألني ان كنت أُصدّق ما يقال عنه انه خرافة...
بل اسألني ان كنت اصدق حاجتي للشعر..

كل شيء رمادي في هذه الايام.. رمادي اسود.. رمادي مكتوب بفحمة كونية سوداء. ولكن هذه البطاقة الصغيرة قد وصلتني الآن من فتاة اسمها زينب، من بلد المطار اياه، لتزيد عدد حبات البرتقال حول قلبي. تقول البطاقة: «دخلت قلوبنا بلا ورقة. ولاننا نعلم مكان ولادتك، تقبّلتك وقبّلتك قلوبنا أكثر وأكثر، فأفّ للمطار.

Twitter: @ketab_n

ولنفهم ولنضحك الى ان يبكوا».

شكراً لزينب لأنها تحدد الفارق، ولانها تدلني على ما لا اعرف: في وسع احد ان يحلم كما يحلم الآخر. وفي وسع احد ان يحلم نيابة عن احد.

وهذا وحده.. هذا وحده ما يحاول الشعر ان يقوله..

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٧/١/٢٧)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

للأسى سماء من طيور

● اخي محمود،

كان ولا يزال للأسى عالمه المغرق في خصوصيته، ولا حدٌ، لا حد ابداً لطاقة الأسى في ابداع عالمه هذا واعادة ابداعه مرة تلو مرة بأشكال وصيغ تحاكي الطبيعة اولاً ثم تعود الطبيعة لتحاكيها، عاجزةً، قطعاً، عن الامساك بأطرافها السحيقة.

ولا أعلم لماذا كانت للأسى دائماً سماء من طيور.. سماءٌ من طيور شتى نتسلق فضاءها الشاسع بأبصارنا وبصائرنا الكلية لنرى هناك وعلى الحد الفاصل بين ما هو واضح وما هو غامض عنقاءنا الاولى، خلاصة الأسى الدبق في صهريج البيداء العربية، الأسى الدبق مرة اخرى والمتجمع بكثافة هائلة في ما اصطلحنا على تسميته بالحلم... ونرى هنا ايضاً حمامة نوح حيث تجسد الأسى الصادر عن طوفان لم يُبق ولم يذر... ونرى هناك ذلك الغراب التعس الذي وصمناه بخطيئة البين... ثم نرى السنونوة التي تحملنا على جناحيها بعيداً في حلم الربيع خارج الأسى المتكدس كالثلوج والوحول في شتاء يبدو بلا نهاية.. ونرى هناك المطوقة التي تنوح بباب الطاق لتكون أسى شاعرنا السجين ابي فراس متقمصاً طائراً ليس كالطيور. ونرى ثم نرى ثُبّرة شيللي وغراب ادغار الن بو.

قبل ايام رأينا دُوريًا. كان ذلك في مهرجان الذكرى العاشرة لرحيل حبيبنا راشد حسين. فقد استعاد عمر حمودة الزعبي بعضاً من ذكرياتنا القديمة وأعادنا الى ليلة الدوري (دوريّ ما يقتحم الغرفة العليا في منزلنا حيث اعتدنا السهر ويمضي معنا ليلة كاملة مصغياً لحوار نشط فيما بيننا... احدنا يقول: انه دوري متطفل ووقح ومن حقنا ان نلتهمه فوراً. ويقول آخر: بل هو روح من لدن الله يحمل الينا فضاء جديداً لقصيدة جديدة. ويقول ثالث: لا، بل انه الشيطان شخصياً على هيئة طائر يسترق السمع ليدبر المكائد...).

مع الفجر الازرق حمل دورينا جناحيه ودهشتنا وطار...

حدث هذا قبل ربع قرن ولم أزل منذ مهرجان راشد مسكوناً بقناعة ما، بأن ذلك

Twitter: @ketab_n

الدوريّ هو راشد حسين وانه ما زال يحوم حول بيوتنا ويقتحم نوافذنا في ساعات الليل تاركاً في فضائها احلاماً جديدة لقصائد جديدة...

وها نحن نرى الآن طائراً غريباً يقتحم غرفة نومك في باريس... وكما يبدو واضحاً من رسالتك فهو ليس دورياً على الاطلاق. وعليه فهو ليس راشد حسين. إذن من يكون طائرك هذا؟ هل هو غسان كنفاني؟ او لعله معين بسيسو؟ او انه روح شهيد جديد ضاق بضجيج القصف على مخيماتنا في لبنان فطار اليك؟

ينبغي ان نستوضح الأمر مرة اخرى لدى «العرافة» الاشورية «جونيا». واذا قيض لي ان أقابل «بارينا» الأشورية التي اصبحت طائراً في براغ منذ اعوام سحيقة فسأتدارس الامر معها.

طائر يحملك من الأسى الى الأسى.

وطائرة تحملك من باريس الى الجزائر.

وافرح معك ونفرح معكم: ها نحن قادرون على الالتحام حول اطراف اجسادنا المتطايرة على مداخل المخيمات.

في كلمتك التي وصلتني فقراتٌ منها تدعو مثقفي العالم الى اطلاق صيحة، ولو صيحة، مجرد صيحة، لايقاف المجزرة. انت تدعو! صيحة فيرف طائر الأسى من سماء الجزائر الى سماء القدس الى سماء بيروت الممزقة!

أية صيحة تريد يا صديقي؟ وبأية لغة؟ أية صيحة تريد من زمن الحناجر المقطوعة بالبلادة، المنخوبة بسرطان اللاأبالية؟

إنني لأذكر عبر رواية «فارس الأمل» لجورجي امادو صيحة رومان رولان: «نداء الى العالم! نداء الى الشعوب! لننقذ لويس كارلوس برستس!».

نداء الى العالم! نداء الى الشعوب من اجل بطل البرازيل، فمن يوجه صيحة، او نأمه، من اجل ابطال شعبنا ومن اجل ناسنا العاديين؟ ام ان الحياة هي من حق الابطال وحدهم؟!

اعتقد اننا سنلتقي قريباً يا محمود. سنلتقي في موسكو وسيكون هناك سرب كاملٌ من طيور الأسى، فهل نستطيع اغراء هذا السرب بإطلاق صيحة ما، مجرد صيحة، لأجل إخوتنا المذبوحين من الوريد الى الوريد ثلاث مرات يومياً قبل الجوع وبعده؟!

ثمة معادلة صعبة، نحن مزجوج بنا فيها. معادلة على النحو التالي: حتى يسمعك العالم فأنت مدعو الى ممارسة العنف، الى اجتراح الصخب القادر على إشغال حيز داخل انهماكات العالم وانشغالاته الهامة والسخيفة على السواء. وحين تمارس العنف لتُكره العالم على الاصغاء اليك فإن هذا العالم نفسه يكفّ عن الاصغاء... ويذهب

Twitter: @ketab_n

الى أبعد من ذلك... انه يغتنم الفرصة للتخفف من اوزار موتك، فيلقي بها على كاهلك وبقدرة قادر يتحول الجزار الى ضحية، وتتحول الضحية الى مجرم مدان ويصبح طبخك في حليب امك امراً مشروعاً للغاية.

هذه هي المعادلة. ويبدو لي انها معادلة صعبة حقاً، فما العمل؟ كيف نتدبر معضلة الخيار البشع بين الموت صمتاً او الموت صخباً؟

هل تذكر قصة الطائرة المدنية التي سقطت على جبال الجليد في مكان ما من العالم قبل حين؟ لقد اضطر الناجون من الركاب الى التهام جثث القتلى من زملائهم ليتمكنوا من حماية النجاة العرضية التي كانت من نصيبهم. لم يكن من حولهم آنذاك سوى قوة الموت وقوة الحياة. ولم يكن امامهم من خيار سوى ان يحسموا لصالح الحياة. فاستجمعوا ما تبقى لهم وفيهم من طاقة في صراع البقاء المعروف ليلتهموا جثث اخوانهم، ولا ادري اذا كانوا قد استعملوا طواقم الطعام الحضارية ـ الشوكة والسكين وصحون البلاستيك! الذي اعلمه هو انهم ظلوا على قيد الحياة الى ان تم اكتشافهم اخيراً!

ونحن يا عزيزي، نحن الفلسطينيين القادمين الى الكوكب الارضي على متن سفينة فضائية من كوكب آخر، لم ننج من مصير مماثل. لقد سقطت سفينتنا على جبال الجليد في العام ١٩٤٨. هلك من هلك ونجا من نجا وولد من وُلد واستشهد من استشهد وينتظر من ينتظر. وبقوة الحياة نفسها نلفي انفسنا اليوم. ازاء الخيار الشاق: إما ان نلتهم جثث قتلانا او ان يلتهمنا الموت المحدق بنا من كل جهات الارض. فما العمل؟ لقد التزمنا بالحياة المنظمة وبالموت المنظم، وعليه فاننا نستصدر فتوى دينية تتيح لنا اكل موتانا!

قد نحظى بفتوى كهذه! ولا أظن الديانات السماوية صادفت من قبل مسألة مركبة بهذا المقدار. انما المعضلة الحقيقية هي انشغال العلماء والفقهاء والاكليروس والفلاسفة بقضية أهم ما زالت منذ الأزل تبحث عن حل: كم ملاكاً يستطيعون الوقوف على رأس إبرة؟!

وتبعاً لسلم الاولويات الكوني فسيكون علينا ان ننتظر. والى حين صدور الفتوى المرجوة يترتب علينا ان نعمل شيئاً، كأن نكتب قصيدة في باب الرثاء او باب الهجاء او باب المديح، وربما في باب النسيب ايضاً.

Twitter: @ketab_n

وحين نلتقي في موسكو بعد ايام يكون الربيع قد اقترب قليلاً على جناح سنونوة ما، ويكون طائرك الغريب قد عثر على نافذة اخرى وقلب آخر يفعمه أســى ويطوح به الى نافذة غرّافة أشورية او عربية عاربة. مع محبتي.

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٧/٢/٩)

Twitter: @ketab_n

تصور انك تأكلني

● عزيزي سميح،

توقفت طويلاً عند جملة كاتب ياسين «لن تكون هناك ابداً عبودية تكفي جميع البشر»، توقفت لاتساءل: أهناك من الحرية ما يكفي جميع البشر، ليشملنا ايضاً؟

لا يبدو لي، ولا لك، ان لسؤالي فرصة البحث عن اجابة، خارج ما تصنعه هذه السيرة الجماعية من شبق الى البقاء ومن جنون... حتى لو كانت للحرية ألقاب اخرى وطقوس مضحكة...

لقد رأيتك في موسكو حزيناً منذ ايام، كما رأيتني مرهقاً. هل هو تعب المعادن، ام الاطلال على ما فينا من غربة لا تتضح الا في مرآة الاقتراب؟

اما انا، الخالي تماماً من وهم السعادة على ارض البشر ومن عبادة الحجر، فقد هدني جسد لم يعد في وسعه ان يسافر اكثر من مرة واحدة في اسبوع واحد...

واما انت، فقد كنت تحلم بأخت لاولادك الثلاثة، فرزقت صبياً رابعاً سميته ياسراً، لعله يخرج من العُسر يسر. وإن لم يفعل ذلك فمن حقك ان تلعن أباه، فان لم ينجح الجيل الرابع او الخامس فيما فشلنا فيه، فمن ينجح اذاً!

ولكنها الحياة، يا عزيزي، تجري بنا ولذاتها... تنسانا على مهل على ضفاف لم نحلم بها، وقوية الى حد النسيان، مصرة على حياتها الى درجة النكران. ففي وسع اجمل الازهار ان تتفتح في ساحة شهدت أشدّ المعارك وحشية. وفي وسع النرجس ان يتملى وجهه، جذلاً، في بركة ذبحوا فيها طفلاً منذ قليل...

وماذا في مقدور صوتك ان يرفع من اسماء لا اسماء لها، في زحام البحث البشري عن درب خطر محتمل، كخطر العاصفة النووية التي تهدد الجنس البشري بالفناء؟ أفي وسعك، مثلاً، ان تقول ان شعبك لا يواجه الآن هذا الخطر المحتمل لأنه مهدد بالابادة بواسطة سلاح عادي؟ وهل يستطيع الجنس البشري ان يلتفت قليلاً لانقاذ اطفال برج البراجنة من الموت جوعاً؟ فإما ان يكون الموت العصري نووياً ليشغل ضمير العالم، واما ان تمر الجريمة بلا احتجاج...

Twitter: @ketab_n

وهكذا، علينا ان نموت سراً وبلا ضجيج. فليس في الحرية ما يكفي لجميع البشر. وما زال الطريق امامنا طويلاً لنثبت اننا جزء من هذا الجنس القادر على الخوف من الكارثة النووية ومن كوارث الحروب العادية، الحروب الصغيرة. فليس لدى جراهام جرين ولا جريجوري بيك ولا نورمان ميلر ولا كلوديا كاردينالي من الوقت ما يكفي للانشغال بقضايا صغيرة، مثل ولادة طفل تحت الانقاض، وبحث شعب كامل منذ اربعين عاماً عن مكانه، وبحث المحاصرين في المخيمات عما تبقى من عشب يابس ولحم كلاب حامض، او عن فتاوى لتحليل ما هو اقسى لانقاذ جنس بشري من الانقراض!

ولكن، ما اجمل الكرة الارضية...

وما أنبل الدفاع عنها امام ما في باطنها من مخزون موت...

لقد سيطر الانسان على الطبيعة الى حد انتحاري منذ عجز عن السيطرة على غرائزه. لقد امتلك سر الذرة، امتلك السر الذي يهدده بالفناء، لان في وسع رئيس طائش ان يخرج الى الشارع بلعبة الموت الكوني. في حرب خاطفة لا ينتصر فيها احد على احد، ولا عقيدة على عقيدة، ولا ايديولوجيا على ايديولوجيا. فما هو دورك، ايها الشاعر العربي في حملة السلام هذه.. ما هو دورك؟ هكذا يسألك عشرات الصحفيين لكي لا تقوى على مواراة المفارقة الجارحة: انا؟ ما هو دوري في منع الحرب النووية؟ انا؟ ما هو دوري في انقاذ الجنس البشري؟

فمن هو القادر، في هذا العصر، على الهروب من هذا الواجب، حتى لو كان مطروداً من هذا العصر، ومدفوعاً الى التسليم بمدى ما بينه وبين عصره من اغتراب؟

هل كان عليك وعلي ان نطالب اهلنا في مخيمات لبنان وفي سجون الوطن، بالسير في مظاهرات حاشدة تدعو الى وقف التسلح النووي ما دام السلاح الذي يقتلهم لا يكفي لقتل جميع البشر؟

ليست المسألة مثيرة للسخرية الى هذا الحد، اذ لا اجد تناقضاً، بل انقلاب اولويات، بين الخائفين من الحرب النووية وبين ضحايا الحروب التقليدية، اذا اعترف الخائفون من الحرب النووية بأن ضحايا الحروب التقليدية هم جزء من الجنس البشري، وبالتالي فان لهم مكاناً على الكرة الارضية، وطن الجنس البشري!

أرأيت كم نحن بعيدون عن الارض وعن الخيال معاً... أرأيت؟

ان العلماء اكثر قدرة من الشعراء على تخويف البشر مما يهددهم، طالما ان الشعراء مشغولون في البحث عن قطرة ماء، وحفنة قمح للجائعين، وعن اسماء جديدة للوردة. وبينما يمتلك العلماء اسرار صورة الارض والفضاء حين يحدث الانفجار العظيم

Twitter: @ketab_n

الشبيه بالانفجار العظيم الاول الذي أسفر عن جمال هذا الكوكب، سيظن الشعراء ان الارض تلعب وترقص. فما هو دورك، ايها الشاعر، في التمييز بين ثنائية البرق والرعد وبين ثنائية الانفجار والقيامة؟

سيظل «العالم الثالث»، وعالمنا الخاص المنبوذ من العالم، مفتوناً بسؤاله الاول عن حصته من الحرية التي لا يبدو حتى الآن انها تكفي جميع البشر. وسيظل سؤال السلام متفرعاً من سؤال الحرية، على الرغم من جهلنا مخاطر السلاح النووي، او لعلّ هذا الجهل يزودنا بحوافز الصراع الذي نادى اينشتاين باستحالة ادارته في ظل القنبلة النووية بقوله: «انكم لا تعرفون ما تتحدثون عنه. انكم تتحدثون عن السلاح الذري وعن عصر القوة النووية وانتم لا تستطيعون ـ ولا حتى في أقصى حالات جموح خيالكم ـ ان تلموا باطراف الحقيقة»...

هل نحن مطالبون بأن ندرك ان السلاح النووي قد غير مفاهيم الحرية، والسلام، والعدل، والحقوق، والوطنية، والقومية، ليكون بقاء الجنس البشري ـ كما تحدده موازين القوى النووية ـ مشروطاً بالغاء اجناس بشرية اخرى؟ لان ما تكوَّن قد تكوَّن، وما لم يتكون لن يتكون على حدود الخطر الشامل!...

على الاقوياء، اذاً، على العلماء والملمين بالحقيقة النووية ان يحذروا ضحايا هذا السلاح. اما نحن، ضحايا السلاح العادي، ضحايا السلاح البدائي، ضحايا غياب الشروط الاولى لتكوُّن انسانيتنا، فلا نملك ترف هذه المعرفة، ولا نملك شرف المشاركة الفاعلة الا في ما يوفر لنا الشروط الاولى لاعتراف الجنس البشري بنا، ما دامت «الهوية الانسانية» لا تشمل من هو خارج هويته الوطنية. فهل أوقفتنا الهوية الانسانية خارجها، وتقدمت الى فضائها دون ان تكترث بمستنقعات خلفتها فوارق التطور الذي اشترط تطوره بخلق هذه الفوارق؟

ربما... وربما كان على السجين والسجّان ان يتعاونا على حماية السجن من زلزال يهدده بالانهيار عليهما معاً. ولكن، هل يمتلك السجين حرية الدفاع عن سجنه؟ ليس عالمنا واحداً الا في هذا السقوط الشامل، فما جدوى دعوة الذين ليس هذا العالم عالمهم الى الدفاع عنه بأيدٍ مقطوعة؟ كم نحن غرباء عن هذا العالم. كم نحن ضحايا حربه. وكم نحن ضحايا سلامه!

وماذا كنت تقول؟ هل كنت تقول ان بعض البشر يضطر الى أكل لحم البشر ليحافظ على بقائه؟

كم أكلونا...

وكم يواصلون أكلنا...

Twitter: @ketab_n

وكلما حاولنا تحريك ضمائرهم بقولنا اننا مضطرون الى اكل لحم اخوتنا، كلما ازداد الفارق، واتسعت الهاوية. لعنة الله على الفتوى وعلى من أفتى وروّج للفتوى. فليس مثل هذا البكاء بنافع ولا رادع، لأن ما يتبقى منه هو ثبات الصورة الغربية عنا بتحويل المأكول الى أكل، مهما كانت الاسباب.

تصور انك تأكلني، او انني آكلك! ما هذه الفرية الجديدة! أتظن انها تفضح احداً في بيروت، او تل ابيب، او دمشق؟.

لقد جاءت النجدة العربية الى لبنان مرة اخرى. جاءت في المرة الاولى لانقاذ الكتائب من حصار القوى الوطنية. وجاءت الآن لانقاذ قطعان «امل» من حصار القوى الوطنية. اهذا هو دور المدافعين عما تبقى في العروبة من شعارات؟ ودائماً لانقاذ حلفاء اسرائيل المحليين من الهزيمة، ولتشديد الحصار على «العدو المشترك»، الفلسطيني، الفلسطيني لا سواه هو العدو المشترك!! فمن يرفع صوته بعدما اغتالوا جدنا الرائع، حسين مروه، وهو يرفع طفولته الأبدية فوق غابة الوحوش؟

وما هو دورك، ايها الشاعر العربي، في معركة الدفاع عن الجنس البشري من خطر الفناء؟

ما هو دورك؟
لا أريد الجواب
لأنني لا أريد مزيداً من العذاب
ولا مزيداً من الاغتراب.
ولكن، لا تأكل اولادك، مهما كانت الأسباب!!

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٧/٢/٢٤)

Twitter: @ketab_n

وداعاً، انا مسافر فيّ!

●أخي محمود،

وداعاً. انا مسافرٌ فيّ. مُبحر جوفاً في أوعيتي الدموية. سأبدأ رحلتي في الوريد الأجوف الأعلى. اقلع أفقياً في منتصف الليلة الى الشريان الرئوي، ومن هناك اهبط قليلاً الى الأذين الأيمن.

قد تستهلك هذه المسافة ثلاثة شهور من الزمن. أتزوّد بعدها بالحبر والورق واتابع الرحلة باتجاه الشريان التاجي الأيسر، فالبطين الأيسر. آملاً ان اتمكن من قطع هذه الفراسخ المرعبة في مدة لا تتجاوز الستة اشهر. في ذلك الوقت يكون الجو مكفهراً عاصفاً وتكون الملاحة خطرة بعض الشيء، الأمر الذي يقتضي الابطاء، بحيث لا تتجاوز السرعة سبعين عقدة في الثانية.

واذا تيسر لي ميناء ما للتزود، فسأتابع الرحيل عبر الشريان التاجيّ الايمن باتجاه المحطة الاخيرة، على رصيف البطين الأيمن. وسأكون قادراً على اجتياز هذه المسافة في غضون اربعة اشهر على وجه التقريب.

ان الرحلة كلها قابلة للانجاز في ثلاثة عشر شهراً، واذا تحقق لي ذلك فسأكون قد سجلت رقماً قياسياً دولياً جديداً، كاسراً به الرقم القياسي الاخير الذي سجله أخونا خليل حاوي.

وداعاً. انا مسافرٌ فيّ. صلِّ من اجل رحلة ميمونة لأخيك، اذا كانت لديك بقية من قدرة على الصلاة.

مرة اخرى تصل رسالتك وانا جالس على حقائب السفر. وكانت رحلة ثلجية ممرضة الى براغ. ولأن الطائرة تأخرت بضع ساعات عن موعد إقلاعها المحدد سلفاً، فقد اضطررت للمبيت على مقاعد مطار فرانكفورت. لم يكن ذلك في صالحي اطلاقاً. كانت آلام اللومبارغو هي المستفيد الوحيد الاول والاخير. وحين بلغت براغ، كانت الثلوج وصدمات الكهرباء الساكنة في مقابض الابواب وفي أكفّ الاصدقاء بانتظاري.

Twitter: @ketab_n

هل تذكر صدمات الكهرباء الساكنة هذه التي أحدثك عنها؟ لعلك تذكر، فقد كابدناها معاً، في براغ ايضاً، منذ عام او عامين.

أمر طبيعي ان يلتقي الفلسطينيون في المطارات. مع ذلك فقد فوجئت بصديقنا الرسام كمال بلاطه في مقصف مطار فرانكفورت، وحدثني عن رحلة خائبة في وهم خائب، يسمونه «التضامن العربي» مع القضية الفلسطينية.

وكانت هناك مفاجأة أخرى، فحين فتحت عينيّ على ضجيج اجهزة التنظيف في الفجر، كان يقف على مقربة مني شاب يبدو دون العشرين من العمر. تردد قليلاً ثم دنا بارتباك:

ـ هـل أنت فلان؟

ـ اجل. اهلاً وسهلاً. ومن اين انت.

ـ انا فلسطيني مبعد من قطاع غزة. مبعد من اليمن. مبعد من السودان ومحتجز في الترانزيت هنا الى ان يعثر الالمان على طائرة تقلّني الى بلد آخر، ليبعدني بدوره الى ترانزيت آخر!

ـ لا عليك. هذا قدرنا.

ـ شكراً.. لكنني اريد ان ابكي.

ـ إبـك يا اخي إبـك فسترتاح قليلاً.

وواصلنا الحديث الى ان حان موعد سفري، ولا علم لي الآن في اي ترانزيت يقيم ذلك الفتى.

أخـي العزيز.

اتصور انني آكلك. واتصور انك تأكلني. نجلس للغداء في مطعم «مكسيم»، في الضاحية الاخيرة من مخيم برج البراجنة. تتناول بهدوء شريحة من كتفي اليسرى، تسبقها رشفة من نبيذ فرنسي جيد، وتليها رشفة أخرى اطول قليلاً.

وحين تعيد الكأس الى المائدة، اقتطع لي مضغة صغيرة من عنقك (لا شهية لديّ اليوم ولن يسعفني النبيذ، لانه يسبب لي مزيداً من الحموضة الكاوية في هذه المعدة اللعينة التي لم يسموها ببيت الداء عبثاً!).

صاحبي!

لم نكن شعراء المقابر يا صاحبي
هكذا ينبغي ان نموت
ينبغي ان نعيد الى بارىء اللحم والحُلم
ما ظـل من لحمنا

Twitter: @ketab_n

والذي ظـل من حُلمنا
في البيوت / المنافي
المنافي / البيوت
لـم نـكـن.
هـكـذا.
لم نعد امراء المنابر يا صاحبي
كاتم الصوت يأمرنا بالسكوت
صوته وحده الراوية
صمته وحده القافية
هـكـذا.
فالوداع الوداع
أنذا ذاهب في بلاد دمي
راحلٌ في خلاياي
محبرتي مركبي
وقميصي شراع
أنذا ذاهب في جنوني..
متى نلتقي؟!

والى ان نلتقي بعد ثلاثة عشر شهراً في المقهى المقفر على شاطىء البنكرياس فان دعابة صديقنا كاتب ياسين المرة ودعابتك الاستطرادية الأشد مرارة تظل هي هي الحقيقـة التـاريخية الأشد وضوحاً بين انهيارات الروح والجسد فلسطينياً وعربياً ودولياً (دع اسرائيل جانباً، تلك دعابة أخرى!!).

لم يكن حزني في موسكو حزناً فردياً ولم يكن ارهاقك مسألة شخصية. أصارحك بها أحسسناه معاً ولم نجرؤ على المكاشفة به آنذاك. الاهانة. الاحساس بالاهانة لاننا ندعى لانقاذ العالم والجنس البشري من كارثة نووية مؤجلة بينما نحن عاجزان عن انقـاذ كوخ من الصفيح وطفلة جائعـة، من موت عاجـل لا يأتينـا مترجمـاً عن الانكليزية او العبرية بل يداهمنا مباشرة باللغة العربية الفصحى وباسم القومية العربية والاسلام. هنا طلعت سنبلة الحزن، هنا نبتت وردة الارهاق. أليس كذلك؟ قلها صراحة فلن تؤذي مشاعر أحد سوانا نحن الأهبلين المتجشمين مشاق السفر عبر الرمال والثلوج الى وهـم لا يسـاوي ثمن تذكرة السفر.

وليس هذا كل شيء. فقـد أنجزنا امراً ما. امراً ضئيلاً. إلا انه يليق بموازين

Twitter: @ketab_n

القوى وأفضليات الصراع الدولي. وعليه فلست نادماً على شيء. لا أعزي نفسي ولا أكابر. لست نادماً على شيء يا صديقي واستطيع القول بملء فمي على مسامع الغمر الساكن والبرية المهجورة تماماً: اللهم اني بلغت!! اللهم اني بلغت!!

أخـي العزيز.

في اثناء رحلتي هذه التي ارتديت من اجلها المعطف المضاد للمطر والحوادث لن يكون بيننا اتصال بريدي. فلا جهاز تلفون في محبرتي ولا هوائيّ ارسال على قميصي ولا محطة استقبال في قلبي. لن اكون دباً قطبياً في نومه الموسمي. سأحاول ان اكون طائـر الرعد القادم من ذاته الى ذاته مع مطلع الربيع المتوقع. وسأدون تقلبات الطقس واحوال الجو الممتد من الجغرافيا الى ارتعاشات القلب ومن ارتعاشات القلب الى سلم رختر. ويوم أعود قد تكون معي قصيدة جديدة، كتابة ما، محارة غير محلولة الرموز او اي شيء آخر أنثره على البشر، في ضـوء الشمس الكامل.

وداعاً يا اخي، هأنذا ارفع قلوعي، هأنذا أشرع في السفر، وداعاً والى لـقاء.

أخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٧/٣/١٨)

Twitter: @ketab_n

شقاء يوم الثلاثاء

● عزيزي سميح،

لا تطوي هذه الصفحة الا لنبدأ كتاباً جديداً. فالى أين أنت ذاهب في ربيع شديد الغموض؟ لقد طال الشتاء.. طال وتلكأ كزوجة تماطل في الطلاق. ولكنه حطّ على قلبي، منذ البداية، امرأة ذكية تحمي فرحها وتحميني من حديث الزواج.. الى ان يُصبح مطلب الأغنية.

سافر فيك، كما يطيب لك السفر المضاد. لعلَّ في أقاليم القلب ما يُعوض عنك هزائم الجغرافيا وتبدُّل فصول ستجدها هناك، في القلب، اكثر فوضى وغموضاً مما هي عليه في الخارج.

اما كان في مقدور وردة مخبأة في داخلك ان تتفجر فجأة لتجتاح قارة من الجليد؟ وفي وسع بقعة شمس داخلية ان ترقص افاعي الغابات وتدجنها؟.. والاّ، فمن اين استحلبنا هذا المطر على صحراء الساعات الميتة؟ من اين جاءنا سحر القوة لنتابع العزف، مائة سنة اخرى، على وتر بلا عود، وتر من هواء مالح، هواء صلب، هواء يبني عليه الشعراء مقومات وجود لا يتماسك الا بعناصر وهم يتحول، من فرط الحاجة اليه، الى مادة.. الى معدن!

وفي المقابل، ألم ينشف القلب من نمطية الجمال، ومن سأم المسافات المفتوحة بالنرجس، المسافات الموصلة الى وحشة النفس العطشى الى ثرثرة يوم الثلاثاء، الى صمت صديقين، والى كسل انتظار لا يأتي منه أحد!

هناك قد لا يأتي الشعر ابداً، لا يأتي من هذا التفرّغ المتأمل الا اذا كان استراحة بين عاصفتين.

الشعر ـ كما تعلم يا صاحبي ـ لا يأتي من انتظار الشعر، او من البحث عن الشعر، لأنه في حاجة الى ما هو خارج هويته، في حاجة الى ما يبدو انه نقيضه على الرغم من انه مصدره. لذا، نهرب من ذاتنا الى زحام الخارج، ويصير في وسع ورقة مريضة، تسقط من شجرة، ان تحرّك الايقاع الساكن. ويصير في وسع فتاة مجهولة تنتظر سيارة

Twitter: @ketab_n

الباص وتقضم ساندويتشها ان تفتح باب القصيدة على مصراعيه، ليطل علي عجوز يجلس على مقعد الحديقة، او على انقاض المخيم، ليرى الى اين أوصلته أمه حين دربته على المشي منذ سبعين عاماً..

وانت تعلم، يا صاحبي، ان منطقة الشعر تقع خارج منطقتها، وان وقت الكتابة يقع خارج وقته...

وكثيراً ما اعتقد ان ما يميز شاعراً عن آخر هو مجرد حظ من ذكاء، صاغته العادة، بعثوره على لحظة الكتابة الملائمة لان يعتصر في الوقت المناسب ما تقطر من أوان شاعريته التي لا يعرف دائماً متى يقاربها او يعاشرها. فكم من مرة جاءنا الشعر ونحن نيام فاختفى. وكم من مرة جاءنا الشعر ونحن نلعب النرد، فضاع. وكم من مرة حسبنا فيها اننا ممتلئون بالشعر فهبنا للقطاف فاذا به سراب وجفاف. وكم من مرة قادنا فيها الضجر الى الورق الابيض لنجد الشعر هدية من السماء..

من يعرف التوقيت الملائم، اذاً، يجد اطراف القصيدة. فهل سيصل بنا العلم الى يوم يبتكر فيه جهاز رصد للحظة مرور تيار الشعر السري فينا، كي لا تضيع سنوات من الشاعرية منا دون ان ندري، وكي يتجاوز عمر الشاعر الشعري الساعات والايام؟

... ولكل واحد عاداته. لقد راقبت نفسي مراراً دون ان أعثر على قانون عام للكتابة. ولكنني لاحظت انني لا اكتب الا تحت تأثير التوتر العالي كما يقولون. لا أعني بهذا التوتر ارتفاع شحنات الحساسية الى مستوى يقارب الانفجار، كما هو معروف، بل اعني انني لا اكتب الا في الزحام. واذا انقطعت الى نفسي شهوراً من العزلة فلا افعل ذلك لأجد الشعر في العزلة، بل لأفرغ نفسي مما امتلأت به نفسي، ولاحصد ما زرعت.

ولقد حاولت كثيراً ان اتخلص من مشاغلي العامة غير الادبية، فقدمت استقالتي من عدة مهام ادارية لأتفرغ للشعر. وبعد عام من هذا التفرغ وجدت روحي خالية من الشعر، وخالية من النثر ايضاً. لم اكتب شيئاً لأنني لم انجز وقتي المُبْدَع. لم أسرق وقتاً للشعر من هذا الوقت المعطى والممنوح بلا حرمان وصراع. فماذا تفعل حين تقول لك امرأة الشعر دفعة واحدة: خذني!.. ألا يأخذك الشلل؟

الخارج يجنح نحو الداخل. والداخل يجنح نحو الخارج، وعلى سياج التقائهما تنمو وردة السياج الشعرية. وهكذا لا يكونان الا مجازاً ليرقص الشعر رقصته. اما اذا اتضحت المسافة بينهما فلا تتضح الا لتدل على غياب شاعرية مؤهلة لان يبتذلها «الخارج» تارة، ولأن يُعتمها «الداخل» تارة اخرى. وهكذا استدرجت الوظيفة العامة

Twitter: @ketab_n

بعض الشعراء الى الاستقالة من الشعر، لا من الوظيفة، لان التوازن بين الداخل والخارج لم يكن قلقاً او متوتراً منذ البداية..

ما هذا الشقاء، يا عزيزي، وما هذا العناء!

ما هذه النعمة، وما هذه النقمة!!

و.. «لا احد يكتب ليكتب» هي صياغة نقيضها: «لا احد يكتب الا ليكتب».

تلك المفارقة تتضح ايضاً في النثر الذي تكمل فيه القصيدة شاعريتها، والذي يجد في الشعر نثره، شبهاً لا يُرى بوضوح، شبهاً مؤولاً للعلاقة المتداخلة بين الداخل والخارج.

هـل تكتب اذا لم تكن مضطراً الى الكتابة؟

لا ألقي بهذا السؤال على الأغنية، لأن الروح ليست مطالبة بالنشيج من احد. هي تنشج لتصفي روحها من احتقان يسببه الحزن او الفرح، ولتحفظ طبيعتها مما يخدشها..

اما النثر، فلا نكتبه الا لأننا التزمنا بذلك. لأن الصفحة محجوزة، ولأن المطبعة تنتظر، ولأننا على موعد مع احد. فليس من الهواية في شيء ان نكتب مقالاً ليس للنشر. وهكذا يكون النشر شرط كتابة النثر. وهذه الرسائل التي نتبادلها، يا عزيزي، هل كنا سنواصل كتابتها لو لم نزج بأنفسنا في انضباط العلاقة مع القارىء ومع المطبعة؟. قد لا تحتاج أغنية الى قارىء غير كاتبها. ولكن القارىء هو غاية المقال. وهكذا فنحن لا نكتب لنكتب، بل لنفي بالتزام. ولكن من يرغمنا على ذلك؟ لا احد غير حريتنـا في ان نكتب. ومـا دمنـا نكتب فاننا نعبّر عن طبيعة نشاط نمارسه بشروطه التي لا تستحضر دائماً اهدافها المباشرة في عملية الكتابة. وهكذا فنحن نكتب لكي نكتب؟ لكي نعبر عن طبيعتنا بأدواتها.

كـم أمقت يوم الثلاثاء، لا لأنه يوم لا معنى له ولا منزلة له بين الايام، تماماً كالساعة الثالثة بعد الظهر، بل لأنه يوم كتابتي الاسبوعية، وموعد تسليم مقالي الاسبوعي. أصحو متعباً يوم الثلاثاء. ألعن يوم الثلاثاء، لأنه يوم الواجب. هل هو الخوف من المسؤولية ومن القارىء المجهول، القارىء الذي لا يرحم؟ أم هو الحرص الدائم على توازن العلاقة المتوترة بين الداخل والخارج؟

فما يصلح فـضحه من داخل، في القصيدة، من اسرار الضعف البشري لا يصلح ائتمان النثر عليه. لأن النثر بيان عام يتعاطى مع سؤال عام، مع كيفية دخول الخارج الى الداخل وخروج الخارج مضرجاً بشظايا مرآة الداخل.. دون ان تكون العملية قريبة من بيان شخصي..

Twitter: @ketab_n

وهذا التمييز بين بيانين هو مجال هذه الرسائل، مجال يتعايش فيه الذاتي مع الموضوعي، ويتحرك فيه الشخصي مع العام، ويتداخل فيه الخارج والداخل. ولكن حوار الداخل المؤوّل الى وطن، مع الخارج المؤوّل الى منفى هو الجانب الذي اغتبطت له الناس.

فهل أدت هذه الرسائل غرضاً ما؟

ليس هذا السؤال سؤالنا. ما يهمنا هو اننا حاولنا ـ على المستوى الشخصي ـ أن نتابع حواراً بدأ مع صبانا وشبابنا، وقد يصلح لان يكون شهادة متواضعة على حياة جيلنا...

وما يهمنا ايضاً هو اننا حاولنا ان نكسر جمود النظرة الى العلاقة بين الداخل والخارج، دون ان نخشى القول ان المنفى ليس دائماً في المنفى، وان الوطن ليس دائماً في الوطن. فان في وطننا من المنافي ما يُضعف نعته بالجنة المطلقة. وفي المنفى من طرائق ابداع ما يخفف نعته بالجحيم المطلق. وان سكان الخارج قد استقر ماضيهم ومستقبلهم في الداخل، ولا يعترفون بأن حاضر الحاضر اكثر من واقعة مأساوية على جسر الوصول. وان سكان الداخل لا يكتملون الا بحضور نصفهم الغائب، وطن واحد، شعب واحد، وحرية واحدة.

والآن.. الآن نرتاح قليلاً. فليس في اقاليم قلبك الذي ترحل اليه بريد جوي، سأدعك مع قلبك. لقد سافرت كثيراً الى الخارج. ومن حقك ان تجلس الى قلبك بعض الايام. ولكنني، وآلاف القراء، سنشتاق الى رسائلك، فلا تتأخر طويلاً. وسنحتفل مع قصيدتك الجديدة الطالعة، كالعادة، من قلبك..

ومنذ الآن، احذرك من خداع القلب. فالقلوب ليست مجرد عضلات قوية مكرسة لخدمة اصحابها. انها كائنات مشاغبة، قد تغدر وقد تخون وقد تعُض. لقد عضني قلبي ذات يوم، وخانني مراراً، وهدَّني وهدَّني، غير انني سلطت عليه ارادتي: سأعيش ايها القلب ـ الكلب!

فاحذر قلبك. لا تدلله اكثر مما ينبغي. ولا تهمله اكثر مما يستحق، فهو جهاز قوي، شقيّ، وسريع العطب. قد يحتمل ضربة صاروخ. وقد يتجعلك بزهرة ليلك..

والى ان تعيد قلبك الى موضعه، والى ان تعود من زيارة قلبك، اتمنى لك كل الخير، وكل الشعر..

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٧/٣/٢٤)

Twitter: @ketab_n

الحـزمـة
الثالثـة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

منذ البداية

● عزيزي سميح القاسم،

ليس حدثاً عادياً، في ظروف غير عادية، ان تنجح انت واخوانك الكتاب في تأسيس اول اتحاد للكتاب العرب في الوطن المحتل، بعد اربعين عاماً من الاحتلال.

اربعون عاماً؟ لا تنظر الى الوراء بحزن.. لا تنظر الى الوراء إلا لتعرف الى اين وصلت بنا الطريق. للاعداء حساباتهم ولنا حسابنا. إن وراءنا اربعين عاماً من الاحتلال ومن مقاومة الاحتلال، اربعين عاماً من محاولة تهويد الارض، واللغة، والروح.. اربعين عاماً من الصراع على البقاء أسفر، على المستوى الثقافي، عن ولادة اول اتحاد للكتاب الذين كانوا مرشحين للالتحاق بها تحدده الدبابة من حدود للهزيمة النفسية والادبية.. فلم يهزموا.

ترى، هل ترى كيف لا تقاس الظواهر كلها بالمقياس إياه. ففي وسع القصيدة ان تنجو من قصف الطائرات، دون ان تتمكن من اسقاطها، ولكنها تتابع نموّها التدريجي في وجدان شعب يحوّلها الى طاقة.

فمن هم الباكون على مصائرهم في هذه الذكرى.. ذكرى انتصار الدبابة على المحراث الخشبي؟ من هم الذين ينظرون الى الامام بخوف، دون أن تتمكن القوة العسكرية العمياء من إبداع نتاجها الادبي الموازي، ودون حاجة ماسة الى اجراء المقارنة معنا، نحن الذين صحونا ذات يوم على خرابنا المفاجيء، لا نملك من الدنيا غير اعادة ترميم ذاتنا من ادوات تشبه الهواء. لا كتاب لنا، ولا حقل، ولا ثور، ولا فضاء. اين كنا، وأين صارت ثقافة الاحتلال؟

هل تتذكر البداية؟ يوم امسكتَ بالطريق وصحت: ابداً على هذا الطريق! ويوم هتفتُ بجلاد الهوية: سجل، انا عربي! كنا ندافع عن البسيط وعن السؤال الاول: نكون او لا نكون، حين ادرجونا في الادراك العملي، لا النظري، لدور الشعر، دون مراجع ودون تجارب، ودون ان نتساءل كما نتساءل الآن: هل كان ذلك الصراخ

Twitter: @ketab_n

شعراً؟ لقد زُج بنا في الفاعلية، واخترنا ـ لنبقى ـ مهمة الصراخ في برية الزمن، عرايا من الامل الملموس، لا نملك الا الصوت.

هل تتذكر البداية، ونحن ذاهبون الى اي طريق عدا الطريق الذي يلحقنا بقيصر، ايام كان الحكم العسكري هو الناقد الادبي الذي يحدد ما يصلح للصراع وما لا يصلح من شعر، فأدركنا ان الشعر ليس هو البراءة كما يقول الفيلسوف الالماني، بل هو ما نتسلح به من طاقة في معركة البقاء الوطني والانساني، فكانت السجون معاهدنا الاولى التي تعلمنا فيها دروس الحرية الاولى، واخترنا من تاريخنا ما يشذ عن قاعدة السلطان. واخترنا من تاريخ غيرنا ما ينفع اخراج سؤالنا البسيط من العزلة، ليكون الغصن المقطوع من شجرة الامة سنديانة الاكثرية الانسانية.

لا احد يعرفنا، يا فتى، لا احد يسمعنا غير السجان حين نضرب موعداً على الشاطىء، فيمنعنا البوليس من اللقاء، الى ان صار السجن مكبر الصوت الاول الذي رفع الأذان الصغير الى الملايين التي عرّفتها الهزيمة على اطرافها المقطوعة في الداخل.

كان اسمنا الداخل. ما اشد فتنة هذا الاسم. لقد كبر الاحتلال، يا فتى، وتمدد. ولكنه لم يخنق صوت الاصوات الجماعية في القصيدة كما كان متبعاً او متوقعاً، بل كبرت القصيدة وامتدت لتغطي الاحتلال، ولتحتل الاحتلال.

فهل بلغ الاحتلال «سن الرشد»؟ لا يبلغ الاحتلال الا سن الرشد الحيواني: اربعين عاماً من القتل والطيش والانقسام علينا: ماذا نفعل بهم؟ ماذا نصنع بهؤلاء الذين يتكاثرون ويصمدون.. ويسبقوننا الى الغد؟. لم نصدق انهم يستطيعون الخلاف علينا لو وجدونا ميتين، فالعربي الجيد هو العربي الميت. هل تتذكر البداية، يوم حددوا لنا مهمة واحدة هي ان نكون «سقاة ماء، وحطابين» ليحميهم الوعي الشريد من هذا النمو، دون ان ينتبهوا الى ان باستطاعة الحطاب ان يغني للفأس والشجرة، والى ان الحطاب الذي صودرت أشجاره سيُعْمِلُ فأسه في جذع الاحتلال!

والاحتلال هو الاحتلال، حتى لو زيّنوه بوهم العودة التلمودي، «عودة شعب بلا ارض إلى أرض بلا شعب». اما زالوا، يا فتى، يسكرون من هذه الكأس، ويفيقون على صراخ طفل عربي يولد، ليدفع بكهانا الى المزيد من الجنون، وليفضح نفاق الليبرالي الذي يزود كهانا بالسلاح ليعلن الخلاف اللفظي معه من اجل صيانة الصورة في مرآة الغرب؟

ليست هذه هي المسألة. لا ارض اللبن والعسل خالية، ولا سكانها اشباح. ولكن القوة العسكرية عاجزة عن فرض السلام الصهيوني على شعب من الرهائن. هل

Twitter: @ketab_n

تتذكر البداية؟ منذ البداية كان الصراع محتدماً على الجبهة الثقافية بين مشروع التهويد، والاستلاب، والعدمية، والتغريب.. وبين وعي الهوية والحرية، ومنذ البداية، انتصر المتنبي وابو فراس الحمداني، فينا، على حاييم نحمان بياليك وجده السموأل. ومنذ البداية، انتصر النحل في دمنا على بعوض المستنقعات التي جففتها أناشيدهم الركيكة التي حاولت ان تربينا على حب استعبادنا، فلم نقبل الا العكس. ان عكس ما فيهم هو شرط المحافظة على هويتنا: عرب، ولا نخجل. عرب، ولا نرحل..

فهل في مقدورنا، الآن، ان نقول دون ان نهاب الوقوع في خطأ المبالغة ان ذلك البقاء الاول هو الذي حمى الوطن من التلاشي. وان الداخل هو القوة المادية للهوية الوطنية الثقافية. وان للداخل اسماً يفوق السحر، لان الداخل هو الذي وفر للظاهرة الفلسطينية قوة المعجزة.

ان اربعين عاماً من الاحتلال، ومن مقاومة الاحتلال بالبقاء، وبالتعبير عن البقاء بارتداء جلد الارض واكمام الشجر، بالزواج والتناسل، بالمظاهرة والتفاؤل، بالقصة والمقالة والقصيدة، بالمنشور والجريدة، بحراسة العلاقة بين الماضي والمستقبل ـ لا تجعلنا ننظر الى الوراء لنبكي، بقدر ما ننظر الى الحاضر لنرى الى اي مدى يدخل المنتصر العسكري في هزيمته الانسانية والثقافية، ومن اي ثقب نطل على الافق، مدججين بكامل عدة الحضور، شعباً يُستعصى على الابادة والتغييب، شعباً يتوحد في وعي ذاته وفي اداة التعبير عن ارادته، وينشر رسالته على اكثر من مستوى انساني ليس أبسطها انه قادر على ان يبدع اشكال حياته الثقافية، في شروط لم تعد فيها الثقافة تعبيراً عن قوة الحياة فيه، بل صارت فيه الثقافة احد شروط قوة هذه الحياة.

هل تتذكر البداية؟ منذ البداية لم يكن نشاطنا الثقافي يحاور نشاطنا العملي فقط، يعبر عنه او يستكمله، بل كانت الكلمة هي الفعل، لا حدود بينهما، ولا حدود بين الجسد واللغة، وذلك ما جعل الاغنية وطناً وما جعل الوطن اغنية. ومنذ البداية، لم يكن نشاطنا الادبي فردياً الا في المظهر. هو النشيد الواحد نكتبه معاً، سطراً سطراً، هو النشيد الجماعي الذي لا يزال مفتوحاً على البداية وعلى أفق الحرية.

لذلك، فان اتحاد كتابنا قائم، معنوياً، منذ البداية ولكن اعلان تأسيسه العملي، الآن، هو تتويج لحاجتنا الوطنية، في الداخل والخارج، الى بناء المؤسسة، والى وحدة التمثيل الوطني على اكثر من مستوى. انه شكل من اشكال تبلور الكيانية الفلسطينية بعد اربعين عاماً من الاحتلال ومقاومة الاحتلال الثقافي، وهو اعلان عن انتصار ثقافة الضحية على ما تعرضت له، طيلة عمر الاحتلال، من حروب

Twitter: @ketab_n

الالغاء والابادة.. واعلان عن هزيمة الثقافة الصهيونية، لا في معركتها فقط مع ثقافتنا التي تتكون من جدل العلاقة بين الارض والشعب والتاريخ والانفتاح الانساني، مقابل ثقافة الجيتو الروحية والزمنية العاجزة عن التكون في شروط الاحتلال والتنافر الذاتي والانقطاع عن مصادرها، بل هو اعلان ايضاً عن هشاشة تلك الثقافة في عملية توحيد حامليها على اسس سلبية هي خوفهم من الاندماج في ثقافة المنطقة.

انها دلالة رائعة ان يتشكل اتحاد كتابنا في الداخل في مناخ نجاحنا في توحيد صفوفنا في الخارج. لقد استلهمنا من مداخلاتكم المثمرة قوة للتغلب على ما كان يفرقنا من هامش السياسي اليومي. ومن المفيد القول ان جدل العلاقة بين الخارج والداخل قد وفر لكم ايضاً فرصة التأثر الايجابي بما يقدمه نشاطنا من ايجابية. ها نحن نتوحد على الجبهتين. ها نحن نسير على ايقاع واحد: شعب واحد، وطن واحد، وثقافة مقاومة واحدة. فلا ادري اذا كان من اللائق ان اعتذر لكم عن تأخري في ارسال هذه التهنئة، لان المرء لا يهنيء نفسه.

ولكنني، باسم اخوتك الكتاب في الخارج، اهنئك بثقة زملائك الغالية، بانتخابك رئيساً لاتحاد الكتاب بالاجماع، ايها السيد الرئيس منذ الآن والى ان يتمكن الفلسطينيون من العيش في مجتمعهم الواحد، فحينئذ سأقدم لك وستقدم لي شكوى لا تخلو من طرافة، لنتصرف معاً الى كتابة مذكرات البداية، على ارصفة الوطن، او الرحيل الحر الى اي مكان لا يلاحقنا بسياط الغربة، وتحت شبابيك الغناء الحر في ليل لا يطرد الغرباء.

والى ان يتم ذلك، اتمنى لك النجاح في موقعك الوطني والثقافي الجديد، واتمنى لك المقدرة على التعايش مع ما يُنغص مناخ هذا الانجاز من حديث انشقاق لا مبرر له. فقد استمعنا الى الاصوات الداعية الى التشكيك بشرعية الاتحاد، واستمعنا الى ما استمعتم اليه، ذات يوم، عندنا.

فهل من حقنا التدخل الاخوي في شؤونكم، لنناشدكم كلكم التخلص من آفاتنا؟ ففي الخارج، خارج داخلكم، اكثر من دولة عربية تطلب الوصاية. وفي الداخل، داخل خارجنا، دولة عدوان واحدة. فلماذا الخلاف على وليد منذور لتوحيد العائلة؟ ولماذا يستعير البعض من سلبياتنا ما يغريه بأن يفرض دكتاتورية الاقلية على الاغلبية، وهي صنف من اصناف الديمقراطية المقلوبة التي يدين بها العالم العربي الى ما آل اليه من لا معقول.. واختلاط فصول!!

واسمح لي، وانا أشد على يديك، ان أدعوك الى ترك باب الاتحاد مفتوحاً على

Twitter: @ketab_n

مصراعيه لكل من يخالفكم الرأي والعقيدة، فلسنا في حاجة الى ترف هذا الخلاف الذي لا يبرر الدعوة المتسرعة الى انشاء اتحاد كُتّاب بديل، والى مفاوضات توحيد، ومؤتمر جديد. أما زال في وسع المحتل ان يحتل المزيد من قدرتنا على الفرح بالوليد الجديد؟ أما زال في وسع المحتل ان يُحيل أزمته علينا بحصان طروادة من هنا، وحمار مسادة من هناك؟

لا، لا...

أخوك محمود درويش

(باريس ـ ٨٧/١٠/٥))

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قبلتي الحجر!

● اخي محمود،

وهكذا فأنت ترى اننا دائماً نعود. نُقلع في جهات الارض والجسد، نغيب في خبايا الروح، ونعود. دائماً نعود، الى ملمس العينين، الى بصر القلب وبصيرة الاصابع، الى هنا، حيث يكمن الحجر النظيف بجوار شجيرة القندول المزدهرة شتاءً في اعقاب شتاء. نعود الى الولادات المنتظرة وغير المنتظرة في فوضى هذا الزمن الجارح والمدهش في آن.

كان ان انقطع بريدنا شهوراً ثقيلة، وضجر سُعاة البريد الذين اعتادوا فضَّ رسائلنا وقراءتها قبلنا.

وماذا اقول لك يا ابا سليم عن رحلة الشرايين التي غَيَّبَتْني في دمي عاماً واكثر؟ كيف أصف خيبتي العائدة بلا بواقيت وبلا مرجان؟

لم أنجز سربيتي الجديدة التي بدأتها، كما انني لم اجد العزاء في اصداف الكلام الجميلة التي يتسلى بها المرء في موانيء راحته القليلة.

حين عدت الى مكتبي فوجئت بأكداس الرسائل المنتظرة بلا جواب. ولفتت قلبي من بينها رسالتك ورسالة صديقنا وشقيقنا الكبير ابي توفيق نزار قباني. وكانت جريدتنا «الاتحاد» قد نشرت رسالتك اليّ والى اخوتك في اتحاد الكتاب العرب، كما نشرت رسالة حبيبنا نزار المفعمة بالحرارة واللوعة والحب لفتيان الحجارة الذين يصفهم بأنهم السلالة الفلسطينية التي خلعت ملوك الشعر واستلمت زمام السلطة.

وكما تلاحظ يا محمود فهذا هو نزار الطيب، يعود الى مهمته «وبرامة الاطفال في عينيه»، ونحن نعلم ان مهمته تنسجم مع منصبه، ناطقاً رسمياً باسم الوجدان العام.

لكن ماذا بالنسبة لنا؟

من جهتي، أصارحك بأنني استقلت من وظيفة الناطق باسم الحاضر، فلشد ما أوجعتني هذه الوظيفة بخيباتها المتلاحقة. ولا اتعامل اليوم مع الحاضر الا من خلال المستقبل. وهنا لا أستطيع الا ان أجاهرك بقلقي ومخاوفي.

Twitter: @ketab_n

ارى ان انتفاضة فتيان الحجارة او «الشبان الاحرار» كما احب ان اسميهم، هي الحدث الاكبر اهمية وتأثيراً في التاريخ العربي المعاصر منذ ثورة «الضباط الاحرار» في مصر الشقيقة.. ولنستعد الاحداث قليلاً وبكثافة:

ثورة الضباط الاحرار.. آلت الى انور السادات.

انتصار الجندي العربي على نفسه وعلى عدوه في حرب رمضان آلت الى «كامب ديفيد».

سيناء العزيزة على قلوبنا.. قويضت بفلسطين والجولان ولبنان، وكلها فِلَذ من الوطن تستحق ان تكون هي الاخرى عزيزة على قلوبنا.

ومن إضراب الستة اشهر «ثورة ١٩٣٦» انتهينا الى حرب الايام الستة!

لـمـاذا؟

لأن السياسي ذهب دائماً الى الشعر (والشعر الرديء حتماً!) فحين كان السياسي يروج لقصيدة «خلّي السيف يقول».. كان يدرك ان السيف في يد العدو وليس في يده هو، وهكذا سقط سيف القصيدة وسقطت قصيدة السيف، ولم يبق لنا سوى السيف الحقيقي المصلت على رقابنا، سيف الاستعمار والصهيونية والاحتلال والرجعية والتخلف.

واليوم؟ نذهب نحن الشعراء الى السياسة فنطالب بحماية منجزات الحجر الفلسطيني، واخشى ان يذهب السياسيون مرة اخرى الى الشعر ويكتفوا بالغناء «خـل الحجر يقول».

صحيح يا محمود ان القيادات تبدلت وتباينت، صحيح ان هناك فرقاً جوهرياً بين قيادات الامس وقيادات اليوم، بيد ان القيادة الفلسطينية ليست وحدها على الساحة والقرار الفلسطيني «المستقل» يظل محكوماً بعوامل «قومية المعركة ودولية الصراع»، وهنا يكمن الخطر فلا يجوز لنا التغافل عن الانظمة والقوى التي اختارت قصيدة اخرى مطلعها «خلي الدولار يقول».

كم انا سعيد وممتلىء غبطة وتفاؤلاً بوردتنا الطالعة من حجر.. وفي الوقت نفسه فانني خائف على هذه الوردة.

وتعال نحاول النظر الى حجرنا هذا من زاوية اخرى:

ان مائتي مليون عربي، تعمر بهم قارة شاسعة واسعة لا حدود لثرواتها وخيراتها يجدون كرامتهم المفقودة في حجر عار تقذفه راحة فتى فلسطيني يكاد يكون عارياً في مخيم يكاد يكون عارياً منذ أربعين سنة.

لـمـاذا؟

Twitter: @ketab_n

لماذا لا يكون العكس المنطقي هو الصحيح المعيش؟
لماذا لا تكون هذه الملايين العربية هي التي تعيد الى الفتى الفلسطيني كرامته المغتصبة؟
أإلى هذا الدرك من الفقر السياسي والاخلاقي تردت أمتنا التي كانت عظيمة؟
ألا تستطيع هذه الملايين استرداد كرامتها ـ كرامتنا بنفسها؟
اما من حجارة في الوطن العربي؟
قسماً بكل ما نحب ونقدس، لو ان هذه الامة قررت مقاطعة الكوكاكولا الامريكية لاسقطت عالماً واقامت عالماً.
لكن ما العمل ولسنا بمسيطرين؟
واعوذ بالله من السيطرة بمعناها الرائج. انما حضرتني اللفظة بحضور بيتين من الشعر انشدهما قبل عقود من الزمن الشاعر اللبناني الفلسطيني وديع البستاني.
آنذاك رأى وديع البستاني غرفة الوكالة اليهودية في قصر الحكومة البريطانية فتمتم ملوعاً:

أرى الوطن القومي يعلو بناؤه
أرى غرفة في القصر تحجبه قصرا
فذكّرهو ذكرى ولست مسيطراً
مخافة يوم فيه لا تنفع الذكرى

لم يكن وديع البستاني مسيطراً. وما نحن بمسيطرين.. وقد ذكر وديع البستاني، وها نحن نذكّر. لم تنفع الذكرى آنذاك. فهل تنفع اليوم؟
أرجو ذلك يا اخي الحبيب.
أرجو وأصلي.. قبلتي الحجر.

أخوك سميح القاسم
(القدس ـ ١٩٨٨/٢/٨)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كرم نابوت، ومهنة الورد

● عزيزي سميح،

حسناً، ها انت تعود. سأعترف لك الآن بأنني كنت في حاجة ملحة الى هذه العودة من قبل... في الصيف المرّ الذي لم ينقذني فيه سوى الليلك من وحشة جديدة في الغربة القديمة. كانت في صمتي شهية كلام عن حيرة، وعن اختفاء في قلب لا يفصح عما فيه خارج تقاليده. وانا ايضاً أضعت كتابي الجديد الذي لم اكتب منه غير العنوان. واضعتُ اغاني نشيج كان انبثاقها الحر في حاجة الى الاعتراف بيأس الشوكة من الوردة.

مدى حديدياً كان...

ولكن شجرة مديدة تنشر عراء اغصانها وظلالها المثقوبة على الساحة كانت تلهيني في كل غروب. اذ كان يحط عليها، في البداية، طائر وحيد، ثم يطير ليعود بصحبة طيور اخرى، تتوزع على الغصون العارية، ثم يحلّق طائر آخر ليصطحب طيوراً اخرى، الى ان تمتلىء الشجرة العارية بآلاف الطيور التي يظنها عابر السبيل اوراق الشجرة. لقد ارتدت الاغصان عصافيرها... وتدلت فاكهة من ريشٍ ملون. وحين تغيب الشمس تماماً يخرج الطائر الاول كسهم من اعلى غصن على الشجرة، لتتبعه اسراب العصافير كلها. وفي لحظة واحدة تخلو الشجرة من اوراقها الحية، من طيورها، وتعود الى عرائها الاول... وحيدة في ساحة كبيرة. هل كانت محطة هجرة؟ وفي الغروب التالي يتوالى المشهد: تمتلىء الشجرة وتفرغ، ترتدي الطيور... وتعرى.

في قلب كل واحد منا شجرة عارية في ساحة خالية... شجرة تنتظر طائراً لا يحط عليها الا ليرحل عنها...

والمدى، حديدياً كان...

ولم أقل لك، من قبل، إلا هذا المعنى: الذاهب الى الكتابة لا يكتب. فالعزلة التي يحتاج اليها هذا المخاض الابدي ليست هي بعزلة الوقت ولا المكان. النهر ليس في النهر دائماً. هو فينا. ولكن ثمة مفارقة اخرى هي: ان القلب ليس في القلب، فقد تجده

Twitter: @ketab_n

هناك... هناك في الشارع، او على رصيف قطار. وقد تجده دون ان تبحث عنه، وقد تجده دون ان تلحق به، وهو يمشي امامك، يبتعد عنك ليلحق بصدى ايقاع بعيد.

ولأمر ما، نسافر لنندم...

ولأمر ما، نعود لنندم...

ولا فكاك من الحاضر مهما استقلت منه. فهو الطريق الوحيد، مهما ضاق واتسعت، الى نقطة المستقبل. انظر حماقة اولئك الذين ارادوا ان يقنعونا، بعدما اقنعوا انفسهم، بانهم انتقلوا بقفزة واحدة من الماضي السحيق الى المستقبل الخالد، من الأزل الى الابد، كأنهم أرواح طيبة أو شريرة منعتقة من قانون الزمن، من دون ان يلاحظوا ان ما كان مستقبلاً، قبل اربعين عاماً، قد تحوّل الى ماض...

قد يكون صحيحاً، من اجل لياقة الحوار، ان تقول الحكمة في لحظة من اللحظات: بقدر ما نقلل من الحديث عن الماضي نخدم المستقبل. وبقدر ما نقلل من الحديث عن المستقبل نخدم الحاضر. لا لشيء إلا لنوضح: ان حديث الماضي يحرك الجراح هنا. وان حديث المستقبل يثير الخوف هناك. ولا لشيء إلا لمعالجة السخرية الناشئة عن اشتباك بين الضحية والجلاد اشتباكاً بلغ حدّ العناق الدموي ـ في لحظة الحاضر التي يحاول الجلاد ان يركلها الى الماضي. وتحاول الضحية ان تركلها الى المستقبل.

ولكن الحاضر هو الحاضر لا فكاك منه لانه جسر الزمن، ولا فرار من وجهة سيره التي لم يحدث، مرة، ان اندفعت نحو الماضي، على الرغم مما يشهده واقع الحاضر من تقلبات وانتكاسات. وها نحن نصعد منه، ومعه، الى ما تؤدي اليه وجهته في تفاعل ارادتنا معها. ها هو المستقبل يزودنا بصوره الملموسة، ونحن ذاهبون اليه بكل ما أوتينا من عناصر قوة البساطة التي اربكت المعقد من اسئلتنا ومن اسلحة الاعداء. ها هي الطرق الى الوطن تصبُّ كلها في وطن الطريق المؤدي الى مستقبلنا الحر، المولود من هذا الحاضر...

بحجر، بحجر...

«ومن حجر سننشيء دولة العشاق ـ هكذا قال لي الايقاع قبل سبع سنين، دون ان أعني هذه الفطرة، هذه السليقة، ولا هذا السلاح.

ألا تمتلىء اغصان شجرتنا العالية العارية بملايين من عصافير تأتي لا لترحل، بل لترتديها الشجرة في هذا الربيع المبكر او المتأخر، كأنها تنبثق من كل حبة رمل، لتختم على مرحلة العسر والعقم بولادة العمر كله؟

نعم. إن المعاني التي يبذرها هذا الحجر، القادر على كل تأويل وترتيل وتنزيل، في

Twitter: @ketab_n

تحوله من تراب الى سنونو، من ماء الى نار، من هواء الى كلمة، هي اكثر ايام حياتنا موهبة وإشراقاً.

كيف تبزغ البطولة من المأساة، لا كيف تبزغ الجريمة من المأساة ـ هو الفارق الذي يقف على المنعطفات ليدل على تآخي شعب مع الحرية. وليدل ايضاً على عبث الخلط بين الخرافة والواقع.

هل كان في وسع يزهار سميلانسكي، قبل انبلاج هذا الحجر، ان يقتبس من «سفر الملوك» حكاية نابوت صاحب الكرم في مرج بن عامر، الذي حاول الملك آخاب ان يستولي على كرمه بالفضة فرفض، ثم حاول ان يستولي عليه بأن يبادله ارضاً بأرض فرفض، الى ان حلت زوجة الملك ايزابيل المشكلة بأن كتبت رسائل باسم زوجها الى الشيوخ والاشراف تحرضهم على اتهام نابوت، صاحب الكرم، بالتجديف على الله وعلى الشعب. فجاؤوا بشهود الزور «واخرجوه خارج المدينة ورجموه بالحجارة حتى مات. ولما سمعت إيزابيل بأن نابوت قد مات، قالت لآخاب الملك: قم لترث كرم نابوت اليزراعيلي الذي أبى ان يعطيك إياه بفضة، لان نابوت ليس حياً بل هو ميت»...

يعلق سميلانسكي على الحكاية: «تلك الارض التي نسميها «يهودا والسامرة» او «المناطق» او «المناطق المحتلة» ليست الا كرم نابوت الذي استولت عليه ايزابيل والملك بالقوة وبالخديعة. ان «يهودا والسامرة» ليس اسماً توراتياً. انه اسم مضاد للتوراة. ان «كرم نابوت» هو الاسم التوراتي الحقيقي والصائب». ويضيف: «والآن، لا نطلب من الواقعين تحت المطالبة بالانصياع وبين توقعنا ان المحتل سيتنازل عن الحرية ويخضع للاحتلال ـ هناك شعب حي، حي حتى لو سميناه «عربياً». والانسان الحي مخلوق للحرية»...

شعب حي مخلوق للحرية...

وانت على حق، يا عزيزي، في ان تنزف صرختك: اما من حجارة في الوطن العربي؟ ولكن، اياك ان تصدق الشكل الذي يتم فيه تقاسم الوظائف بين هذه العواطف. نعم، لقد وجدت الملايين العربية تعويضاً عن كرامتها في حجر. ومن قبو سجنها الكبير صفقت لنموذج البطل العائد اليها في طفل فلسطيني يُشهر آماله. اما بعض الكتبة، فلا يقرأ من آيات هذا الحجر غير ما يبرر التصاق جبهته بحذاء الحاكم، كأن يضع «الخارج كله» في صف واحد نقيضاً للداخل: الخارج كله شر مطلق. والداخل كله خير مطلق ـ وكفى الله المؤمنين شر القتال. بهذه الطريقة يبرئون ذممهم ويريحون ضمائرهم. واما بعضهم فقد أدمن شتم الذات لسهولة دوران هذه الاسطوانة ـ على

Twitter: @ketab_n

وتيرة جاهزة، في ثنائية تقليدية. وكأن الخارج كله ظاهرة واحدة لا تنوع فيها ولا تناقض. واما البعض الآخر، فلا تصدق انه مفتون بابداع اساليب جديدة في «النقد الذاتي»، (هل يعني احداً ان تعلن المومس عن مهنتها!): إن ما يعنيه هو التخصيص المغطى بالتعميم. ان ما يعنيه هو تفتيت وحدة الشعب الفلسطيني، وتحقيق التماهي بين الشعب العربي والحاكم. «كلنا سواسية في الخارج» هكذا يقولون، ليحرروا الحاكم العربي من مسؤوليته تجاه ذلك الداخل، البعيد، النبوي، الوحيد، المتروك لمصيره الموحش...

ليت الحاكم العربي يترك الداخل وشأنه، ليته لا يشارك الاسرائيلي الخوف من استقلال الفلسطيني العربي. وليته لا يشارك الامريكي والاسرائيلي عملية الاجهاز على الانتفاضة، وعملية البحث المضني عن بديل لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعملية البحث المضني عن بديل للخيار الفلسطيني يأخذ فيه الأمن العربي الرسمي دوراً اكثر فاعلية في قمع الانتفاضة...

هم الخائنون، يا عزيزي، هم الخائفون. لقد شغلوا انفسهم، طيلة الشهور الفائتة، في البحث عن منطقة عازلة بين الانتفاضة وبين منظمة التحرير. وحين تيقنوا من ضحالة هذا السؤال ازدادوا خوفاً وسخفاً. ولا تستهجن ابداً ان يرفعوا شعار الهروب الى امام، كأن يطالبوا الانتفاضة، وحدها، بمهمة تحرير كامل التراب الفلسطيني، من النهر الى البحر...

سيتآمرون، نعم سيتآمرون، فهل لهم من مهنة أخرى؟

اما الحجر الذي أطلع وردة، مرة، فقد أدمن مهنته: مهنة الورد...

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٨/٢/٢٩)

Twitter: @ketab_n

على هذا الحجر
ابني دولتي!

● اخي محمود،

لا اليهودي التائه ولا الهولندي الطائر! لا ليس هذا النموذج. وسنكون على صواب حين نلتفت الى انفسنا لنكتشف المثال الكامل لجوّابي الآفاق المناوبين في الفلسطيني المسافر. الفلسطيني الهائم على وجهه ضارباً في الارض وفي الفضاء. ومن اجل ماذا؟ من اجل ان يقولوا له بلغة اخرى غير لغته: اجل انت على حق. انت انسان عادي وتستحق وطناً عادياً!

هذا الفلسطيني المسافر ابداً والمقيم فينا ابداً هو الذي حملني فيّ الى بلاد اليونان يوم حمل اليّ ساعي البريد رسالتك.

كرم نابوت؟ او. كي. هم يقولونها الآن. يقولها ما تبقى على قيد الحياة من ضميرهم الموزع على الحياة والموت بالعدل وبالقسطاس كما يبدو! يقولها كاتبهم المحترم حقاً وعن جدارة يزهار سميلانسكي فلا تحظى بالاهتمام الا لديك انت نابوت الجديد.

وكما قيل قديماً، فالشيء بالشيء يذكر. وقبل عودة سميلانسكي الى «سفر الملوك» باثني عشر عاماً كان علينا نحن ان نعود الى ذلك السفر الرهيب لنعتبر ولندعو الى العبرة. ففي العام ١٩٧٦ وبعد يوم الارض مباشرة عقدنا مهرجاناً شعبياً ضخماً في الساحة الحمراء، ساحة عين العذراء في الناصرة. وهناك ألقيت قصيدتي «قد نمهل لكن لن نهمل». وكان نابوت وآحاب وسفر الملوك موزعين بين الجمهور الغاضب والشرطة المتوفزة واللحظة التاريخية.

تقتل في عز الظهر وترث المقتول ـ على عينك يا تاجر ـ
تقتل وتصلي. تلتمس الغفران.
فأي إلـه فاجر.
يقبل كفارة عارك. لن تنعم بالصفح. استرسِلْ...

Twitter: @ketab_n

وكانت هناك اسفار اخرى وكان هناك يوشع بن نون في طبعتيه القديمة والجديدة:

يا يوشع بن نون!
اســـمـع
يا يوشع!
اوقفت الشمس على اسوار اريحا؟
ارضيت الربّ القاتل؟
لا نعلم
لكنّا نعلم ان الشمس تسير على اعناق الشهداء
من جبل الشيخ الى سخنين
ومن المغرب لفلسطين
يا يوشع بن نون!

آنذاك لم يأت الرد من يزهار سميلانسكي. لقد جاء وبأقصى سرعة من بعض اعضاء الكنيست الذين طالبوا بحبسي سنة بدون محاكمة، وبتهمة التجديف!! مرة اخرى يبعثون نابوت ليصموه بالتجديف. ليقتلوه. وليرثوه من جديد!

وكم كان حكيماً ذلك الرجل الذي قال: ان التاريخ يعيد نفسه، لكن مرة على شكل مأساة ومرة على شكل مهزلة!

وللامانة التاريخية يا محمود، فان جملة من الناس العاديين الذين لم يجدوا لهم موقعاً في «سفر الملوك» يكتبون اليوم سفراً جديداً من الوعي ويرفضون الاسهام في مهازل ملوك اسرائيل الجدد. ونحن من موقعنا القومي والاممي نمد ايدينا النظيفة الى كل يـد، ومن أية لغة، تعترف لنابوت بحقه الشرعي المقدس على كرمه الشرعي المقدس.

ويقينـاً ان نابـوت العصـر لن يسلم عنقـه للجلاد. انه يقاوم الفرية بالحقيقة ويتصدى للدبابة بالحجر.

واذا كان الفلسـطيني القديم حد اطلق صرخته المدوية: على هذه الصخرة أبني كنيستي، فان الفلسطيني الجديد يعلنها متمترساً في كرمه: على هذا الحجر ابني دولتي!

ولنتحدث قليلاً عن الحجر:

أتيح لي في الآونة الاخيرة ان اراجع عدداً كبيراً من القصائد الفلسطينية لاعداد انتولوجيا الشعر الفلسطيني، وهالني ان الحجر هو احد الرموز الاكثر شيوعاً في هذا الشعر. وحتى لا يرميني احد بالزندقة وادعاء النبوة (حسبنا المتنبي!) فانني اذهب الى علم النفس على الفـور زاعـماً ان الاحسـاس بشيء من العجـز ازاء آلـة الحرب

Twitter: @ketab_n

الاسرائيلية ـ الاوروبية ـ الامريكية وآلة الصمت العربية، هو الذي يدفعنا الى الوقوف الروحي الأعزل الا من مادة الطبيعة المجردة ـ الحجر، في مواجهة التكنولوجيا المتطورة التي عملت ضدنا حتى الآن، على الاقل والاكثر معاً...

كأننا نقول لهم: حسناً لديكم التكنولوجيا ولدينا الحجر.. لديكم الميتافيزيك ولدينا التراب.. لديكم مشاريع الهجرة ولدينا خصب الولادة.. حسناً.. لن نفرط بالكرم وسنقاوم!

ولنتحدث قليلاً عن الحجر،

انني اتساءل احياناً، او على الاصح، حين يكون لدي متسع من الوقت للتساؤل: ما معنى هذا الاعجاب العالمي بحجرنا؟ الا يجوز لنا ان نعثر في هذا الاعجاب الاعلامي الصاخب على شيء من توبيخ الضمير لدى السيد عالم؟ فالاطفال لا يولدون مدججين بالسلاح.. ولعل السيد عالم يكابد وعكة من تأنيب الضمير لانه لم يحسن توزيع السلاح على ابنائه بحيث يأمن هابيل شر اخيه قابيل!

ربما ولعل!!

ويبقى الى اجل مسمى، هذا الفلسطيني المسافر، مسكوناً بالقلق، محموماً بالغربة، تتلقفه المطارات لتنثره الموانيء.. انما الى اجل مسمّى. والى اجل مسمّى، قطعاً وبكل تأكيد، فبعد كل هذا الليل لم يبق الا ان يشرق الحجر!

وسيشرق الحجر، شمساً استثنائية، لأن الشمس العادية منهمكة ببقايا الاسطورة، مبلبلة الخطا، بين اسحق شمير المقتضب بخطاه المقتضبة على ساحة العشب قبالة البيت الاسود في واشنطن، وبين خطا ولاة النواحي من مزق وطننا الكبير.

لا بد لنا من شروق. وسنصنع نحن شروقنا الخاص وسنوزعه على العالم بضاعة جيدة عالية الاتقان مختومة بلفة التبادل العالمية الواضحة: MADE IN PALES-TINE وستكون هناك بضع دموع غير مرئية تنشر اريجها الحاد على جهات المعمورة.

واننا لندرك تمام الادراك ان احداً لن يتركنا وشأننا. نعمل ويحاولون تخريب عملنا. هنا وهناك.. وهنا.

وكما تعلم يا محمود فإن احدى قواعد التخريب التاريخي التي يؤسسون عليها تقوم على مبدأ تشويه الصورة الخلقية والخلقية، تشويه صورة الجسد ومحتويات الروح. فنحن بشعون وكذّابون بالولادة (على حد تعبير وزير هنا اسمه؟ لا اذكر.. قد يكون «شرير».. اجل، ابراهام شرير، وهو سائح يعمل وزيراً للسياحة!).

Twitter: @ketab_n

وفي اطار عمليات التخريب يشنون اليوم حملة جديدة على القصيدة. والقصيدة المناوبة الآن هي قصيدتك عن الانتفاضة، فقد نشرت «معريف» جزءاً منها مسبوقاً بمقدمة شرسة على الطريقة المخابراتية. وهذه الصحيفة «السياسية» تتجاهل فعاليات الادباء والمثقفين اليهود المناهضة للاحتلال والداعية الى السلام القائم على الاعتراف بحقوق شعبنا، وتتجاهل ردود الفعل الواضحة والحضارية الصادرة عن الادباء والمثقفين الفلسطينيين، وتنقض على القصيدة لتنقض على الشاعر ولتنقض من بعد على الانسان ـ الشعب برمته.

وبحكم الضرورة فقد كتبت رداً على حملة «معريف» لينشر في الصحف العبرية والعربية. وقد تستغرب ان صديقنا اللدود القديم الشاعر حاييم غوري اتصل بي قبل قليل ليستفسر عن القصيدة قبل كتابة رأيه في زاويته المعروفة في صحيفة «دفار».. كان حديثي مع غوري حديثاً طويلاً وذا شجون وفاجأني تماماً حين قال: «كما تعلم وكما يعلم محمود فأنا لست محسوباً على الحمائم، الا انني في الآونة الاخيرة افكر بضرورة الحوار مع منظمة التحرير لنرى ما يمكن لكل طرف أن يقدمه من اجل السلام!».

وهكذا يا محمود، فان الكلمة التي بذرناها قبل ربع قرن لم تذهب هباءً!.. ها هيذي تشق صخرة الكارثة وتطل في برعم ضئيل، نرعاه بدموعنا ودمائنا، حتى ينمو، حتى تكون الشجرة، فلا بد من ظل في لفح الهجير ولا بد من أمل في هذا الظلام.

واسلم لأخيك المشتاق
سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٨/٣/١٧)

Twitter: @ketab_n

نعم.. بلادنا هي بلادنا !

● عزيزي سميح،

.. ولأسباب تعرفها، لم اكمل قصة نابوت والملك آخاب: «هكذا قال الرب: هل قتلت وورثت ايضاً؟. في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك انت ايضاً. من مات لآخاب في المدينة تأكله الكلاب، ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء».

لم أكمل اقتباس القصة، لان شعار «لن ننسى ولن نغفر» ليس شعارنا الجامد. ولأن الانساني فينا قادر على التسامح بقدر ما يتحرر.

لقد كتب يزهار سميلانسكي، قبل قليل، مخاطباً حكامه «لماذا التهرب، والتجاهل، والمماطلة، وكسب الوقت لخلق الوقائع لماذا هذه المماطلة؟ ألن تجلسوا مع الفلسطينيين في آخر المطاف؟ اذ لا مناص من الاضطرار الى الاعتراف بما لم يكن مفهوماً في البداية. فلماذا المزيد من الألم. لماذا لا تبدأون اليوم، وفوراً؟»

وعن هذه الحتمية، كتب صديقنا المشترك عاموس كينان «شئنا ام ابينا، سيحل السلام بين اسرائيل وفلسطين ولكن من سيطالب بدم الطفل الاخير الذي سيُسفك قبل حلول السلام بدقيقة واحدة؟». ثم دعاني كينان الى كتابة مرثية الطفل الفلسطيني الذي سيموت غداً..

في هذا المناخ، اعلن الاسرائيليون الرسميون الحرب على القصيدة التي لم تكتب بعد، وعلى القصيدة التي كُتبت، لقد حفروا فيها بحراً ليشيروا الى انه مقبرة اليهود!. فهل بلغ الاستشراق المخابراتي الاسرائيلي هذا المستوى العالي من الجهل، ليتهمني بأني ادعو الى رمي اليهود في البحر، عندما اطالبهم بالجلاء عن ارضنا المحتلة؟! كما يطالب اليهود يهودهم بهذا الجلاء ام انهم في حاجة ملحة الى هذه الفرية لاعادة انتاج المقومات المنهارة لبداية تحتاج الى تجديد بدايتها كلما اقتربت من نهاية؟

لا اخفي عنك، انني اتسلى بما اقرأ من ردود فعل كاشيوس الشيكسبيري المشار الى شره بكراهية الشعر، مقابل سائق التاكسي الفلسطيني الذي سألته وكالة

Twitter: @ketab_n

الصحافة الفرنسية عن سبب استماعه الدائم الى الشعر، فأجاب: عندما اقترب من حاجز للجيش استمع الى الشعر لانه يجعلني أقوى.

هل هذه الحملة موجهة الى القصيدة حقاً؟ لا اعتقد ذلك. بل هي جزء من الحملة الرسمية على وعي السلام الجدي الذي يعبر عنه عدد كبير من المثقفين الاسرائيليين واليهود الداعين الى الاعتراف بدولة فلسطينية، الى جانب الدولة الاسرائيلية، فور الانسحاب من المناطق المحتلة. والا، فما معنى قول «يديعوت احرونوت» انني وجهت ضربة قاتلة الى اليسار الاسرائيلي الذي يدعو الى ضرورة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية؟

ما هي الضربة؟ وما هي القصيدة؟ هل تخلصوا من حمى الاسئلة، ومن انشقاق الوعي، ومن حرب الحجر، ليشغلوا الرأي العام بقصيدة؟

وهل هم يخافون القصيدة حقاً؟ لا اظن. ولكنهم امتلأوا حتى التخمة بقصائد المهاجرين الاوائل عن تجفيف المستنقعات في الخضيرة. وعن عودة الى فردوس تمخض عن جحيم حروب لا نهاية لها، بطائرات تبعد الصراع عن ارض الصراع، الى ان اندلعت حرب الجوهر في الداخل، فلم يعد في وسع آلة التفوق العسكري ان تعمل، واصيبت الرؤوس النووية بالشلل، لان حسم المعركة بها يملكه الاسرائيليون من قوة لا يعني الا الانتحار.

هذا ما يصنعه الحجر الحي بعقلية متحجرة لم تتكون خارج شروطها الذاتية: اما الانتحار في الحرب. واما الانتحار في السلام. الانتحار في كل خيار. لان الدعوة الى سلام مشروط بالاعتراف بالحقوق والحقيقة الفلسطينية يعني، بالنسبة الى الوعي الاسرائيلي السائد، دعوة الى التخلي عن وجود لا يوجد الا في اختفاء الفلسطيني من الوجود. اذن، على احد الطرفين ان ينتحر، او على الطرفين ان ينتحرا! فالاسرائيلي الذي لم يحدد للفلسطيني غير هذا الدور، يتقمص الفلسطيني ليحدد للاسرائيلي ما حدده هو للفلسطيني من دور. ان الاسرائيلي هو الذي يحدد للفلسطيني لغته ونواياه! وان ذريعة «الدفاع عن النفس»، وهي احتكار اسرائيلي، في حاجة دائمة الى وحشية الآخر، في حاجة الى «لا سامية» ضرورية لتبرير الاحتلال الذي لا يداوى الا بمزيد من الاحتلال للدفاع عن الاحتلال!

وحين يضطر هذا الوعي الى التبدل قليلاً والى التكيف مع ظروف جديدة، فان الاسرائيلي يطالب الغياب الفلسطيني بالحضور الخاطف لمهمة واحدة محددة: ان يعترف الغائب بالحاضر. وان يعترف الغائب بأنه لم يحضر الا لكي يغيب. على المفقود ان يتحلى، دقيقة واحدة، بانسانية تمتحن مدى قابليتها للاعتراف برفاهية التخلي الحر

Twitter: @ketab_n

عن الوجود!

لا نهاية لهذا السجال العبثي لا نهاية له الا بتوقيع الفلسطيني على وثيقة التخلي عن الذات وعن الموضوع!! وعلى الفلسطيني ان يصدق في الاعلان عن ان بلاده ليست بلاده! لكي يوفر للاسرائيلي شروط الوجود. وهناك طريق آخر: على الفلسطيني ان يصدق في الاعلان عن انه لا يرضى بأقل من رمي اليهود في البحر، لكي يوفر للاسرائيلي حق الاحتلال وراحة الضمير!!

لا هذا، ولا ذاك، هو وعي الفلسطيني...

فلماذا يحتاج الاعلام الاسرائيلي الى قصيدة مثل قصيدة «عابرون في كلام عابر» ليختبر فيها براعته في القدرة على التزييف وعلى نفي انسانية الآخر؟ لماذا لا يرى من البحر وهو برية رحيلنا المائية، الا مقبرة اليهود؟ فمن هو الذي رمى الآخر في البحر وفي الصحراء.. من هو القرصان؟

وهكذا حاورني صحافي اسرائيلي:

☐ هل قلت لنا: اخرجوا من جرحنا؟

ـ قلت ذلك.

☐ لماذا؟

ـ لان جرحي هو ملكيتي الشخصية، هو جزء من هويتي فهل لك حق فيه؟

☐ لا. ولكن هل قلت لنا: اخرجوا من قمحنا؟

ـ نعم. قلت ذلك، لان قمحي هو رغيفي النظيف، فهل لك حق فيه؟

☐ لا. ولكن هل قلت لنا اخرجوا من بحرنا؟

ـ نعم قلت ذلك.. اخرجوا حتى من هواء الارض المحتلة.

☐ ولكن، لا بحر في الارض المحتلة!

ـ الا تعرف الخارطة التي تحتلها. غزة على البحر.

☐ هي تعني، اذاً، بحر غزة؟

ـ هذا البحر اسمه البحر الابيض المتوسط، لا بحر غزة.

☐ اذن، هل تعني ان علينا ان نغرق في البحر؟

ـ قلت لكم: اخرجوا من البحر. ولم اقل لكم: اذهبوا الى البحر.

☐ ماذا تعني، اذاً، بقولك «ايها المارون في بحر الكلمات».

ـ لم اقل ذلك، قلت: «ايها المارون بين الكلمات» وهناك فارق طفيف بين كلمة «بحر» وبين كلمة «بين».

☐ ولكن صحيفة «معريف» وغيرها من وسائل الاعلام الاسرائيلية تقول انك قلت

Twitter: @ketab_n

«بحر الكلمات».

ـ أنا أدرى بقصيدتي من وسائل الاعلام. ثم ماذا لو قلت «بحر الكلمات»؟ ما هي المعضلة؟

☐ ان في ذلك ايحاء برمينا في البحر.

ـ انك تحرك فيَّ الضحك.

☐ وهل قلت ان فيكم ما ليس فينا: وطناً ومستقبلاً؟

ـ نعم. قلت. ما الذي يثيرك؟

☐ أليس لنا وطـن ومستقبل.

ـ ليس لكم وطن ومستقبل في الاحتلال.

☐ قـل لـي: مـا هـي بلادك؟

ـ بلادي هي بلادي فلسطين.

☐ كـل فلسطين؟

ـ نعم. كل فلسطين بلادي. هل خدعك احد وقال ان فلسطين ليست بلادي؟!

☐ لا انها بلادي.

ـ انت تؤمن بأن بلادك قد تمتد من النيل الى الفرات وانا اؤمن بأن فلسطين، وحدها، هي بلادي.

☐ ونحن، ما هي حدودنا؟

ـ عليكم انتم ان تقولوا ما هي حدودكم في بلادنا. لان جزمة الجندي المحتل لا تصلح لان تكون حدوداً كما كان يحددها الجنرال ديان. اما نحن فلا نسأل ما هو وطننا لاننا نعرفه تماماً. بل نسأل عن دولتنا الممكنة من ارض وطننا. ونحن لا نأخذ منكم شيئاً لكم... نحن نأخذ من حقنا. فان تنسحبوا مما هو حولنا الى ما هو لنا لا يعني اننا نأخذ منكم شيئاً. هل تفهم؟

☐ لا أفـهـم...

ولن يفهم ان السلام ليس نقيضاً للحرية. ولن يفهم ان هذا السلام ليس عدلاً. ولن يفهم ان المطالبة الفلسطينية بحق العودة، وبحق تقرير المصير، وبحق انشاء الدولة الفلسطينية على جزء من الارض المحتلة لا يعني ابداً ان بلادنا ليست بلادنا. ولن يفهم ان المحتل لا يتنازل عن شيء يملكه. ولن يفهم اننا نحن الذين نتنازل.

من المدهش ان يدهش الاسرائيليون من قوة صفاء الذاكرة الفلسطينية. هل كان على الفلسطيني ان ينتظر الفي سنة لتأذن له الذاكرة اليهودية بأن يتذكر. وبأن يعود، مرة مع السيد بلفور، ومرة مع كورش، ومرة مع حاملة طائرات اوروبية، ومرة مع

Twitter: @ketab_n

البند العربي في احتياطي الامن الاسرائيلي؟!

ان عشرين سنة، واربعين سنة، لا تكفي لان ينسى الفلسطيني اختلاط عروقه بتراب بلاده. ما هي بلادك يا سيد سميح القاسم؟ تصور ان يوجه اليك هذا السؤال! وتخيل انك تجيبه بأن بلادك هي بلادك فلسطين. وتصور ايضاً ان يسألك: ما هي دولتك الفلسطينية. وتخيل ماذا يحدث له لو قلت: انها قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الاردن. سيقول لك: يا ابن الطابور الخامس... ارحل من بلادي ومن دولتي الى دولتك في غـزة!

وجـع، وجـع، وانشطار.

هل في المخيلة السوداء ما يشبه هذا الواقع؟

فنحن مطالبون الآن، منذ الآن، والى زمن لا نعرفه بأن نقايض موتنا الآمن بحياة الاحتلال المتوترة. الاحتلال في مأزق، وعلى الفلسطيني ان ينخرط في عملية انقاذ الاحتلال لان مصيره قد تقاطع مع مصير الآخر!!

لا يكفي ان تقول ان طريقة تعامل الاسرائيليين مع الحاضر الفلسطيني هي التي ستحدد طريقة التعامل الفلسطيني مع المستقبل الاسرائيلي.

ولا يكفي ان تقول ان طبيعة تعامل الاسرائيليين مع الوجود الفلسطيني هي التي ستحدد طبيعة التعامل الفلسطيني مع الوجود الاسرائيلي.

لان «العالم الاخلاقي» حريص على مصير الاحتلال اكثر من حرصه على مصير شعب. «مـاذا سيفعـل الاسـرائيليون المسـاكـين بعد الانسحاب؟ من يضمن لهم المستقبل؟» هكذا يتساءل الضمير العالمي، ويطالب الفلسطينيين بأن يتخلوا عن حصتهم من الماضي ومن المستقبل، من الذاكرة ومن الوطن ومن الحلم، وبأن يوافقوا على استبـدال جيش الاحتلال الاسرائيلي بقوات أمـن عربية تضمن لداء القلق الاسرائيلي علاجاً بعيد المدى، وتنقل الصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني الى حرب أهلية عربية، لا كاميرا فيها ولا شاهد.

اذا كان الامر كذلك، فان شعار «لن ننسى، ولن نغفر» هو شعارنا الطويل الطويل...

واذا كان الامر كذلك، فان الامر كذلك...

ومع ذلك، فان في وسع الشمس ان تشرق من حجر!

لان بـــلادنـــا هـــي بـــلادنـــا.

اخوك محمود درويش

(تونس ـ ١٩٨٨/٣/٢٢)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نحبها... ابنة الكلب الحياة!

● اخي محمود،

نعم، بلادنا هي بلادنا وتنطلق صلية من الرصاص الطازج على افواه كوكبة من الشهداء المناوبين. كيف تجرؤون على مثل هذا القول؟ ونعم، مرة اخرى، بلادنا هي بلادنا. فتمتد ذراع من الموت والفولاذ الى اقاصي الارض لتقتنص فلسطينياً يجرؤ على الحلم. وعبر سبعين وردة حمراء ندية على قميص ذلك الفلسطيني تدوي الصيحة من جديد، تدوي سبعين مرة، سبعين وردة، سبعين موتاً وسبعين ميلاداً. نعم، بلادنا هي بلادنا، ومع كل اغتيال جديد يتأكد القديم الاكيد، نعم، بلادنا هي بلادنا.. فلينعم القناصة العمي بالدم الكبير الملتف على ايديهم قضاءاً لا ينثني، وقدراً لا ينكص على عاصفته، اجل، هي بلادنا ولا بلاد لنا سواها.

واذا كان الموت حراً الى هذا الحد، فلا يبقى امامنا سوى ان نشاطره حريته هذه!

ان رغبة حادة في بكاء عاصف تأخذ بتلابيب قلبي.. وادري يا محمود ولا ادري، لماذا اصبحت الحياة غالية لديّ، وغالية جداً كقشرة البصلة. وأدري يا اخي ولا ادري، كيف اصف شعوري ازاء نبأ عادي في صحيفة اسرائيلية عادية (يديعوت احرونوت ٨٨/٥/٨) عن ذلك الفتى الفلسطيني الذي فوجيء بالمستوطن الاسرائيلي وهو يسدد سلاحه الى قلبه. لقد تعرف ذلك الفتى الى «جاره» اليهودي فصاح به: «يا شموئيل لا تطلق النار!» الا ان شموئيل لم يتردد، وبيد ثابتة ضغط زناد بندقيته مدفوعاً بارادة «الهية» لا ترد (...)

وكيف حالك يا ابن عمي وخالتي؟ ما اخبار الجراد في تونس؟ كيف الطقس في باريس؟ اذن فقد نجح فرنسوا ميتران. تستحق فرنسا هذا العقاب والأسوأ من ذلك انهم لم يرشحوا تشيتشولينا لمنصب امين عام الامم المتحدة. هل تعتقد انها كانت ستفوز؟ ستحتدم المنافسة بينها وبين مارادونا. اما رئاسة الولايات المتحدة الامريكية فلا تليق الا بالسوبرمان رامبو ستالوني.. انه رجل حقيقي هذا الولد الايطالي الاحمق. هل تعتقد انه سمع بدانتي اليجييري؟ ولماذا يسمع به؟ ذلك ليس

Twitter: @ketab_n

شرطاً لتسنم رئاسة الولايات المتحدة الامريكية! ثم ان رونالد ريغان لم يكن ملزماً بقراءة والت ويتمان، لكنه عرف والت ديزني بالتأكيد!!

انني تعب يا صديقي. تعب وعنيد مثل ثور، لا اجد للراحة سبيلاً ولا اريد التفكير، مجرد التفكير باليأس. وان لم اقل لك انني نهب رغبة جامحة في الصراخ، فلمن اذن اقول ذلك؟ ان غزالتي النافرة محاصرة حصاراً مطبقاً بين الخنازير الداجنة، وروحي باهظة يا صديقي. ولا ورد الا ما تبوح الدماء ولا ضوء الا ما يصيح الحجر.

لقد كانت رحلة وفد اتحاد الكتاب العرب الى تشيكوسلوفاكيا موفقة للغاية وعاد اخوتنا اعضاء الوفد بصيد وفير من السعادة، كما ان وفدنا الى بلجيكا عاد هو الآخر مثقلاً بفرح الانجاز ومتعة العطاء. بقي علينا ان نباشر اصدار مجلتنا العتيدة وسنفعل ذلك حين تتوفر لنا الشروط، وفيما بعد يكون هذا الاتحاد قد أرسى أسسه المتينة ويصبح من حقي ان افيء الى زيتونة هومي الشخصية لاقول ما لم اقله بعد، ويخيل لي احياناً انني لم اقل شيئاً طيلة حياتي وانني موشك على انفجار لا يُبقي ولا يذر.

ان كان لديك وقت للقراءة فماذا تقرأ في هذه الايام؟ لقد فرغت الآن من قراءة رواية استورياس «الها خاديتو». انها اشبه بقطعة انيقة من الماس. لقد نحتها الرجل نحتاً، لذلك لم استمرئها كثيراً. وبالمقابل فقد كنت استمتعت قبلها برواية ياشار كمال «ميميد الناحل». انها عمل عظيم حقاً. وفيها من الشعر بقدر ما فيها من الرواية وقد ذكرتني بأعمال كازانتزاكيس وماركيز وايتماتوف.

ولا اخفي عنك عجزي في هذه الايام عن قراءة الشعر. ببساطة لا استطيع ان المس ديواناً من الشعر، وارجو ان تكون هذه حالة عرضية عابرة.

وماذا عن السفر؟ لعلك لم تزل على سفر دائم. اما من ناحيتي فقد نشأت ظروف جعلت السفر امراً عسيراً، مما اضطرني الى الاعتذار وتأجيل دعوات الى الهند واستراليا والولايات المتحدة والمانيا الغربية وانكلترا واليونان ورومانيا.

اما المهمة التي كنت أتمنى حقاً ان اقوم بها فهي تلبية دعوة صديقنا الشاعر الدكتور عبدالعزيز المقالح للمشاركة في ندوة المثقفين العرب في صنعاء لدعم انتفاضة شعبنا.

وأية قسمة هي هذه يا اخي؟ الى متى أُحرم زيارة وطني الكبير؟ وهل سيكون عليّ ان اموت مثل طائر في قفص؟ صحيح انني احوم كثيراً في هذا العالم الا انه يظل على رحابته، قفصاً ضيقاً على جناحين يعتقدان ان سماءهما الحقيقية والاولى والاخيرة هي سماء الربع الخالي العامرة!!

Twitter: @ketab_n

اما اذا قيّض لك انت ان تشارك في هذه الندوة، فأرجوك ان تداعب شعر طفل يمني وان تلمس جداراً من صنعاء وان تربت على نافذة وشجرة وان تقول: هذه يد اخيكم من هناك!

وصافح اخوتنا وناسنا وقل لهم هذا قلب اخيكم من هناك!

لعلك علمت بأن مختاراتي الشعرية التي ترجمها الى الفرنسية اخونا وحبيبنا الشاعر المغربي عبداللطيف اللعبي صدرت اخيراً في باريس عن دار «مينوي» واليونسكو. ولدار «مينوي» هذه مكانة خاصة في ذاكرتي ووجداني، فهي التي نشرت ادبيات المقاومة الفرنسية في اثناء الحرب العالمية الثانية، وما زلت اذكر جيداً قصة «صمت البحر» لفيركور التي قرأنا ترجمتها العربية قبل عشرين سنة تقريباً. تلقيت دعوة من المركز الثقافي الفرنسي في تل ابيب لقراءة بعض قصائد المجموعة بالعربية والعبرية وليقرأها احدهم بالفرنسية. اقترحت عليهم دعوة صديقنا الممثل يوسي شيلواح ليقرأ بالعبرية نماذج من شعرنا معاً، من نصوص مسرحية الكولاج من الادب الفلسطيني. وحين كلمت يوسي بهذا الشأن بدا لي محطماً تماماً لان حرباً شعواء تشن في هذه الايام ضد مسرحيته. لقد الغت بلدية تل ابيب جميع عروضه واوصدت الابواب في وجهه، وسأحاول ان ارتب له بعض العروض في الوسط العربي. لقد تعب الرجل وشقي كثيراً لاعداد هذه المسرحية وحين ادرك الجماعة «خطورتها» اغلقوا نوافذهم في وجهها. ما لهم ولهذا «الوباء»؟

واذن، فانهم يرفعون ضدك قضية لدى القضاء الفرنسي ويطالبون بتغريمك! لقد ضحكت حين قرأت النبأ. ولا تنكر انك انت ايضاً ضحكت. انها صورة سريالية يعجز عنها سلفادور دالي نفسه. فأنت تسلم في نقاشك مع الخواجا فيزل بأن الضمير اليهودي معرض للاحتلال. ومن هذا المنطلق المثالي جداً تخاطب هذا الضمير وتدعوه للتحرك من اجل وضع حد للغبن اللاحق بشعبك. كنت اتوقع ان يقاضيك الفاشي «لوبان» لانه لا يمكن ان يسلم بنقاء الضمير اليهودي، اما ان تقاضيك جماعة يهودية فانها صورة سريالية حقاً!!

على اية حال، فهذه هي طبيعة الامور اليوم، ولن يكون بمقدورنا استبدال عصرنا بعصر آخر. نحن هنا وهنا محنتنا. لم نختر حياتنا الراهنة لكننا اخترنا نموذجاً لحياتنا المؤملة. وما دمنا قررنا الاختيار فلا يجوز لنا التملص من دفع الثمن كاملاً لهذا الخيار، وها نحن ندفع يا صديقي، ندفع دماً ودموعاً، وعياً وجنوناً، الماً وثورة.

Twitter: @ketab_n

ندفع دماً وشعراً، دماً وخطباً سياسية، دماً ومؤتمرات، دماً ونضالاً، دماً وفرحاً، دماً ودماء ندفع ليهود فرنسا والمان البرازيل، لهنود كوستاريكا وانكليز الهند... ندفع يا صديقي وندفع. لا ينبغي ان يوقفنا شيء، ولا شيء يوقفنا، لان وقوفنا موتنا، ولا نريد ان نموت، فنحن نحبها، نحبها ابنة الكلب الحياة...

أخوك سميح القاسم
(الرامة ـ ١٩٨٩/٥/١١)
[بالمناسبة، هو يوم ميلادي فكل عام وأنت بخير]

Twitter: @ketab_n

حنين الى الشعر

● عزيزي سميح،

أصابني ما أصابك من جفاف في الشهية الشعرية. لم اقرأ من الشعر، في الآونة الاخيرة، غير ديوان طرفة بن العبد، وقصائد للصّقلي ابن حديس، ومجموعة من قصائد اليوناني البلوري ايليتس. وهزتني كثيراً مختارات من آخر الفرنسيين الكبار رينيه شار.

انت تعرف انني أدمنت على قراءة الرواية. شرعت منذ قليل في قراءة التشيكي كونديرا لسبب لا اعرفه؛ بعدما فرغت من قراءة «التيجان في ملوك حمير» وكتاب عبدالرحمن الشرقاوي الشهير «علي امام المتقين».

اما الشعر آه من الشعر.. فإنه يبتعد عنا بقدر ما نقترب منه. ونبتعد عنه كلما اقترب منا، لان الحياة تأخذنا الى ما ليس فيها من شعر. فهل اعترف لك بأنني أحن الى كسل طويل، الى رصيف هادىء، الى حديقة آمنة، والى حب أقل لأكتب اكثر؟ لا اخفي عنك انني اعيش في قلق، قلق يتوتر الى حد التساؤل عما فعلنا في هذا العمر: هل كتبنا؟ ومتى نكتب... متى نكتب؟

الوقت يمضي بنا. يغافلنا ويمضي بنا. ولكن ما زال في مقدورنا ان نحلم بوقت نتفرغ فيه للبحث الانيق عن الفارق بين ما يقوله الواقع وما قد يقوله الشعر: وعن تخصص النص بخصائص الانتماء الى هذا الواقع دون ان يكون ملحقاً به، وان يقول الواقع بلغته لا بلغة الواقع. وباختصار: اين شاعرية الشعر؟

لقد تعودت على هذا الاحباط. ولكن هل ينجو الشاعر دائماً من خطر الجفاف؟. هل تتفتح الوردة دائماً في كل ربيع؟. بعد نجاتي من خطر الموت في فيينا صرت عدوانياً مع الاطباء، مأحالوني الى طبيب للعلاج النفسي. ولكنني قلت له بعد جلستين: اذهب، فلست في حاجة اليك... لانني اعرف ما بي.

كان عليّ ان اعيش حياة جديدة وتقاليد عمل جديدة. كان عليّ ان أتحول الى كلب حراسة لقلبي. كان عليّ ألا ابلغ التوتر العالي الضروري للكتابة. لم يكن ما يخيفني

Twitter: @ketab_n

فقط هو انني لن اعود قادراً على الكتابة، بل هو احساسي المدمر بأنني لم اكتب شيئاً. كنت اخسر مبرر وجودي، كنت أمر على الارض كورقة بيضاء.

وحين نسيت قلبي، كتبت كما لم اكتب من قبل. كنتُ في سباق مع الموت. سألوني: لماذا تكتب؟

قلت: لأنني سأموت.

ان شيئاً من تلك العتمة يحتل روحي الآن. اريد ان اكتب... اريد ان اكتب. ولكن الكتابة لا تغتصب اغتصاباً، كما لا تغتصب الشهوة!

لقد انتبهت الى الخطر الناجم عن هروب الرصيف من ظهيرة باردة، وعن رحيل الكسل عن نخلة المساء. مررت، امس، في احد شوارع تونس لاجد ما يجرحني من جمال: صفين من شجر لا اعرف اسمه ينشران مناديل شفافة من الليلك الطائر في سماء عابرة وعلى الارض الرطبة حبات من رذاذ الليلك. قلت لصاحبي: انظر... انظر الى سحابة الليلك. ابتهج بها صاحبي لينساها بعد قليل: عليك ان تؤجل شاعريتك... فأنت في خطر!

ما قيمة حياة بلا شاعرية. او ما معنى وجود مُطالب بقمع شاعريته؟ ولكن الممثلة فانيسا ردغريف جرحتني اكثر: هل انت ابن محمود درويش؟ قلت لها: لا. انا أبوه!

هل انا حقاً ابوه، ام انا ابنه؟ كلا السؤالين يشير الى انفصال، ويدل على غائب. فالشاعر موجود في شخص آخر. الشاعر شائعة او ظل. فإلى متى انتظر عودة المهاجر الى المنفى الاصلي!!

قلت اكثر من مرة ان ما يعجبني من شعر هو ما ليس يشبهني من شعري او من شعر غيري. لذلك لم يحدث ابداً ان قرأت نصاً كتبته خوفاً من الندم: كان عليّ ان اكتب بطريقة اخرى: كان عليّ ان اختلف اكثر!

لم أشارك، منذ مدة، في أمسيات شعرية. وحين وصلت الى قاعة النادي الدولي في بروكسل منذ ايام، همست في اذن صديقي: لا شهية لي... لا شاعرية فيّ... فماذا أفعل؟. ولكن كان عليّ ان اقرأ. فقرأت ما ليس معروفاً من شعري... قرأت القصائد الشخصية، فاشتقت الى الشعر، اشتقت كثيراً الى الخيبة!

أما من مكان للفرح في القصيدة. اما من مكان للقوة. اما من مكان الا لما فينا من ضعف انساني ومن هشاشة في العزلة. أهذا هو مجال الشعر؟

ربـمـا؟

على الشعر ان يحاذر قول ما يمكن قوله بغير الشعر ـ تلك هي حكمتي اذا جاز

Twitter: @ketab_n

لي ان ادعي الحكمة. ولكن كيف ندرك ذاك الهامش. كيف نعرف الفارق الصغير بين ما هو شاعري وما ليس بشاعري.

إني اشكو المقعد. أشكو من الجلوس على المقعد، حتى لو كان مقعداً من هواء! ستقول كما يقول الكثيرون: ولكن لنا خصوصية، وتلك هي شروط حياتنا. نعم، نعم.

هل تذكر العابنا في ذلك السجن؟ رقصاتك مع البحارة في النوادي الممتدة على رصيف الميناء. حبّ البحارة العابر على طريقة بابلو نيرودا. الايقاعات الاولى لقمر غارسيا لوركا العجائبي. والتخريب الجميل الذي احدثه ناظم حكمت في سياق الشاعرية الاولى حين وضع الرغيف نقيضاً للوردة، وصدمة القراءة الاولى من خلخلة عفوية في نظام القصيدة الهندسي وفي مألوف الصورة، فاختلط عليهم امر الاستعارة مع الرمزية. و... الذهاب الاول الى شعر لا مدرسة فيه ولا معلمين...

حتى جاء حزيران ليربكنا ويربك الآخرين، لان الحماسة انتقلت من موقع اللغة الافقي الى مجال آخر تشهد فيه النفس على نفسها، بلغة كفت عن مناطحة الدبابة لتحاور ما في باطن الارض من موتى وجذور، فانتقل صراع الشعر الى صراع على هوية حجر، وتأويل ما يقدمه من قراءة وإشارة.

عاد الجنود الى ثكناتهم مهزومين. وخرجنا من السجن الجبلي الى البحر الأقوى... شعراء يرتبون الزنابق في مزهرية الصوت المطالب بأن يعيد النظر في نتائج الحرب، ليكون المهزوم اكثر انسانية من المنتصر. واختلطنا لنفترق. وافترقنا لنندمج. وكان على الشعر ان ينفض الرمل عن اسماء الشهداء، وان يروض الاعداء قليلاً لنذهب معاً الى محكمة العدالة. ولكن القضاة والشهود كانوا من الجنرالات المتقاعدين.

لم نلعن غير القتلة، فأصابت لعنتنا المجتمع. واتسع الصدى في امتداد الصحراء. وكان عليك ان تقبل دور المبشر المنادي على أفق. وكان عليّ ان اقبل دور الصوت المضغوط في زنزانة. كم نعرف ما فينا من قهر وسخرية. كم نعرف ان لا نهاية مرئية لهذا النشيد. وكان علينا أن ننشد...

هل كان سجناً ذاك الذي انت فيه؟ انت تقول: نعم. وتقول ان الأفق خلف الباب، وان مفتاح الباب في جيب الاغنية المنتظرة. وهل لك ان تقول غير ذلك. وإلا فكيف تحيا وتصدق ما فيك من قول لم تقله!

كم أفهم حنينك المجنون الى مواقع تكوينك الروحي، الى شوارع المدن العربية، الى ما كان والى ما سيكون من تاريخ. وكم اغبطك على هذا الحرمان، لا لأنه سيسفر عن خيبة، بل لأن تلك الشوارع تشرئب كلها الى الشارع الذي أنت فيه، الى النار

Twitter: @ketab_n

التي تحرقكم وتضيئنا!!

سأبلغ سلامك الى الشوارع والنوافذ، بعدما عجز الخطاب الرسمي عن اختراقها، وعجز عن طرد بلادك من الوعي العام، وعجز عن التشكيك بالرسالة الفلسطينية. لقد جس خليل الوزير، شهيداً، نبض القلب العربي فوجده سليماً سالماً معافى من امراض الخطاب الرسمي الذي لم يصل صداه الا الى كتابه المقعدين.

الانتفاضة... الانتفاضة هي عمرنا الجديد. هي الفرح الصعب المصنوع من شقاء جيل عثر اخيراً على السر، على الشعلة، وعلى الطريق. يستطيع الكثيرون منا ان ينصرفوا الآن اذا عجزوا عن ادراك اللغة الجديدة، فلا حاجة لأحد، بعد الآن، بالعقلية القديمة. ولا حاجة لاحد بمحاورة الاحتلال الذي أغلق جميع ابواب الحوار، ما دام الوعي الخرافي الوحشي هو الوعي السائد، وما دام المجتمع الاسرائيلي مريضاً الى هذا الحد، فها هو يدرب شبيبته على تعذيب الجسد الفلسطيني بسادية ولذة.

وها هو المجتمع الفلسطيني يواصل التعبير البطولي عن انسانية تطرد من المجتمع الاسرائيلي المريض آخر مبرراته الاخلاقية. «ما قيمة اسرائيل بلا ديمقراطية؟ ما مبرر اسرائيل بلا اخلاق» ـ هكذا ينوح عشاق اسرائيل الغربيون.. وهكذا نسخر مما نعرف.... من خرافة مسلحة صار قانون ديمقراطيتها مشروطاً بأن يعترف المرشح للبرلمان الاسرائيلي بأن «اسرائيل هي دولة اليهود». فماذا يفعل الكاتب الاسرائيلي انطون شماس بجنسيته الاسرائيلية، طالما ان اسرائيل هي «دولة اليهود»، لا «دولة الاسرائيليين»!!

نعم، سأذهب الى المحاكمة، لا لأدافع عن نفسي، بل لأحاكم الابتزاز الصهيوني الذي يريد أن يقنعني بأن الضمير اليهودي ملحق بالاحتلال الاسرائيلي. سأحاول ان ابرىء الضمير اليهودي من تهمة المشاركة في قتل اطفال فلسطين. فهل استحق المحاكمة على هذا الايمان؟

إسخر، يا اهبل، إسخر...

وسأسخر بطريقة اخرى حين سأضطر الى الدفاع عن حقوق الانسان اليهودي في الهجرة الى حيث يشاء. فالاسرائيليون والامريكيون الذين حاصروا مفهوم «حقوق الانسان» بمعنى وحيد هو حق اليهود السوفييت في الهجرة الحرة... هم الذين ينتهكون حقوق الانسان اليهودي بارغامهم اياه على الهجرة الى اسرائيل لا الى

Twitter: @ketab_n

الولايات المتحدة كما يريد...

وهكذا فانهم يحولون المهاجرين اليهود من مهاجرين الى أسرى وسبايا لا حق لها في اختيار وطـن منفاها وهجرتها.

هـل ترى ما يفعل الاسرائيليون باليهود؟

إسـخـر، يا اهبل، إســخــر.

اخوك محمود درويش

(باريس ـ ١٩٨٨/٥/٢٤)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الموت واللقاء...
هناك او هنا

● اخي محمود،

لعلك تذكر ان الورود كانت دائماً تلك الاصابع الالهية التي ما ان تلمس القلب حتى يغمره ضباب من أسى لا يوصف.

وبعد غروب الشمس عن هذا النهار الذابل، كان عليّ ان اسقي الورود الناشئة في حديقة منزله (المنازل لله)!

ومع رذاذ الماء المتناثر على نبات الروح الشفاف، تساقطت من حنجرة اخيك قطرات صغيرة من الدمع. (الدمع مصدره الحنجرة، اما العينان فليستا غير ظاهر النبع).

لقد رحلت خالتك «ام قاسم» التي احبتنا على علاتنا، وأطعمتنا الكبة واسترضت الله علينا قبل سفرك القديم وبعده.

انها ترقد الآن في مقبرة العائلة، حيث يرقد جدي القديم وابي الاخير، رحلت مع الراحلين، لتعيدني دفعة واحدة الى طفولة راحلة وفترة موغلة في الرحيل: عرب رحل... شعراء رحل... اطفال رحل... ولا إله الا الله!

إنني اسند جسدي المرهق الى شجرة الروح العالية ابداً، أسند جبيني الى راحتي واكابر قليلاً لأكتب اليك. (للكولونيل من يراسله)... وماذا افعل بداء السخرية الذي يستشري يوماً بعد يوم وموتاً اثر موت، ويفتت قليل الجسد، بكثيره الناهش في الروح، النافر سراً وعلناً؟

لا بأس عليك اذا انت احزنتك سخريتي بعض الشيء فإننا نتسلى بأعصابنا، ونلوذ بما تبقى من هواجسنا: احتمي بهبلك كما تحتمي بهبلي، ونظل رغم كل شيء، ولدين عاقلين لدرجة الفجيعة.

لقد اصبحت الحياة (حياتي) على قدر باهظ من الانحباس، وغدا جنون الكتابة

Twitter: @ketab_n

عيباً اجتماعياً يضاهي الفضيحة... واختلط حابل المفاهيم والقيم بنابلها. ويقيناً اننا في حاجة قصوى الى انتفاضة تؤاخي بين الروح والجسد، وتجمع التفاحة الى الوردة والحجر الى السنبلة.

وكأني بك تكابد ما اكابد، فتلمح في رسالتك الاخيرة الى «المرشحين للبرلمان الاسرائيلي».

يا لمخلب قلبك الطيب، والذي لم تتقن حراسته ابداً. ويا لوحشة قلبي المعتزل في الزحام المنطوي في الجمهرة. ويا للقلق الذي لم يكف يوماً عن مباغتتنا بلا رحمة.

صحيح اننا تغيرنا كثيراً يا محمود، لكن ليس الى هذا الحد، وما زلنا غير صالحين للبرلمانات ولا هي تليق بنا. ولا احيق بها يدفعني الآن الى تكرار كلمات فرّجت كربتي قبل ما يقارب الخمسة عشر عاماً.

الموت، يا شعراء جيل الجرح، بالمرصاد واقف
الموت، للصوت المكبل بين آلاف المعازف
الموت، قلت،
فحاذروا لغط الاكاديمية الصفراء
واجتنبوا المتاحف
في معهد الريح ابتدأنا
فلنكمل... في العواصف!

وإن اخالك ليؤثر ان يكمل في العواصف... وإذا كنا ممن يحجمون عن وضع عندليب في قفص، فأنى لنا المواءمة بين عاصفة الايل وقفص العندليب؟

بدأت كتابة هذه الرسالة مساء امس في الرامة، وحين بكى الصغير «باسر» كفّ القلب عن البكاء، وذهب ليمارس مهنة الأبوة.

الحب، الرأفة والوقار... هذه هي اقانيم الابوة، ولك ان تشمت بي كما تشاء، فلا تدري نفس بأي أرض تموت!

وها أنذا الآن، أتابع مخاطبتك الصماء في مكتبي الحيفاوي الصغير...

على الجدار المقابل صورة كبيرة لصديقنا دراكولا (فلاد تسيبش) ذلك المناضل الروماني من القرن الخامس عشر.

لم يكن دراكولا غير مصاص دماء مقزز، يلتهم النساء ويتسلى بالجثث...

كانت تلك صورته المقدمة الى العالم عبر أدبيات تجار الغرب الاوروبي وسينما تجار الغرب الامريكي...

وكان عليّ بصفتي عضواً في الأسرة الدولية ان أتبنى هذه الصورة، الى ان أتيح لي

Twitter: @ketab_n

اكتشاف الحقيقة، حين دعيت وزوجتي لزيارة جمهورية رومانيا الاشتراكية الشعبية... وهناك أعدّ لنا مضيفونا مفاجأة في قلعة بران، قلعة دراكولا، فقد قدموا لنا تاريخ الرجل وصورته على طبق من فضة المعرفة وذهب التوثيق.

لم يكن ذلك الامير القاسي غير مناضل من اجل الحرية والامن الاجتماعي وقد وظف قسوته الشديدة لخدمة هذين الغرضين. بينما نشهد اليوم، وعلى اعتاب القرن الحادي والعشرين، كيف يوظف «امراء» العصر رقتهم المتناهية وشفافيتهم القصوى، لقمع الحريات ولسلب الامن الاجتماعي ونهب الطمأنينة السياسية والاقتصادية، ولتصنيف المجتمع البشري الى سراق ومسروقين وقتلة ومقتولين.

لقد حاولت، انا المخرب الفلسطيني والارهابي الايرلندي، وكاهن السيخ السفاح، حاولت انصاف ذاتي بانصاف ذلك «الفامبير» الروماني، فكتبت قصيدة «دراكولا ليس دراكولا»...

ولانني لا اجيد لغات العالم قاطبة، وليقيني بأنه ليس من المفروض او المتوقع ان يجيد العالم قاطبة، الشعر، فان دراكولا يظل في الوجدان العام، دراكولا نفسه، الى ان تتخذ هيئة الامم المتحدة قراراً يعفي دراكولا من صورته، ويضمن عدم لجوء الولايات المتحدة الامريكية الى «الفيتو» شريطة اعفاء الصهيونية من صورتها!

كل شيء بثمن.... وهذا هو ثمنك يا دراكولا اللعين...

وعلى الجدار المقابل، ايضاً، لوحات الفنان البريطاني رالف ستيدمان المتفاعلة بصدق ملموس مع قصيدتك وقصيدة اخينا ادونيس وقصيدتي.

وعلى الجدار المقابل ايضاً، جدار يكتب من جديد رسالته القديمة الخالدة: لك المجد يا باطل الاباطيل!

جدار وراءه جدار، وراءه جدار.

وعبر الجدران والاسلاك الشائكة في معتقل «انصار ـ ٣» الرهيب في صحراء النقب اللاهبة، تسللت الى جريدة «الاتحاد» رسالة من اخوتنا الشعراء والكتاب المعتقلين هناك، هي أشبه ما تكون برسالة الاستغاثة التي تبثها الى جهات الكون المعتم سفينة الجسد الموشكة على الهلاك.

ليس ما يكابده اخوتنا هناك حجراً سياسياً وثقافياً فحسب، انهم يتعرضون للتعذيب الجسدي الرهيب: من منا دراكولا؟ ها، قل لي اين يقع دراكولا؟ وماذا نفعل ازاء هذا الفصل من فصول الجحيم المتعددة المسالك، العديدة الابواب، ذات الاتجاه الواحد؟

لقد قرر اخوتك في اتحاد الكتاب العرب هنا توجيه نداء آخر الى ادباء العالم

Twitter: @ketab_n

ومفكريه وفنانيه... وقرروا تجنيد اكبر قدر ممكن من الكتاب الديمقراطيين في البلاد وفي العالم كله لمواجهة هذه المحنة.

اضعف الايمان؟ لا بأس علينا إن نحن اشهرنا اقلامنا في وجوه الطواغيت...

ومن جهتي، سأكف عن الكتابة اطلاقاً وطلاقاً بالثلاث، لو فقدت الايمان بعلو يد القلم على يد السوط.

ولا ريب في انكم ستجندون قدرتكم الكبيرة على التحرك والتشعب، لايصال صوت الكلمة المشتعلة في معتقل «انصار ـ ٣» الى كل بقعة من ضمير في هذا العالم.

في تموز (يوليو) القادم، الثالث عشر منه كما اظن، تكون اربعون عاماً قد تكدست على دم شاعرنا وشهيدنا الحبيب عبدالرحيم محمود، الذي تيمن بالاسراء والمعراج في معركة الشجرة، واهوى نيزكاً ينشد على ايقاع الرصاص والشرايين المتفجرة:

سأحمل روحي على راحتي
وأهوي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان
ورود المنايا.. ونيل المنى...

لقد حقق عبدالرحيم محمود انسجامه التام. ودخل «نيرفانا» الخاصة به، طوبى له وطوبى لنا به، هذا المتناغم جسداً وروحاً، قولاً وفعلاً، لساناً ويداً، هاجساً ودماً. طوبى له هذا الغني المدقع، هذا الذي بلغ الكشف فرُؤيَ ورأى.

ونفكر في هذا المقام المشرق، ان نقيم مهرجاناً لذكرى عبدالرحيم محمود في موعد اندغام الحرف بالوريد، ونرجو ان تكون هناك، بشكل او بآخر، ولا يهم. سنكون معاً.

وصلتني الدعوة للاسهام في مهرجان الشعر العربي الذي ينظمه اخونا رياض الريس في لندن. ارجو ان اتمكن من المشاركة، وآمل ان نلتقي هناك... او هناك... او هناك... الى ان نتمكن اخيراً من اللقاء هنا وهنا وهنا.

اخوك سميح القاسم
(حيفا ـ ١٩٨٨/٦/١٢)

Twitter: @ketab_n

اشرح لهم...
اشرح لهم صبرك

● عزيزي سميح،

بين عاصفة وعاصفة، قد نجد مقعداً للحنين او للوداع. طوبى لهذه السكنى القصيرة المسورة بالريح. ولكن، لماذا تخشى السخرية؟ اذا كان لا بروقك تعريفها بأنها «اليأس وقد تهذب»، فإن في مقدورك ان تسميها ما شئت، شرط ان تدرأ عنك البكاء.. وان تقترح وردة على الليل.

أمك، ام قاسم، أمنا المشتركة، تنام اخيراً على متر من وطن. كيف اواسيك وانت على مقربة من ثراها خذ قصفة من حبق واذهب اليها، وقبّل ثوبها الترابي باسمي. كلّمتها منذ شهر ولم تقل لي انها ستغادر ذاك البيت القديم. كلمتها ولم تخبرني بأنها ستذهب بهذه السخرية العبثية الى النهاية.

لا اذكر منها غير جمالها الناطق وصلاتها الصامتة على ولدين منذورين لما يقلق الامهات. قالت انها قوية وستحيا من اجلك. والآن، لا استطيع ان اتخيلك بلا أم ايها الطفل الابدي. لقد اختارتك انت، لتكون يوسف قلبها. الانك جدير بكل حب؟ ام لانك ذاهب في طريق الشقاء والحرية؟

كل الذين نحبهم ذهبوا... وسيذهبون.

لا تنس ان تنثر عليها ما وسعك ان تنثر من حبق. الم تكن هي سيدة الحبق، كلما فركنا يدها او ثوبها صرخ العطر بنا ونهانا عن انكسار لا يليق بأغنية صاعدة. ولكن لك، يا عزيزي، اما ثانية. لك امي التي كفّت، منذ سافرت، عن ادراك الفارق ما بيني وبينك. عرِّج عليها في طريقك من حيفا الى الرامة، لتعوض عنك غياب «ام قاسم». عرِّج على «ام احمد» لتعوض عنها رحيلي الطويل.

«آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر». كم تمنينا ان تكون معنا في صنعاء. لقد نشر الاخوة اليمنيون حسرتك: «هل سيكون عليَّ ان اموت مثل طائر في

Twitter: @ketab_n

قفص؟ صحيح انني احوم كثيراً في هذا العالم، الا انه يظل على رحابته قفصاً ضيقاً على جناحين يعتقدان ان سماءهما الحقيقية والاولى والاخيرة هي سماء الربع الخالي من بلاد العرب العامرة».

وجاءني اكثر من اب يمني مطالباً بتحقيق رغبتك بمداعبة شعر طفل يمني. وظلوا يسألون: لماذا لم يأت الى صنعاء؟

كيف اشرح للناس ما لا يشرح الا بالسخرية. كيف اشرح لهم ان قانون الجيتو الاسرائيلي سيحاكمك، لو جئت الى ارض العرب، بتهمة «الاتصال بالعدو»؟

على ألف مسرح ان ينهار امام صرخة لم تصرخ: كيف؟

إن عليك انت، يا عزيزي، ان تفجر هذا الحرمان الجهوري. لان اللامعقول الذي انت فيه صار معقولاً الى حد يحتاج الى شهادتك والى صرختك. انت، ايها العربي الممجد لانك هناك حارساً لشجر الخروب ولون السماء. ايها العربي المقدس لانك في القدس جسداً للمعنى وحاماً بطير على جامع ومسجد وخوذة. انت ايها العربي الواضح لذاتك كتضاريس حجر. انت ايها العربي المدفوع الى هاوية الغموض المحيط بأجمل ما فينا من وضوح. اشرح.. اشرح صبرك، واشرح لاهل اليمن حق راعي البقر اليمني، اذا كان يهودياً، في دفعنا من الحقل الى ما وراء السياج. واشرح شرط قداستك في ان تكون هناك بأن يكون وطنك الصغير «وطن اليهود فقط» وبأن يكون وطنك الكبير «وطن الاعداء»!!

اشرح صبرك، او فاشرح ضيق صبرك.

فهل سيفهم احد ما تعاني، وما تكابد. أيهذا الناجي من العواصف بعاصفة، أيهذا الطاهر في وحل المفارقات.

لكن الابيض ابيض!

لم يحدث في تاريخ السطو البشري، يا عزيزي، ما يشبه هذا السطو، كأن يرافق الطرد من الوطن بمحاولة الطرد من الوعي والهوية. وكأن نعجز عن قول ما هو مقول في الواقع بطريقة لا تخرب توازن الكرة الارضية. فعندما يتحول الاحتلال الى «وطن وحيد» للمحتل تصير مطالباً بأن تعتذر عن كل سليقة، وبأن تبرز اناقة قتلك بخصوصية لا تؤذي سمعة الخنجر المغروس في لحمك، لا لشيء الا لان شخصاً آخر قد قتل والد قاتلك في مكان آخر. أنت.. أنت الثمن. ولا لشيء، الا لأن القاتل ليس خائفاً من القتيل مرة اخرى فقط، بل لانه خائف من ان يفقد هوية الضحية. أنت.. أنت الثمن.

لم يحدث في تاريخ الجريمة قط ما يشبه هذه الجريمة: كأن تمنع الضحية من

Twitter: @ketab_n

تسمية قاتلها، وكأن تمنع الضحية من مطالبة قاتلها بالتوقف، قليلاً، عن القتل من اجل حوار عابرا

الى الجحيم

الى الجحيم

فالقاضي هو القاضي.. هو القاتل المتقاعد..

والشاهد هو الشاهد.. هو قاتل والد القاتل المطالب بتكفير عن ذنبه القديم بالتواطؤ مع القاتل الجديد.

وهكذا نسأل: لماذا تعكرون صفو الاحتلال؟ لماذا تطالبون المحتل بالانصراف. الى اين ينصرف وقد صار الاحتلال هو الوطن الوحيد؟

ليس من حقك ان تقول: ليس هذا الشأن شأني. فإن عليك انت، الضحية، ان تضمن الحدود الآمنة والخارطة الغامضة الآمنة للآخرين في جسدك. وعليك انت ان تقف خارج جسدك. وعليك انت وحدك ان تجد حلاً لمصير جلادك قبل التفكير في البحث عن حل لمأساة وجودك.

إشرح، إشرح لهم صبرك.

وسيسألونك: اذا دخل لص بيتاً، وفوجيء بقبعة صاحب البيت معلقة على المشجب، فمات من الخوف. فمن سوف يكون المتهم بالقتل: هل هي القبعة.. ام صاحب البيت الذي علق القبعة؟

سيكون اللص بريئاً كالمعتاد!!

ولكن اذا قتل جندي اسرائيلي طفلاً فلسطينياً، فمن هو القاتل؟ هل هو الجندي، ام الطفل الذي هيّج اعصاب الجندي بلعبة الحجر، فأرغمه على قتله. ثم عالج عذاب ضميره بالبكاء؟

ما دام القاتل يبكي فإنه بريء. وما دامت الضحية عاجزة عن البكاء فإنها متهمة بالتسبب في القتل، وبموت الضمير..

الى الجحيم

الى الجحيم

.. وآه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر.

وكم افتقدناك في صنعاء. فبعد مؤتمر القمة العربي «الطارىء» جداً الذي انعقد بعد ستة اشهر من اندلاع الانتفاضة، انعقد مؤتمر قمة المثقفين العرب لدعم الانتفاضة ليكتشفوا ان الانتفاضة هي التي دعمتهم في عملية عودة الروح اليهم...

كان المشهد جميلاً في وطن العرب الاول. وكانت النوافذ العربية، من صنعاء الى

Twitter: @ketab_n

مراكش، تطل على ساحة الحرية الاولى التي افتتحها الطفل الفلسطيني. وكنا نسأل هل كنا في حاجة الى حجر لنعرف كيف لم تثلم روحنا، ولنعرف اننا عرب الى هذا الحد؟ وكنا نتساءل: لقد اعطتنا الانتفاضة ذاتنا المفقودة، فماذا اعطيناها. وكنا نحتج: كيف نناصر انصار الانتفاضة ضد آلة القمع العربي الرسمي في الوطن العربي الخالي من الحجارة؟

سوف يبقى المثقف العربي حائراً. لقد وجد ذاته ولم يجد، بعد، أداته. وكنت اتابع الصدى: «بقدر ما نبحث عن وسائل الترابط والتجاوب بين الفعل البطولي الفلسطيني وبين الفعل الثقافي العربي، فاننا نلتصق اكثر بدورنا وذاتنا، ونصوغ مقدمات مستقبل آخر للعلاقة بين الثقافة والواقع.

وكنت اتابع الصدى: «ان فلسطين كانت دائماً اغنيتنا المنشودة وجنتنا المفقودة، تتقدم الآن منا وطناً ملموساً قابلاً للاستعادة، لها ولمعناها المتحرر والحر في وطننا الكبير، وللعلاقة الاحتفالية بين حرية الابداع وبين ابداع الحرية...

وكنت اتابع الصدى: «ليس للانتفاضة في لغتنا من وصف ادبي، فهذا الاختلاط الواقعي والطقوسي بين الوجع العظيم وبين الفرح العظيم في عملية الولادة الكبرى، ما زال يدفعنا الى كسر الغياب الذي هدد اللغة بالانكسار. كل شيء فينا يعيد ترميم اوله الصلب، ويحمل الالتزام الى منطقة كادت تبتعد: الى منطقة اكثر عفوية وسليقة، واكثر مرونة نظرية.

وكنت اتابع الصدى: «لقد خرجت فلسطين مما كادت ان تدخل فيه من مخيلة، خرجت فلسطين من الاستعارة، وخرجت من الاسطورة. قفزت من النص الى الواقع كنسر يقفز من لوحة منحوتة. لقد عاد الوطن من المنفى الى المكان. ان فلسطين، كما تتجلى في الانتفاضة، هي شعب يقاوم الاحتلال على ارض الوطن المحتل. هي شعب، لا مفهوم ولا نشيد. هي شعب يرفع بالاجساد الدامية مطالب وطنية ملموسة ومحددة، علينا ان نتبناها.

وكنت اتابع الصدى: «تقول لنا الانتفاضة، بأدواتها الانسانية المتفوقة التي تقاوم الوحش، وباصرارها على الاستمرار، تقول لنا كما تقول للعدو: ان الحل ممكن. ان الحل واقعي وممكن ولا ينقصه من فرص التنفيذ الفوري غير ما ينقص الوضع العربي الرسمي من ضرورة انقلاب على المنهج، ومن تحرر من التبعية الكاملة للارادة الامريكية ـ الاب الشرعي شبه الوحيد لمشروع التوسع الصهيوني، مما يحرم الانتفاضة من قوى عربية قادرة على اختصار طريق العذاب. واذا كنا نلاحظ ما أحدثته الانتفاضة من تأثير ايجابي على الوعي العام الانساني، وما احدثته من خلخلة

Twitter: @ketab_n

في الوعي الاسرائيلي المتخبط في مأزق تكوينه الاول، وفي عبثية الخلط الشقي بين الحدود والوجود، فاننا نلاحظ مظاهر العجز العربي الرسمي عن ممارسة فعل يدفع المأزق الاسرائيلي الى زاوية اضيق، ويفتح امام الانتفاضة آفاقاً اوسع. ان مقاومة ما يشبه الحصار الذي يضربه العجز العربي على الانتفاضة وعلينا هو احد مهامنا العاجلة».

كان ذلك هو الـــصـــدى.

اما الصوت، فانه قادم من هناك: من بلاغة الحجر، ومن بساطة الحجر...

اخوك محمود درويش
(باريس ـ ١٩٨٨/٦/٢١)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إحذر...
البرد والشرطة والتدخين

● اخي محمود،

هو اضحى آخر. فكل عام وانت بخير. وكل يوم واضحياتنا بخير. يد على حجر. حجر على دم. دم على دم. كل يوم ونحن بأضحى. وبغير ذلك لن يكون هناك اي خير.

ما كان في نيتي ان استذكر برد لندن في هذا النهار القائظ. الا ان وسائل الاعلام النشطة لا تتيح لي مثل هذه المتعة، قد الحَت، تلحُّ، اصراراً، (مع الشكر لصديقنا عادل امام) على التذكير بما لا تروقنا ذكراه. وانني لانتفض غيظاً كلما استعدت شريط الاثارة البوليسية البريطاني.

ماذا تريد منا السيدة الشمطاء بريطانيا بقبعتها السخيفة وعروق ساقيها الزرقاء النافرة؟

لقد ضربنا صفحاً عن كل موبقات التاج الانكليزي في وطننا، وبشاعات تاريخه المتقرحة على جلودنا. نقلنا وجوهنا من سحنة «المندوب السامي» القذرة الى وجوه اصدقائنا الانكليز الشرفاء، فانيسا ريدغريف وكولن ولسون وارنولد ويسكر ورالف ستيدمان وجون هيث ستبز واضرابهم ممن شبوا على طوق «الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس» وانطلقوا في ارض الحضارة الانسانية بشراً سويين.

بذلنا جهدنا الممكن للابتعاد عن بريطانيا الاستعمارية التي طبختنا وفق قوانين الكوشير اليهودية وقدمتنا وجبة كاملة على مائدة الحركة الصهيونية... ثم بذلنا جهدنا الممكن للاقتراب من كل ما هو انساني ومتحضر لدى الشعوب البريطانية... بيد ان مصداقية دستويفسكي تطرح نفسها من جديد، لتؤكد مرة اخرى ان المجرم يعود دائماً الى مكان جريمته. وتعود الضحية الطريدة لتكون الشبح الطارد..

أنذا اعود الى مقر اقامتي في فندق تشلسي لاصطحاب قصائدي الى قاعة البلدية

Twitter: @ketab_n

حيث ينتظرنا جمهورنا الحار والطيب. أدنو من المصعد، وكما في الافلام الامريكية الرخيصة، يندفع نحوي ثلاثة رجال باللباس المدني، يشهرون في وجهي بطاقات ما ويعلنون: انت رهن الاعتقال!

ـ بأية تهمة؟

ـ ستعرف التفاصيل في مركز الشرطة.

ـ لكن جمهوراً كبيراً ينتظرني الآن ليسمع قصائدي ولا بد من إعلامه بما يجري.

ـ نحن نعلم منظمي المهرجان.

ـ في الخارج تنتظرني سيارة، يجب ان اخبر المضيفين بالامر.

ـ نحن نفعل ذلك. تفضل.

وفي الخارج، كانت سيارتان مدنيتان تنتظران قبالة مدخل الفندق. اما سيارة البي. ام. في التي تنتظرني فكانت بعيدة ولم اتمكن من الاتصال بها لان رجال الشرطة الثلاثة كانوا يدفعونني برفق لا يرحم الى داخل سيارتهم الاولى، حيث تجلس سيدة خلف المقود.

قلت: كيف لي ان اتأكد انكم حقاً من الشرطة وانني لست مخطوفاً من جهة ما؟

أبرز الضابط الجالس على الجهة اليسرى بطاقته مرة اخرى...

من السّهل تزوير بطاقة في هذا الزمن المزور. قلت:

ـ ان كنتم تخطفونني من اجل المال فقد خاب رجاؤكم.. وان كان ذلك لاجل السياسة فلنتحدث في الامر.

عاد الضابط القصير الممتقع ليقول انه لن يكلمني حتى مركز الشرطة. (علمت فيما بعد انه مركز بادنغتون لمكافحة الارهاب.. والمخدرات).

ـ هل استطيع التدخين؟

ـ لا. ستدخن في مركز الشرطة.

ـ حسناً. لماذا نسافر في غابة؟ هل مراكز شرطتكم في الغابات؟

ـ .....

آنذاك، وفي قلب الغابة، غمرني شعور رهيب باللامبالاة... تملكني الهاجس بأنني مختطف لصالح جهة لا علاقة لها بالشرطة. واقول لك يا محمود، انني لا استطيع ادعاء البطولة. تذكرت زوجتي واطفالي دفعة واحدة... تزاحمت في مخيلتي وجوه كثيرة... اقارب، اصدقاء، ناس من الناس، ورأيت جثتي المثقوبة بالرصاص طافية على مياه التيمز الآسنة.

حين اندفعت السيارة الى مدخل احدى البنايات تيقنت انني امام مركز شرطة.

Twitter: @ketab_n

مراكز الشرطة متشابهة في كل العالم. ومن سخريات التاريخ لا القدر انني ابتسمت بهدوء: الحمد لله، انا، فعلاً، في يد الشرطة!!

قرأوا عليَّ «حقوقي»، وقالوا انهم يصادرون على هذه الحقوق الى حين وصول ضابط التحقيق المسؤول. ثم طلبوا افراغ جيوبي من محتوياتها: الاوراق. قلم الحبر. بعض النقود. مفكرة. علبة سجائر. قداحة ومسبحة.

قلت لنفسي: الشرطة هي الشرطة في كل مكان. وسألتهم:

ـ هل استطيع التدخين الآن؟

ـ تـفـضـل.

ـ هل لي بمنفضة؟

تبادلوا النظرات، وقال احدهم:

ـ انت اول شخص يطلب منفضة هنا. لا منافض لدينا. تستطيع ان تستعمل المصطبة.

عبأوا نموذجاً. ثم اخذوني الى الحجز الانفرادي في غرفة ضيقة مصفحة.

ليست زنزانة كتلك التي نألفها. انها اوسع قليلاً. نظيفة. وفي ركنها مرحاض من النيروستا. وهناك اريكة بغطاء بلاستيكي وطاقة ضوء في منتصف السقف. لم يكونوا بحاجة الى الأصفاد كما يبدو، لان بابين حديديين يصطفقان الواحد تلو الآخر بعنجهية واثقة من نفسها.

خلعت حذائي واسندت ظهري الى الجدار البارد في زاوية الغرفة. لم تكن لدي هناك أية افكار خاصة، انتظرت. فقط انتظرت ثم ناديت الحارس وطلبت شيئاً للقراءة. قال: انتظر حتى يحضر الضابط المسؤول.

بعد دقائق جلجل البابان الحديديان واقتادوني الى غرفة اخرى. كان هناك رجل آخر باللباس المدني. قال: سيدي انت متهم بالارهاب. ونريد بصمات اصابعك ويديك وصورتين، امامية وجانبية.

لم يضع وقتاً وباشر العمل. قلت: نحن لسنا ارهابيين. نحن ضحايا الارهاب. هل تعرف «كوميديا الاخطاء» لشكسبير. انكم تؤلفون الآن تراجيديا الاخطاء. تبحثون عن الارهاب في الاتجاه المعاكس.

قال: هل انت قلق.

قلت: قلق على جمهوري فقط.

طلب توقيعي على لوحة البصمات.

قلت: انه عمل تشكيلي رائع. وبهذا التوقيع تستطيعون بيعه بسعر عال جداً.

Twitter: @ketab_n

هل استطيع الحصول على نسخة؟

دخل شرطي آخر:

ـ هالو

ـ هالو

ـ مستر درويش

ـ انا مستر القاسم

ـ اين مستر درويش

ـ مستر درويش في فرنسا

ـ لكنكما كنتما معاً في منزل ناجي العلي.

ـ قمنا بواجب العزاء لدى اسرة صديقنا الفنان الكبير ناجي العلي. ثم ذهب كل منا لشأنه.

ـ لكنك تقول ان مستر درويش في فرنسا.

ـ صحيح. هو في فرنسا

ـ كيف سافر؟ ومتى؟

ـ سافر عبر مطاركم مثلما حضر عبر مطاركم. لم يتسلل. وسافر في موعد اقلاع الطائرة.

خرج مسرعاً. ثم عاد بعد دقائق.

ـ لم تعد شوارع لندن آمنة.

ـ هل بسببي انا لم تعد شوارعكم آمنة. قلت لصديقك وها انا اكرر: نحن لسنا ارهابيين. نحن ضحايا الارهاب. شوارعنا نحن ايضاً ليست آمنة. وكما ترى فأنا شخصياً لست آمناً. نحن أكثر الناس حاجة الى الامن.

خرج، وعاد بعد قليل.

ـ مستر القاسم نحن آسفون، لقد حدث خطأ في التشخيص.

ـ خطأ في التشخيص؟ سكوتلاند يارد ترتكب خطأ في التشخيص؟ شكراً على اعتذاركم لكن ذلك لا يلغي مرارتي واستيائي مما حدث.

ـ نحن آسفون وانت حر منذ هذه اللحظة. تستعيد اشياءك ونتمنى لك اقامة طيبة في لندن.

مرة اخرى يا محمود، لا استطيع ادعاء البطولة، فقد راودني الشك بأن اخلاء سبيلي يعني ان جماعة ما تنتظرني في الخارج للتصرف بي بشكل آخر.

قلت: اعتقد انه من المفروض ان تعيدوني الى حيث اعتقلتموني.

Twitter: @ketab_n

قال: انت على حق. سآخذك بسيارتي.

قلت: اذا كان الامر كذلك فأرجو ان تأخذوني الى قاعة البلدية. لعل الجمهور ما زال منتظراً هناك.

وهكذا، كان. وواصلت «الارهاب» في القاعة. وكان التعاطف والانسجام بيني وبين الجمهور رائعاً الى درجة البكاء. ولا اعرف كيف اسدد ديوني لهذا الجمهور الطيب الصادق الذي لف قلبي بالعلم ولف عيني بالأمل وشحن روحي وجسدي بشهوة الفداء المقدسة.

ويا اخي محمود درويش،

لسنا غصناً مقطوعاً من شجرة هذه الامة. نحن حراس احلامها وسدنة نارها الطاهرة. كان الله في عوننا. كان الله في عوننا.

وكيف انت في هذه الايام؟ لا تقلق كثيراً، لكن يستحسن ان تحافظ قليلاً على صحتك... لا بأس في شيء من الحذر، في مواجهة البرد والشرطة والتدخين!

اخوك سميح القاسم

(حيفا ـ ١٩٨٨/٧/٢٦)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

	الصفحة
■ تقديم ـ بقلم اميل حبيبي	٥
■ الحزمة الأولى	١٣
* تغريبة (قصيدة)	١٥
* أسميك نرجسة حول قلبي (قصيدة)	٢٧
■ الحزمة الثانية	٣٣
* رسالة أولى	٣٥
* الوطن ينتظر عودتك	٣٩
* هناك.. شجرة خروب	٤٣
* سأحفر اسمينا على الريح	٤٩
* لا توبخ حنيني	٥٣
* نرسم بحبر الروح سهماً واضحاً..	٥٧
* خذ القصيدة عني!	٦٣
* لن يفلت أحد من شهوتنا	٦٧
* طائر على حجر	٧١
* الصمت الجهوري	٧٥
* بيت من هواء	٧٩
* الملاك	٨٥
* ...والدكتاتور	٨٩
* إضحك إيك!	٩٥
* حاضر سابق...	٩٩
* أخطاء وخطايا	١٠٣
* هو.. أو هو	١٠٧

Twitter: @ketab_n

* نحن ام ابن زريق ؟ ١١٣
* احصدوهم... ١١٧
* ..يبطل المطر وتنبت الحقيقة ١٢١
* سفر بـلا سفر ١٢٥
* لقاءاً.. والى الوداع! ١٢٩
* شـتـاء ١٣١
* احمل قصيدتك.. واتبعني! ١٣٥
* شيء.. من لا شيء ١٣٩
* للأسى سماء من طيور ١٤٥
* تصور انك تأكلني ١٤٩
* وداعاً، أنا مسافر فيّ! ١٥٣
* شقاء يوم الثلاثاء ١٥٧
■ الحزمة الثالثة ١٦١
* منذ البداية ١٦٣
* قبلتي الحجر! ١٦٩
* كرم نابوت، ومهنة الورد ١٧٣
* على هذا الحجر أبني دولتي! ١٧٧
* نعم.. بلادنا هي بلادنا! ١٨١
* نحبها.. ابنة الكلب الحياة! ١٨٧
* حنين الى الشعر ١٩١
* الموت واللقاء.. هناك أو هنا ١٩٧
* اشرح لهم.. اشرح لهم صبرك ٢٠١
* احذر... البرد والشرطة وللتدخين ٢٠٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

.. الآن، وقد هطلت الحجارة على هذه الصحراء
فاستصلحتها فأثمرت تيناً وزيتوناً، أرى الى هذه الرسائل
أنها لم تكن مجرد قطرات دمع من عيون بخيلة بالدمع
بل مشي حجلان كبيرة تسير وراءها أفراخها
قاطعة، بأمان، عرض شارع معبّد بالزفت والقطران.
أراها ضجة العصافير، شعراً، في سيمفونية فجائية تبشر
بمقدم الربيع في بلادنا.

اميل حبيبي

@kitab_n